سلسلة المعارف التعليمية

العقيدة الإسلامية

دروس في
العقائد الإسلامية



دار المعارف الإسلامية الثقافية

سلسلة المعارف التعليمية

دروس في العقائد الإسلامية



دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتـــاب: دروس في العقائد الإسلامية

إعـــــــداد: مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة

إصـــــــدار: دار المعارف الإسلاميّة الثقافية

تصميم وطباعـة: DB UK 009613 336218

الـــطـــبـــعـــة: الأولى- 2022م / 1444هـ

ISBN 978-614-467-301-0

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سلسلة المعارف التعليمية

دروس في العقائد الإسلامية



دار المعارف الإسلامية الثقافية


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 15

الباب الأوّل: بحوث تمهيديّة 19

الدرس الأوّل: علم الكلام والعقائد 21

تمهيد 23

مفهوم علم الكلام وموضوعه 23

أهمّيّة علم الكلام 24

مصادر علم الكلام 25

الدرس الثاني: فوائد علم الكلام 31

تمهيد 33

الفائدة المتوخّاة من البحث العقديّ 33

الباب الثاني: التوحيد 41

الدرس الثالث: الأدلّة على وجود الله: برهان النَّظم (1) 43

تمهيد 45

تقرير برهان النَّظم 45

برهان النَّظم بنظر الفلاسفة والعلماء 48

برهان النَّظم في الآيات والروايات 49

الدرس الرابع: الأدلّة على وجود الله: برهان النَّظم (2) 55

تمهيد 57

الآيات في خلق الأرض والشّمس والقمر 57

الآيات في خلق المجرّات الكونيّة 60

التأثير المعنويّ لمعرفة الآيات الإلهيّة 63

الدرس الخامس: الأدلّة على وجود الله: الفطرة 69
تمهيد 71
تعريف المعرفة الفطريّة 71
معنى الفطرة 72
المعرفة الفطريّة في الآيات والروايات 72
مزايا المعرفة الفطريّة وآثارها 73
طرق إظهار الفطرة وبلورتها 74
العبادة والطّاعة 77
الدرس السادس: توحيد الله 83
تمهيد 85
أهمّيّة التوحيد في الكتاب والسنّة 85
معنى التوحيد 86
مراتب التوحيد 87
الدرس السابع: الأدلّة على وحدانيّة الله 93
تمهيد 95
تعدّد الآلهة مخالف للألوهيّة 95
الانتظام في الكون 96
إخبار الأنبياء عن وحدانيّة الله 98
شهادة الفطرة على الوحدانيّة 99
الدرس الثامن: الصفات الثبوتيّة علم الله وقدرته 103
تمهيد 105
علم الله 105
قدرة الله 109
الدرس التاسع: الصفات السلبيّة 115
تمهيد 117

نفي الجسمانيّة 117
التّركيب 118
الجهة والمكان 118
الرّؤية بالعين الباصرة 119
الباب الثالث: العدل الإلهيّ 123
الدرس العاشر: العدل أهمّيّته والأدلّة عليه 125
تمهيد 127
أهمّيّة العدل 127
مفهوم العدل 128
حدود العدل الإلهيّ 129
أدلّة العدل الإلهيّ 131
الدرس الحادي عشر: العدل الإلهيّ واختيار الإنسان 135
تمهيد 137
الجبر أو الاختيار؟ 137
الأمر بين الأمرين 138
العدل الإلهيّ والشدائد 140
الدرس الثاني عشر: العدل الإلهيّ وإشكاليّة الفوارق والاختلافات 145
تمهيد 147
النسبة بين العدل والتّشابه 147
المعوّقون والمتخلّفون عقليّاً 150
الحكمة من خلق الكافرين 152
الدرس الثالث عشر: العدل الإلهيّ والعقاب الأخرويّ 157
تمهيد 159
مفهوم الجزاء والخلود 159
تناسب الذّنب مع الخلود في ضوء العدل الإلهيّ 160

الصّفح عن العُصاة 164
تخفيف العذاب عن المخلّدين في النار 165
الباب الرابع: النبوّة 169
الدرس الرابع عشر: النبوّة تعريفها، فوائدها ودليل الحاجة إليها 171
تمهيد 173
مفهوم النبيّ والرسول 173
الفرق بين النبيّ والرّسول 174
درجات الأنبياء والرُّسل 176
فوائد البعثة والدليل على الحاجة إلى النبوّة 176
الدرس الخامس عشر: سبل معرفة الأنبياء 183
تمهيد 185
سبل معرفة النبوّة 186
المُعجزة 187
الفرق بين المُعجزة والكرامة 190
تناسب المُعجزة مع الأوضاع السائدة 191
الدرس السادس عشر: صفات الأنبياء 195
تمهيد 197
العلم 197
العصمة 201
الدرس السابع عشر: إثبات نبوّة نبيّ الإسلام(1) دلائل نبوّة نبيّ الإسلام..207
تمهيد 209
معجزة القرآن الكريم 209
وجوه الإعجاز القرآنيّ 210
الدرس الثامن عشر: إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (2) 221
تمهيد 223

السجايا الأخلاقيّة والسيرة الاجتماعيّة لنبيّ الإسلام 223
المقتضيات الزمانيّة والمكانيّة للدّعوة 224
أُمّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم 225
بشارة الأنبياء السّابقين بنبوّة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم 227
الدرس التاسع عشر: الخاتميّة في النبوَّة 233
تمهيد 235
ختم النبوّة من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ 235
السرّ في ختم النبوّة 238
الباب الخامس: الإمامة 245
الدرس العشرون: الإمامة مفهومها والحاجة إليها 247
تمهيد 249
مفهوم الإمامة 250
ضرورة بحث الإمامة 250
الدرس الحادي والعشرون: أدلّة حاجة الأمّة إلى الإمام 257
تمهيد 259
تبيين الدِّين 259
رفع اختلاف الأمّة والحفاظ على الوحدة 261
مَنْع الانحراف في الدِّين 262
تحقيق الدّين وإقامة الحدود الإلهيّة 262
الدرس الثاني والعشرون: نصب الإمام وخصائصه 267
تمهيد 269
الدليل العقليّ على تعذّر اختيار الأمّة للإمام 269
الدليل الدينيّ على نفي اختيار الأمّة للإمام 270
خصائص الإمام 273

الدرس الثالث والعشرون: سُبُل معرفة الإمام 281
تمهيد 283
النصّ 283
الكرامة 285
الفضائل والمناقب 286
الأوصياء الاثنا عشر في نصوص الفريقين 286
الدرس الرابع والعشرون : أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم والسنّة الشريفة 291
تمهيد 293
مصداق أهل البيت عليهم السلام في القرآن والسنّة 293
فضائل أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم 296
فضائل أهل البيت في السنّة 297
فضائل أهل البيت عليهم السلام في الأدعية والزيارات 299
الدرس الخامس والعشرون: إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم 303
تمهيد 305
آية الولاية 305
آية الإنذار 308
آية التّبليغ 309
الدرس السادس والعشرون: "إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في السنّة النبويّة 315
تمهيد 317
حديث الغدير 317
حديث المنزلة 321
الدرس السابع والعشرون: إمامة سائر الأئمّة عليهم السلام 327
تمهيد 329
آية أولي الأمر 329

حديث لوح الزّهراء عليها السلام 332
النصوص العامّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام 332
النّصوص الخاصّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام 334
الدرس الثامن والعشرون: إمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف 337
تمهيد 339
ضرورة الحجّة 339
أصالة المهدويّة 340
النّصوص على إمامة المهديّ عجل الله فرجه الشريف 341
الدرس التاسع والعشرون: غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف 347
تمهيد 349
الغَيْبة 349
مفهوم الغَيْبة 350
فائدة الإمام الغائب 351
أسباب الغَيْبة 352
انتظار الفرج 354
طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف 356
الدرس الثلاثون: ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف 361
تمهيد 363
الأوضاع قبل الظهور 363
علائم الظّهور 364
دولة العدل المهدويّة 367
الدرس الحادي والثلاثون: مسؤوليَّة الأمّة تجاه الإمام المعصوم 373
تمهيد 375
معرفة الإمام 375
مودّة الإمام 376
التولّي والتبرّي والطاعة 377

أخذ العلم عن الإمام 379
الدرس الثاني والثلاثون: النيابة العامّة للفقهاء في عصر الغَيْبة 383
دور الفقهاء في عصر الغَيْبة 385
الأئمّة عليهم السلام عملوا على إعداد فقهاء وشدّدوا على أهمّيّة التفقّه في الدين . 386
النيابة العامّة في عصر الغَيْبة للفقهاء العدول 388
الباب السادس: المعاد 393
الدرس الثالث والثلاثون: المعاد أهمّيّته ودلائل إثباته 395
تمهيد 397
المعاد 398
أهمّيّة المعاد 398
آثار الإيمان بالمعاد 399
دلائل إثبات المعاد 400
أسباب إنكار المعاد 403
الدرس الرابع والثلاثون: الاحتضار والموت 409
تمهيد 411
حتميّة الموت 412
استذكار الموت 412
أسباب الخوف من الموت 413
حالة الاحتضار 414
سكرات الموت 414
مشاهدة ملك الموت وأولياء الله 415
قبض الروح 416
الفرق بين موت المؤمن وموت الكافر 416
الدرس الخامس والثلاثون: القبر وعالم البرزخ 421
تمهيد 423

ماهيّة البرزخ 423
البرزخ في القرآن والأحاديث 424
محلّ البرزخ ومدّته 425
القبر أوّل مراحل عالم البرزخ 425
ارتباط أهل البرزخ بالدنيا 430
الرجوع من البرزخ إلى الدنيا 431
الدرس السادس والثلاثون: الأحوال العامّة للقيامة 435
تمهيد 437
أسماء القيامة 437
علامات يوم القيامة 440
الدرس السابع والثلاثون: مواقف القيامة 445
تمهيد 447
الحوادث قبل القيامة 447
النفخة الأولى والثانية في الصور 448
النشر أو البعث 449
الحشر والجمع 451
فتح سجلّ الأعمال 452
الدرس الثامن والثلاثون: الحساب والشهود 457
تمهيد 459
صحيفة الأعمال 459
موقف الحساب 460
أنواع الحساب 461
سرعة الحساب 462
الشهود 462
الدرس التاسع والثلاثون: الميزان والصراط 469
تمهيد 471

الميزان 471
الصراط 473
الحوض 474
ظهور عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهدى عليهم السلام يوم القيامة 475
الدرس الأربعون: الشفاعة يوم القيامة 479
تمهيد 481
أهمّيّة الإيمان بالشفاعة 481
المفهوم الصحيح للشفاعة 482
الشفاعة في القرآن الكريم 483
الشفعاء 484
شروط التشفّع 484
موضوع الشفاعة 485
الدرس الحادي والأربعون: الجنّة ونعيمها 489
تمهيد 491
أسماء الجنّة 492
درجات الجنّة 492
أبواب الجنّة 493
تنوّع النِّعم في الجنان 493
الرضوان الإلهيّ 497
الدرس الثاني والأربعون: جهنّم وعذابها 501
تمهيد 503
أسماء جهنّم 503
درَكات جهنّم 504
أبواب جهنّم 504
خزّان جهنّم 505
تنوّع العذاب في النار 506
أنواع العذاب في جهنّم 507
الكتب الفارسية 529

المقدّمة

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**مَنْ مَاتَ منْكُمْ عَلَى فرَاشه وَهُوَ عَلَى مَعْرفَة حَقِّ رَبِّه وَحَقِّ رَسُوله وَأَهْل بَيْته مَاتَ شَهيداً، ووَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّه، واسْتَوْجَبَ ثَوَابَ مَا نَوَى منْ صَالح عَمَله، وقَامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إِصْلَاته لسَيْفه، فَإِنَّ لكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةً وأَجَلًا**»[1].

قيل إنّ الإنسان ليس إلّا مجموعة من الأفكار، لكنّ هذا الكلام ليس بدقيق؛ لأنّ الإنسان ذو هويّة متعدّدة الأوجه؛ فله -إلى جانب العقل والفكر- أبعادٌ روحيّة وسلوكيّة وفطريّة أيضاً. نعم، لا ريب في أنّ الفكر والعقيدة من أهمّ أبعاد هويّة الإنسان؛ بل إنّهما يمثّلان العنصر الأساس والبنّاء في حياة البشر، والعمود الفَقَريّ لوجودهم الحقيقيّ.

ولا شكّ في أنّ غالبيّة الناس يمارسون أعمالهم دون تأمّل أوتفكير في ما يعملون، وأنّ العواطف تغلب العقل في حياة معظمهم؛ ولكن ينبغي أن لا نتجاهل أنّ العواطف والأحاسيس، وكذلك السلوك البشريّ عموماً، لا يمكن السيطرة عليها إلّا بوساطة العقل والفكر، وأنّ منشأ كثير من الأعمال هو الأفكار الخاطئة والعقائد المنحرفة.

---

(1) الشريف الرضي، السيد محمد الرضي بن الحسن الموسوي، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا.ن، لبنان - بيروت، 1387هـ - 1967م، ط1، ص283، خطبة190، ومن خطبة له عليه السلام يحمد اللّه ويثني على نبيه ويعظ بالتقوى.

من هذا المنطلق، حرص الأنبياء الإلهيّون -دائماً- على أهمّيَّة السلامة الفكريّة وعمدوا إلى طرح معتقدات أساسيّة في حياة البشر، وسَعَوا إلى تشذيب العقائد والنهوض بالعقل البشريّ، وجعلوا ذلك في رأس سلّم أولويّاتهم.

ويشهد تاريخ الإنسانيّة على سعي كثيرٍ من الأفراد، على مرّ الزمن، إلى تطوير عمليّة التفكير، وإلى إنتاج كثير من الرؤى والمدارس الفكريّة والفلسفيّة، في سبيل معرفة الحقيقة، والكشف عن أسرار الوجود ودور الإنسان. ولكن غالباً ما كان هؤلاء المفكّرون ينحرفون عن جادّة الصّواب ويتّبعون التخرّصات والأوهام بدلاً من الاحتكام إلى المنطق والعقل، ويغوصون في ظلام الجهل بدلاً من الاستنارة بنور المعرفة.

إنّ العقل البشريّ لم يكتسب الحرِّيَّة والنّجاح في معرفة حقيقة الوجود وحقيقة دور الإنسان في هذا الكون إلّا من خلال الرؤيّة الصحيحة المتحصّلة من الدين والعلم الصّائب. من هنا تبدأ رسالة الأنبياء الإلهيّين في توجيه الفكر البشريّ، وتنفتح أمام عقل الإنسان نافذة باتّجاه الحقائق الخالدة، وذلك من خلال توظيف ينابيع العقلانيّة الأصيلة. وعلى هذا الأساس، شدّد مذهب أهل البيت عليهم السلام على أنّ أفضل السبل لمعرفة الحقائق هو العقلانيّة في ظلّ الوحي وضمن دائرة المصادر الإلهيّة.

في هذا السياق وفي ضوء النتائج الطيّبة التي تحقّقت في مجال علم الكلام الإسلاميّ، جرى الإعداد لتدوين العديد منالمصنّفات التعليميّة في العقيدة الإسلاميّة، وكانت نتيجة بعض هذه الجهود المباركة كتاب «دروس في العقائد والمعارف»، تأليف حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ محمّد تقيّ سبحانيّ، وحجّة الإسلام والمسلمين الشيخ رضا برنجكار.

وقد قام مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة بالاستفادة من هذا الكتاب في إعداد المتن الدراسيّ الماثل بين يديك، أخي القارئ، بعد أن وجدنا أنّه يلبّي

الحاجات التعليميّة المعاصرة للدرس العقديّ في حوزاتنا ومعاهدنا العلميّة، وهو خطوة مباركة -إن شاء الله- في سبيل الرقيّ بالدرس العقديّ على ما له من الأهمّيّة، لاسيَّما في مجتمعاتنا الراهنة. ولا يفوتنا تقديم الشّكر الجزيل للمؤلِّفَيْن المحترمَيْن، وكذلك لكلّ من ساهم في إعداد هذا المتن. والأمل الكبير في أن يحقّق هذا الجهد العلميّ الغرض الأساس من طرحه، والله وليّ التوفيق.

في الختام، نقدّم هذا العمل البسيط إلى قائد البشريّة ومعلّمها الكبير، إمام العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، سائلين المولى العليّ القدير أن يعجِّل فرجه ويسرّنا برؤيته، وأن يكتبنا في عداد ادخاره وأعوانه والممهدين لظهوره، إنه سميع مجيب.

والحمد للَّه ربّ العالمين

مركز المعارف للمناهج والمتون التعليميّة

الباب الأوّل

بحوث تمهيديّة

الدرس الأوّل

علم الكلام والعقائد

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح مفهوم علم الكلام وموضوعه.
2. يبيّن أهمّيّة علم الكلام.
3. يتعرّف مصادر علم الكلام.

* تمهيد

تُبحث الموضوعات المتّصلة بالمعارف والعقائد ضمن علم يُطلق عليه اسم «علم الكلام»؛ ولهذا السّبب ينبغي التعرّف، بمقدارٍ كافٍ، إلى هذا العلم في البحوث التمهيديّة لهذا الكتاب.

* مفهوم علم الكلام وموضوعه

علم الكلام هو العلم الذي يبحث في العقائد والمعارف العقديّة، فيستخرجها من المصادر الإسلاميّة المعتبرة ويسعى إلى شرحها وإثباتها، ويعمل على الدّفاع عنها ويردّ على الشّبهات المطروحة في مجال العقائد المذكورة[1].

فعلى سبيل المثال، عند البحث في مسألة الشّفاعة، يُراجع المُتكلّم الآيات والروايات المُرتبطة بهذا الموضوع ليستخرج معنى الشَّفاعة، ويثبت، بمقتضى المصادر الدينيّة، أنّ الله -سبحانه وتعالى- قد منّ على بعض عباده بالشَّفاعة في غيرهم. ثمّ يتطرّق إلى توضيح مفهوم الشَّفاعة وبيان حدودها وشروطها، ويبيّن أنّ الشفاعة مقتصرة على من يرتكب خطأً، وهو مرضيٌّ عن دينه، فيحتاج إلى من

(1) لمعرفة المزيد حول علم الكلام، أنظر: برنجكار، روش شناسى علم الكلام (أسلوب التحقيق في علم الكلام)؛ مطهري، آشنائى با علوم اسلامى: كلام، عرفان، حكمت عملى (التعرّف على العلوم الإسلاميّة: الكلام، العرفان، الحكمة العمليّة)؛ خسروبناه، كلام جديد، ص6.

يسانده ويساعده في آخرته. وبعد ذلك يعمد المتكلّم إلى إثبات الشفاعة عن طريق الأدلّة العقليّة والنقليّة (القرآن والسنّة)، ويتصدّى لردّ الشّبهات في هذا الخصوص.

وعلى هذا الأساس، فموضوع علم الكلام هو المعارف العقديّة لا الأحكام العمليّة والأخلاقيّة في الإسلام. والمراد من العقائد والمعارف هو التعاليم الإسلاميّة التي يُطلَب بها الإيمان والتّصديق مثل أصل التوحيد.

* أهمّيّة علم الكلام

تنبع أهمّيّة كلّ علم من الموضوعات التي تُبحث فيه،ومن الغاية التي يُتوصّل إليها. وما يُبحث في علم الكلام -كما ذكرنا سابقاً- هو العقائد الدينيّة؛ ومن هنا لا بدّ من معرفة مدى أهمّيّة العقائد الدينيّة.

بقليل من التأمّل، يمكن أن ندرك أنّ الإنسان مجموعة من العقائد والأفعال، وغالباً ما تكون الأفعال مستندة إلى الأفكار والتّصديقات، في حين تشكّل العقائدُ الأساس الذي يشيّد عليه الإنسان تصرّفاته وأفعاله. وربّما يمكن القول إنّ جميع أعمال الإنسان ناشئة من معتقداته بنحوٍ من الأنحاء، وعلى هذا الأساس، فإنّ أهمّيّة علم الكلام الذي يأخذ على عاتقه بيان العقائد والأفكار تفوق أهمّيّة العلوم الأُخرى المتعلّقة بسلوك الإنسان وأفعاله.

كما يمكن بيان مدى أهمّيّة علم الكلام من زاوية أخرى، وهي: أنّ كلّ إنسان يسعى جاهداً إلى تحصيل السّعادة لنفسه، وثمّة أديان ومذاهب بشريّة كثيرة تزعم أنّها قادرة على إيصاله إلى السعادة المنشودة؛ ولكن من الواضح أنّه لا دين كالدِّين الإلهيّ قادر على ضمان السعادة الحقيقيّة للإنسان؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- الخالق للإنسان يعرف الأمور الكفيلة بإيصال الإنسان إلى السعادةأكثر من أيّ شخص آخر، كما لا يمكن للإنسان معرفة الدِّين واستكشاف الأمور الجالبة

للسعادة ما لم يؤمن بوجود اللَّه والنبيّ ويَثْبُت له وجُودُهُما. ثمّ إنّ إثبات وجود الله وصفاته، وكذلك التعرّف إلى الهداة الإلهيّين المبعوثين من قبله وأُمورٌ من هذا القبيل، إنّما تتحقّق بوساطة علم الكلام؛ وعليه، لا يمكن للإنسان نيل السعادة دون علم الكلام والعقائد الإسلاميّة.

* مصادر علم الكلام

لا يخفى أنّ المعارف في كلّ علم إنّما تُستقى من مصدرٍ أو مصادر محدّدة، وعلمُ الكلام ينتهل معارفه من المصادر الآتية:

1. العقل

بعدما يُثْبِتُ الإنسانُ وجودَ الخالقِ بعقله، يتطلّع إلى الوقوف على الحقائق الأُخرى في العالم، وذلك من قبيل: من أين جاء؟ وإلى أين يذهب؟ وأين هو الآن؟ وما الهدف من مجيئه إلى هذا العالم؟ فيردّ على بعض هذه الأسئلة بعقله، وهي الأسئلة التي لا يتسنّى معرفة الدين دون معرفة الجواب عنها.

وبهذا يتبيّن أنّ العقل -وعلى الرّغم من كونه مقيّداً ومحدوداً- يُعَدُّ حجّةَ الله على العباد، فلا تتّضح كثير من الأُمور دونه.

وفي هذا السّياق، رُوي أنّ ابن السكّيت سأل الإمام أبا الحسن الرِّضا عليه السلام: ما الحجّة على الخلق اليوم؟ فأجابه قائلاً:

«الْعَقْلُ يُعْرَفُ بِهِ الصَّادِقُ عَلَى اللَّهِ فَيُصَدِّقُهُ وَالْكَاذِبُ عَلَى اللَّهِ فَيُكَذِّبُه»[1].

(1) الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1363ش، ط5، ج1، ص24؛ ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1404هـ - 1363ش، ط2، ص450؛ الصدوق، الشيخ محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسّسة الأعلمي، لبنان - بيروت، 1404هـ - 1984م، لا.ط، ج2، ص80.

من هنا، ولمّا كان للعقل حضورٌ فاعل في مسيرة الأبحاث الكلاميّة، فيمكن أن نخلص إلى أنّ علم الكلام حجّة بسبب اعتماده على العقل والاستفادة منه في أهمّ أبحاثه.

2. القرآن والسنّة

يسعى الإنسان إلى مدّ جسور الارتباط مع خالقه وبارئه وأداء فروض الطاعة والعبادة له؛ بيد أنّه لا يستطيع إدراك كيفيّة تلك العبادة ومعرفة كلّ ما يُرضي ربّه بمجرّد الاعتماد على عقله؛ فيشعر بضرورة الاستعانة بالله وبنبيّه، ويكون بصدد الوصول إلى نبيّ الله؛ ليتمكّن من حلحلة مشاكله عبر الرجوع إلى هذا النبيّ المُرسل وإلى دينه.

ومن المسلّم به أنّ الأديان الإلهيّة والدِّين الإسلاميّ تحديداً إنّما جاءت لهداية البشر، وهذا ما تؤكّد عليه النصوص الدينيّة أيضاً، فنجد أنّ القرآن الكريم شدّد بكلّ صراحة على أنّه هدى للناس[1]، ودليل هادٍ للمسلمين[2]، وأنّه كتاب مبين يهدي المؤمنين والمتّقين[3]، وهو من يُخرج الناس من الظّلمات إلى النور[4]، ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه[5]، ومن صفاته أنّه نور[6]، وحكمة[7]، وذكر[8]، وأنّه تبيان لكلّ شيء[9].

(1) انظر: سورة البقرة، الآية 185.
(2) انظر: سورة النحل، الآية 89.
(3) انظر: سورة النمل، الآيَتَيْن 1 - 2؛ سورة البقرة، الآية 2.
(4) انظر: سورة إبراهيم، الآية 1؛ سورة الحديد، الآية 9.
(5) انظر سورة النحل، الآية 64.
(6) انظر: سورة التغابن، الآية 8.
(7) انظر: سورة الإسراء، الآية 39؛ سورة البقرة، الآية 231؛ سورة آل عمران، الآية 81.
(8) انظر: سورة الأنبياء، الآية 50.
(9) انظر: سورة النحل، الآية 89.

وورد في أحاديث متعدّدة أنّ القرآن كتاب يتضمّن أخبار كلّ ما حدث وما يحدث في الكون. ومن الواضح والجليّ أنّ الناس وحدهم غير قادرين على فهم كلّ هذه العلوم، وأنّهم يحتاجون في فهمها إلى النبيّ الأكرم ﷺ وإلى أهل البيت عليهم السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام حول القرآن الكريم وما يعرفه من علومه: «**أَنَا أَعْلَمُ كِتَابَ اللّه، وَفِيْه بَدْءُ الخلق وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة وَفِيه خَبَرُ السَّمَاء وَخَبَرُ الأَرْض وَخَبَرُ الْجَنَة وَخَبَرُ النار، وَخَبَرُ مَا كَانَ وَ[خَبَرُ] مَا هُوَ كَائِنٌ، أَعْلَمُ ذَلِكَ كَمَا أَنْظُرُ إِلَى كَفِّي، إِنَّ اللّهَ يَقُولُ: فِيه تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ**»[1].

وفي هذا السّياق، صرّحت كثير من الأحاديث أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام يعلمون بكلّ ما يحتاجه الناس، فمن اللّازم الرجوع إلى أحاديثهم والتدبّر فيها، ومن ثمّ إطاعتهم والتسليم لأوامرهم[2]. وصرّحت بعض الأحاديث أنّ من لا يفعل ذلك، ويطلب الهداية من غيرهم سيكون مصيره الضلال[3].

تناهى إلى أسماع الإمام الباقر عليه السلام وجود شخصين يأخذان أمورهما الدينيّة من غير أهل البيت عليهم السلام، وكانا يتحدّثان بذلك أمام عامّة الناس، فقال لهما: «**شَرِّقَا وغَرِّبَا، فَلَا تَجِدَانِ عِلْماً صَحِيحاً إِلَّا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْت**»[4].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص66.
(2) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص399؛ الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات، تصحيح: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلمي، إيران - طهران، 1404هـ - 1362ش، لا.ط، ص9؛ المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسّسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج2، ص81.
(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص374؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص13.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص399.

المفاهيم الرئيسة

- علم الكلام هو العلم الذي يبحث في العقائد والمعارف العقديّة، فيستخرجها من المصادر الإسلاميّة المعتبرة ويسعى إلى شرحها وإثباتها، ويعمل على الدّفاع عنها بالردّ على الشّبهات المطروحة.
- موضوع علم الكلام هو المعارف العقديّة لا الأحكام العمليّة والأخلاقيّة في الإسلام، والمراد من العقائد والمعارف هو التعاليم الإسلاميّة التي يُطلَب بها الإيمان والتّصديق مثل أصل التوحيد.
- تنبع أهمّيّة كلّ علم من الموضوعات التي تُبحث فيه، ومن الغاية التي يُتوصّل إليها.
- علمُ الكلام يَنْهَلُ معارفه من القرآن والسنّة والعقل.
- العقل -وعلى الرّغم من كونه مقيّداً ومحدوداً- يُعَدُّ حجّةَ الله على العباد، فلا تتّضح كثير من الأُمور دونه.
- شدّد القرآن الكريم بكلّ صراحة على أنّه هدى للناس، ودليل هاد للمسلمين، وأنّه كتاب مبين يهدي المؤمنين والمتّقين، وهو من يُخرج الناس من الظّلمات إلى النور، ويبيّن لهم ما اختلفوا فيه.
- إنّ الناس وحدهم غير قادرين على فهم كلّ هذه العلوم، وهم يحتاجون في فهمها إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام.

الأسئلة

1. ما الوظائف المُناطة بعلم الكلام طبقاً للتّعريف المذكور؟
2. بيّن أهمّيّة علم الكلام من جهتين.
3. ما دور العقل في تحقّق الأبحاث الكلاميّة؟
4. كيف يساعد كلٌّ من القرآن وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام على بيان التعاليم والمعارف العقديّة؟

الدرس الثاني

فوائد علم الكلام

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح دور البحث العقديّ في اكتساب البصيرة في الدين.
2. يبيّن دور المعارف الدينيّة في الردّ على التساؤلات وإزالة الشبهات.
3. يلخّص دور المعارف الدينيّة في منح القدرة على هداية الآخرين وإرشادهم.

❋ تمهيد

جرى الحديث، في الدرس السّابق، عن أهمّيّة علم الكلام، وقد تمّت الإشارة إلى تعريفه وإلى أهمّ المصادر في فهم العقائد الدينيّة؛ والآن لا بدّ من معرفة ما هي فوائد علم الكلام، ومن أيّ زاوية ينبغي التّحقيق في المعتقدات الدينيّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّنا تحدّثنا، لدى تعريف علم الكلام، عن الفائدة المتوخّاة من المعارف والعقائد الدينيّة بصورة إجماليّة، لكنّنا سنتطرّق، في هذا الدرس، إلى بحث تفاصيل أكثر حول تلك الفوائد.

❋ الفائدة المتوخّاة من البحث العقديّ

عموماً، يؤدّي تعلّم العقائد بصورة صحيحة ومُستدلّة إلى ثبات الإنسان على عقيدته وصموده في مسيرة الحركة المعنويّة. قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في هذا الصّدد: «**مَنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّين بِالرِّجَال، أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالَ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ؛ وَمَنْ دَخَلَ فِيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّة زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ**»[1].

(1) ابن أبي زينب النعماني، الشيخ محمد بن إبراهيم، الغَيْبة، تحقيق: فارس حسون كريم، أنوار الهدى، إيران - قم، 1422هـ ط1، ص22.

ويمكن تفصيل الكلام في الفوائد المتوخّاة من بحث العقائد الدينيّة ضمن المحاور الآتية:

1. البصيرة في الدِّين

قيمة الإنسان رهن بمدى معرفته ونفاذ بصيرته؛ لذا قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**...أنّ قِيمَةَ كُلِّ امْرِئٍ وَقَدْرَهُ مَعْرِفَتُهُ**»[1].

من هنا، فإنّ المعرفة والبصيرة في كلّ أمر تجعلان الإنسان يختار طريقه بمنتهى الوعي وبشكل مدروس، وتمنعانه من الوقوع في الخطأ والزّلل إلّا نادراً، خصوصاً أنّ بعض الأخطاء في الحياة لا يمكن تداركها مطلقاً، وقد تُغيّر مصير الإنسان الأبديّ إلى ما لا يُحمد عُقباه.

إنّ التدبّر في المعارف والعقائد الدينيّة يدفع الإنسان إلى اكتساب البصيرة في الدِّين، وإلى العبور من مرحلة المعرفة السطحيّة إلى درجة عميقة من التفقّه في المسائل الدينيّة والقضايا العقديّة. من هنا، قال النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخصوص: «**أَفْضَلُكُمْ إِيمَاناً أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً**»[2].

ثمّ إنّ أهمّيّة التفقّه في الدِّين كبيرة إلى درجة أنّ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام قال: «**مُتَفَقِّهٌ فِي الدِّين أَشَدُّ عَلَى الشّيطان مِنْ عِبَادَةِ أَلْفِ عَابِدٍ**»[3].

كما تمّ التأكيد على أهمّيّة المعرفة الدينيّة في زيارات الأئمّة المعصومين عليهم السلام بتعابير من قبيل: «عَارِفاً بِحَقِّه» و«عَارِفاً بِحَقِّكَ» و«مُسْتَبْصِراً بِشأنِكَ»، ممّا ورد لقبول الزّيارة والحصول على الثواب.

(1) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1379هـ - 1338ش، لا.ط، ص1.

(2) الشعيريّ، الشيخ محمد بن محمد السبزواري، جامع الأخبار أو معارج اليقين في أصول الدين، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، 1372هـ.ش، ط1، ص5.

(3) الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص7؛ قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات (سلوة الحزين)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، إيران - قم، 1407هـ ط1، ص62.

وبهذا يتبيّن أنّ لعلم الكلام دوراً كبيراً في بيان المعارف الدينيّة الأصيلة؛ بحيث يمكن القول: إنّ إمكان فهم المعارف الدينيّة متوقّف على دراسة علم الكلام.

2. ترسيخ الإيمان والتّحفيز على العمل الصالح

من الفوائد الأُخرى لمعرفة العقائد الدينيّة، ترسيخ الإيمان وزيادة التّحفيز على أداء العمل الصالح؛ فمن لم يبلغ اليقين بوجود الله، ومَن تختلج في صدره شبهات حول مسألة النبوّة، لا يرغب في أداء الأحكام الدينيّة، كما أنّ التدبّر في العقائد الدينيّة يصون الإنسان من مخاطر الحملات الفكريّة، ويخلق لديه الرّغبة اللّازمة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، خصوصاً في عصرنا الرّاهن، بعدما انتشرت أنواع الشبهات العقديّة والأخلاقيّة وعكّرت الأجواء الفكريّة للمجتمع من خلال وسائل التواصل المختلفة؛ حيث تزداد الحاجة إلى التوعية في مجال الفكر والعقيدة؛ من أجل صيانة الناس من أعاصير الشبهات العقديّة، ولإرشادهم إلى طريق العبوديّة.

وعلى الرّغم من أنّ هذا الأمر لا يعدو أن يكون جزءاً من الموضوع، ومن الممكن أن يواجه الشخص مشكلة في مقام العمل حتّى مع حلّ المسائل العقديّة؛ لكنّ الاطمئنان القلبيّ الحاصل في ضوء تعزيز المعتقدات الدينيّة، يوفّر الأرضيّة اللّازمة لزيادة الإيمان وأداء الأعمال الصالحة. وتتجلّى أهمّيّة هذا الأمر في بعض الطرق التي قد يتمّ سلوكها لفهم المعارف الدينيّة، مثل طريق الفطرة، وهو ما سنشير إليه في الدروس القادمة.

وعلى هذا الأساس، لمّا سُئل الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: لِمَ أُمر الخلقُ بالإقرار بالله وبرسوله وحجّته وبما جاء من عند الله؟

أجاب بجواب جدير بالتأمّل، حيث قال عليه السلام: «**لعلل كثيرة، منها أنّ مَنْ لَمْ يُقرَّ بالله لَمْ يَتجنَّبْ مَعاصيه، وَلَمْ يَنْتَه عَن ارْتكَاب الْكَبَائِر، وَلَمْ يُرَاقِبْ أَحداً فِي مَا يَشْتَهِي وَيَسْتَلِذُّ مِنَ الْفَسَادِ وَالظُّلْمِ**»[1].

(1) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، علل الشرائع، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، 1385هـ - 1966م، لا.ط، ج1، ص251.

كما أنّ الإيمان ببعض الصفات الإلهيّة يمهّد للتكامل الأخلاقيّ ويعبّد طريق العبوديّة. فعلى سبيل المثال، لا يتوكّل الإنسان على الله توكّلاً حقيقيّاً ما لم يؤمن إيماناً راسخاً بالقدرة الإلهيّة اللّامتناهية وبحكمته الأزليّة، وكذلك لا معنى لأن يَطلب من الله العفو والصفح عن الذنوب ما لم يؤمن بصفة الرحيميّة؛ لأنّ الإيمان الحقيقيّ بالرّحمة والمحبّة الخاصّة من الله للإنسان يدفعه إلى حبّ المحبوب الأوّل في عالم الوجود، ولا يخفى ما لهذا الإيمان من دور كبير في بناء شخصيّة الإنسان، خصوصاً عندما يعلم بتفجّر بحر المحبّة الإلهيّة لأدنى الأسباب، وشمول العبد الساعي إلى السير في المسار الحقيقيّ للحياة بمنتهى الرأفة والرحمة. نعم، إنّ الله -سبحانه وتعالى- يحبّ العبد الذي يؤوب إلى مولاه ويتوب إليه من معاصيه، فوصف هذه الثلّة المؤمنة قائلاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

3. الرّدّ على التساؤلات وإزالة الشّبهات

تعدّ الشبهات العقديّة من أهمّ التحدّيات الفكريّة والهواجس النفسيّة التي تراود كلّ مؤمن في بعض مراحل حياته، لا سيّما في عصرنا الرّاهن. وفي الحقيقة، يعود سبب بروز قسم كبير من هذه الشبهات إلى الجهل بالمعارف الدينيّة، أو إلى عدم القدرة على التّمييز بين المعارف الصحيحة والخاطئة. وعلى هذا الأساس، إذا امتلك كلّ مؤمن صورة صحيحة عن المعارف الدينيّة، فحينئذٍ لا يتعرّض إلى أزمة روحيّة وفكريّة مقابل الشبهات المثارة؛ بل ويتصدّى لها بصورة فاعلة وعزيمة راسخة.

ثمّ إنّ الإلمام بالمعارف الدينيّة يسهم في حفظ المتعلّم لها من المخاطر، فضلاً عن منحه القدرة على الرّدّ على أسئلة واستفسارات أولئك الذين يعانون من أزمات فكريّة ويواجهون شبهات عقديّة، ومساعدتهم على تجاوز الأزمة العقديّة.

(1) سورة البقرة، الآية 222.

ويتبيّن من المراجعة السّريعة لكلمات الأئمّة المعصومين عليهم السلام أنّ من ينبري للدّفاع عن حياض الدِّين ويتصدّى للرّدّ على الشبهات العقديّة يحظى بمكانة رفيعة عندهم، وسنشير، أدناه، إلى مثال في هذا المجال:

رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّه اتَّصَلَ بِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عليه السلام أَنَّ رَجُلاً مِنْ فُقَهَاءِ شِيعَتِه كَلَّمَ بَعْضَ النُّصَّابِ فَأَفْحَمَهُ بِحُجَّتِه حَتَّى أَبَانَ عَنْ فَضِيحَتِه، فَدَخَلَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام وَفِي صَدْرِ مَجْلِسِه دَسْتٌ عَظِيمٌ مَنْصُوبٌ، وَهُوَ قَاعِدٌ خَارِجَ الدَّسْتِ وَبِحَضْرَتِه خَلْقٌ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ وَبَنِي هَاشِمٍ، فَمَا زَالَ يَرْفَعُهُ حَتَّى أَجْلَسَهُ فِي ذَلِكَ الدَّسْتِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ؛ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أُولَئِكَ الْأَشْرَافِ، فَأَمَّا الْعَلَوِيَّةُ فَأَجَلُّوهُ عَنِ الْعِتَابِ، وَأَمَّا الْهَاشِمِيُّونَ فَقَالَ لَهُمْ شَيْخُهُمْ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ! هَكَذَا تُؤْثِرُ عَامِّيّاً عَلَى سَادَاتِ بَنِي هَاشِمٍ مِنَ الطَّالِبِيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ؟ فَقَالَ عليه السلام: «... **أَتَرْضَوْنَ بِكِتَابِ اللهِ حَكَماً؟**» قَالُوا: بَلَى. قَالَ: «**أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ:** ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]**؟ فَلَمْ يَرْضَ لِلْعَالِمِ الْمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى الْمُؤْمِنِ غَيْرِ الْعَالِمِ، كَمَا لَمْ يَرْضَ لِلْمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُرْفَعَ عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ... فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ رَفْعِي لِهَذَا لَمَّا رَفَعَهُ اللهُ؟! إِنَّ كَسْرَ هَذَا لِفُلَانٍ النَّاصِبِ بِحُجَجِ اللهِ الَّتِي عَلَّمَهُ إِيَّاهَا لَأَفْضَلُ لَهُ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ فِي النَّسَبِ**»[2].

4. القدرة على هداية الآخرين وإرشادهم

إنّ فهم المعارف الأساسيّة للدّين واجب على جميع الأفراد بالمقدار اللّازم، وإن كان يشقّ عليهم البحث والتدبّر في جميع المسائل العقديّة والقضايا الدينيّة؛ ومن هنا، ولأجل أن تستفيد شرائح المجتمع المختلفة من زلال المعارف الدينيّة بصورة تامّة، يجب أن تدرس طائفة منهم هذه الموضوعات دراسة عميقة ودقيقة

(1) سورة المجادلة، الآية 11.

(2) الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق - النجف الأشرف، 1386هـ - 1966م، لا.ط، ج2، ص454.

تمكّنهم من مساعدة الآخرين. ومن الطبيعيّ أنّ من يمتلك اطّلاعاً أوسع وأدقّ على الحقائق الدينيّة يتمكّن من بيان تلك المعارف وإرشاد الناس وهدايتهم بشكل أفضل. وهذا ما دعا إلى الإشادة بمثل هؤلاء العلماء في سيرة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وفي أحاديثهم أيضاً، فقال أمير المؤمنين عليه السلام بشأن من تسلّح بالأبحاث الدينيّة والعقديّة إلى الدرجة التي تتيح له هداية عموم الناس: **«مَنْ كَانَ منْ شيعَتنَا عَالماً بشَريعَتنَا، فَأَخْرَجَ ضُعَفَاءَ شيعَتنَا منْ ظُلْمَة جَهْلهمْ إلَى نُور الْعلْم الذي حَبَوْنَاهُ به، جَاءَ يَوْمَ الْقيَامَة عَلَى رَأْسه تَاجٌ منْ نُور... فَيُخْرجُ كُلَّ مَنْ كَانَ عَلَّمَهُ في الدُّنْيَا خَيْراً، أَوْ فَتَحَ عَنْ قَلْبه منَ الْجَهْل قُفْلاً، أَوْ أَوْضَحَ لَهُ عَنْ شُبْهَة»**[1].

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في هذا الشأن أيضاً: **«عَالمٌ يُنْتَفَعُ بعلْمه أَفْضَلُ منْ سَبْعينَ أَلْفَ عَابد»**[2].

وقال أيضاً: **«الْعَالمُ كَمَنْ مَعَهُ شَمْعَةٌ تُضيءُ للنّاس... تُزيلُ ظُلْمَةَ الْجَهْل وَالْحَيْرَة، فَكُلُّ مَنْ أَضَاءَتْ لَهُ فَخَرَجَ بهَا منْ حَيْرَةٍ أَوْ نَجَا بهَا منْ جَهْلٍ فَهُوَ منْ عُتَقَائه منَ النار»**[3].

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص16.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص33.
(3) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص17.

- يؤدّي تعلّم العقائد بصورة صحيحة ومُستدلّة إلى ثبات الإنسان على عقيدته وصموده في مسيرة الحركة المعنويّة.
- إنّ المعرفة والبصيرة في كلّ أمر تجعلان الإنسان يختار طريقه بمنتهى الوعي وبشكل مدروس، وتمنعانه من الوقوع في الخطأ والزّلل، إلّا نادراً، خصوصاً أنّ بعض الأخطاء في الحياة لا يمكن تداركها مطلقاً، وقد تُغيّر مصير الإنسان الأبديَّ إلى ما لا تُحمَدُ عُقباه.
- إنّ لعلم الكلام دوراً كبيراً في بيان المعارف الدينيّة الأصيلة؛ بحيث يمكن القول: إنّ إمكان فهم المعارف الدينيّة متوقّف على دراسة علم الكلام.
- إنّ التدبّر في العقائد الدينيّة يصون الإنسان من مخاطر الحملات الفكريّة، ويخلق لديه الرغبة اللّازمة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، خصوصاً في عصرنا الراهن، بعدما انتشرت أنواع الشبهات العقديّة والأخلاقيّة، وعكّرت الأجواء الفكريّة للمجتمع، من خلال وسائل التواصل المختلفة.
- إنّ الإيمان ببعض الصفات الإلهيّة يمهّد للتكامل الأخلاقيّ وتعبيد طريق العبوديّة. فعلى سبيل المثال، لا يتوكّل الإنسان على الله توكّلاً حقيقيّاً ما لم يؤمن إيماناً راسخاً بالقدرة الإلهيّة اللّامتناهية وبحكمته الأزليّة.
- إذا امتلك كلّ مؤمن صورة صحيحة عن المعارف الدينيّة، فحينئذٍ لا يتعرّض إلى أزمة روحيّة وفكريّة مقابل الشبهات المثارة؛ بل ويتصدّى لها بصورة فاعلة وعزيمة راسخة.
- إنّ من ينبري للدّفاع عن حياض الدِّين، ويتصدّى للرّدّ على الشبهات العقديّة يحظى بمكانة رفيعة عند أهل البيت عليهم السلام.

الأسئلة

1. كيف يؤدّي فهم المعارف الدينيّة إلى رفع مستوى بصيرة الإنسان في دينه؟ بيّن ذلك وفقاً للأدلّة العقليّة والنقليّة.
2. من جملة فوائد البحوث الكلاميّة تأثيرها على العمل الصالح، اشرح ذلك.
3. ما هو منشأ بروز الشّبهة العقديّة في ذهن الإنسان المسلم؟ وكيف يمكن التصدّي لها؟
4. اذكر آية ورواية حول أهمّيّة المعارف الدينيّة.

الباب الثاني

التوحيد

الدرس الثالث

الأدلّة على وجود اللّٰه

برهان النّظم (1)

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح برهان النظم.
2. يقرأ برهان النظم في كلمات العلماء.
3. يتعرّف برهان النظم في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

* تمهيد

ذُكرت أدلّة عدّة لإثبات وجود الله -سبحانه وتعالى-، مثل: برهان الحدوث، وبرهان الحركة، وبرهان النَّظم، لكنّ البرهان الأخير يعدّ من أشهر تلك الأدلّة وأوضحها؛ حيث استُفيد منه بكثرة في سيرة الأنبياء الإلهيِّين، وكان محطّ اهتمام القرآن الكريم أيضاً، وهو ما سنبحثه في هذا الدرس.

* تقرير برهان النَّظم

النَّظم هو التأليف وضمّ شيءٍ إلى شيءٍ آخر، وكلّ شيءٍ قرنته بآخر نَظَمْته[1]، ونَظَمْت اللّؤلؤ أي جمعته في السلك[2]. وبالتّالي، من الضروريّ توفُّر شروطٍ لتَحقُّقِ النَّظم بمعناه اللّغويّ، بحيث يؤدّي فَقْد أيّ واحد منها إلى حدوث إرباك في حصول النَّظم، وهذه الشروط هي:

1. وجود أشياء متعدّدة ومختلفة.
2. وجود عامل يربط بين تلك الأشياء المتعدّدة، من قبيل السلك الذي يربط بين حبّات اللّؤلؤ أو الخرز.
3. وجود ترتيب ونسق خاصّ يؤول إلى هدف محدّد[3].

---

(1) الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1994م، لا.ط، ج17، ص689-690.

(2) ابن منظور، محمدبن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران - قم، 1405هـ لا.ط، ج12، ص578.

(3) الديلميّ، طبيعت وحكمت: پژوهشی در برهان نظم (الديلميّ، الطبيعة والحكمة: دراسة لبرهان النظم)، ص58 - 59.

بناءً على ذلك، يكون المقصود من النَّظم هنا، هو اجتماع أجزاء متباينة ضمن مجموعة واحدة، بحيث يؤدّي التنسيق بينها إلى تحقيق هدف معيّن ونتيجة موحّدة.

وبهذا، يتبيّن أنّه يُستفاد من برهان النَّظم أنّ النَّظم والتّدبير السائد في «الكون» يدلّ على وجود صانع حكيم ومقتدر أوجد «الكون». ويتألّف برهان النَّظم من مقدّمتين ونتيجة، أمّا المقدّمتان فهما:

أ. «عالم الطبيعة/ الكون» هو مجموعة مُنتظمة، وفيه ترتيب خاصّ ويؤول إلى هدف، وفقاً لخطّة دقيقة ومدروسة، وتوجد سلسلة من القوانين الثّابتة تحكم جميع أجزائه المختلفة في نسق واحد ومتكامل.

ب. إنّ كلّ مجموعة مُنتظمة تدلّ على وجود منظّمٍ لها على أساس التخطيط والتّدبير.

أمّا النتيجة فهي:

أَنَّ النَّظم والتّدبير السائد في المجموعة المُنتظمة -أي «عالم الطّبيعة/ الكون»- هما دليلان على وجود مُنَظِّمٍ حكيم ومقتدر يدير المجموعة المُنتظمة أي «عالم الطبيعة/ الكون».

نعم، لا يشكّ الإنسان الواعي في التّدبير والنَّظم الحاكم على الموجودات المختلفة في الكون؛ حيث يشاهَد وجود نظام دقيق ومدروس في كلّ مكان وعلى كلّ شيء، ابتداءً من الحيوانات والناس وانتهاءً بالكواكب والمجرّات، فلا ريب في أنّ الناس والحيوانات والنباتات والجمادات وجميع الموجودات في السماوات والأرض قد خُلقت جميعاً على أساس هدف خاصّ، وأنّها محكومة في حركتها ومسيرة حياتها لسلسلة من القوانين الدّقيقة والمدروسة، ممّا يعني أنّها مجموعة مُنتظمة.

فعلى سبيل المثال، يكشف علم الأحياء عن حركة الخلايا ونشاطات أعضاء بدن الإنسان طبقاً لوتيرة معيّنة، فيقوم كلّ (جين) في تلك الخلايا بالدّور المناط به في الوقت المناسب وبشكل مدروس وهادف، ويؤدّي ما وُضع على عاتقه من مهامَّ بصورة دقيقة. وفي الحقيقة، يقوم كلّ جين في خليَّة من الخلايا الكثيرة الموجودة في بدن الإنسان بالوظيفة المكلّف بها بمنتهى الدقّة لتوفير الموادّ التي تحتاجها الأنسجة في ذلك البدن.

في الظروف الطبيعيّة، تبتعد خلايا بدن الإنسان وكلّ موجود حيّ، بمقتضى القوانين الهادفة، عن كلّ أشكال الإفراط والبعث والنقص والتقصير وسوء الاستفادة والاستبداد.

وبمشاهدة النَّظم والاتّساق في صفوف الموجودات المختلفة، يدرك الإنسان اللّبيب أنّ هذا النَّظم ليس وليد الصّدفة ولم يأتِ عبثاً؛ وإنّما هو بحاجة إلى منظِّم حكيم وقدير.

ولإثبات زيف القول بنشوء «الكون» صدفةً، لا بأس بالالتفات إلى هذا المثال:

حينما يريد العامل على صفّ الحروف القيام بعمله وصفّ حروف كتاب مّا، يتوخّى منتهى الدقّة والاحتياط، ومع ذلك يُعثَر على بعض الأخطاء المطبعيّة عند مراجعة الكتاب وتدقيقه. ولو أخذ هذا العامل عدداً من الحروف المختلفة وألقاها على سطح معدنيّ، بدلاً من صفّ بعضها بجانب بعضها الآخر بشكل دقيق ومُنتظم؛ فهل يمكن أن يؤدّي إلقاء الحروف المختلفة على سطح معدنيّ إلى تأليف كتاب مشتمل على موضوعات مُنظّمة ومُنسجمة؟!

والكلام الأكثر زيفاً وبعداً عن المنطق هو زعم من يقول إنّه يمكن للرّصاص المُذاب أن يشكّل حروفاً مرتّبةً من خلال الضغط على الأنبوب الموجود فيه، ومن ثَمَّ تنتظم هذه الحروف ضمن نسق خاصّ على آلاف الصفحات المعدنيّة

نتيجة هبوب إعصار معيّن. وفي المحصّلة يتكوّن، بفعل ذلك، كتاب يحتوي على موضوعات علميّة دقيقة ومتنوّعة دون أيّ نقص أو خلل.

فهل إنّ حروف التّكوين والخلقة (الذرّات والجُزيئات والخلايا والأجزاء المكوّنة لها) أقلّ من حروف الطباعة؟ وكيف يمكن فهم مُدّعى المادّيين بشأن العلاقات المتشابكة بين الأجرام السّماوية والموجودات المختلفة في الطّبيعة؟

❋ برهان النَّظم بنظر الفلاسفة والعلماء

تحدّث ألبرت أينشتاين -العالم الفيزيائيّ الكبير في القرن العشرين- عن أسمى أنواع الاعتقاد قائلاً:

«يتّضح للإنسان، في هذه المرحلة، النّظام الدّقيق والجلال الحاكم على عالم الطّبيعة وعالم الأفكار، ما يجعله ينظر إلى الكون كوحدة متماسكة وذات دلالات كثيرة... هل من اللّازم أن ينحصر الإيمان بعقلانيّة تركيبة العالم وصوابه ومدى الاشتياق لفهم أصغر دليل من أدلّة عقلانيّة هذا العالم برجال مثل كيبلر ونيوتن ليتسنّى لهما بعد سنوات مديدة من العمل المضني وحدهما إدراك جانب من نظام حركة الأفلاك؟»[1].

أمّا نيوتن -العالم الفيزيائيّ الشهير- فقد حاول لفت أنظار العقلاء في العالم إلى النّظام في الكون عبر طرح عدد من الأسئلة بقوله:

«لماذا تتحرّك جميع الكواكب السيّارة بصورة مُنتظمة ضمن مدار متّحد المركز؟ مَنْ الذي صمّم الأجسام المادّيّة والحيوانات بهذه الطريقة الماهرة؟ ألا يثبت النّظام السائد في الكون أنّه خُلق على يد عاقل وحكيم؟».

(1) دوك هـ نه، دين جهانى، ص65؛ اينشتاين، دنيايى كه من مى بينم، ص55 (دوكه نه تانجي، الدين العالمي، ص65؛ اينشتاين، الدنيا كما أراها، ص55).

وأضاف قائلاً في موضعٍ آخر: «ما هو مصدر كلّ هذا النّظام والجمال الذي نشاهده في العالم؟ كيف صُمّمت أبدان المخلوقات بهذه المهارة وهذا الإبداع، وكيف وُضع كلّ عضو من أبدانهم في مكانه المناسب؟ هل خُلقت العين دون الاطّلاع على علم المناظر والمرايا؟... ألا تكشف الآثار والآيات في الطّبيعة عن وجود كائن غير جسمانيّ؟»[1].

* برهان النَّظم في الآيات والروايات

تقدّمت الإشارة إلى أنّ إثبات الصّانع في النصوص الدينيّة غالباً ما يتمّ عن طريق الالتفات إلى الظواهر التي تحدث في العالم وخضوعها لنظم وتدبير خاصَّيْن. قال -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2].

وعلى هذا الأساس، فإنّ الإنسان اللّبيب حينما ينظر إلى الموجودات المحيطة به من السماوات والأرض، ويرى اتّصافها بالنّظم والتّدبير الدالّين على وجود صانع لهذه المخلوقات، فإنّه حينئذٍ يقرّ بوجود خالق حكيم ومقتدر.

وفي هذا السياق، قال الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في خطبة مفصّلة ألقاها بحضور المأمون العباسيّ: «**بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ**»[3].

وبهذا، يتبيّن أنّ من جملة سبل الاستدلال على اللّه وإثبات وجوده عن طريق العقل بحسب ما ورد عن الأئمّة الميامين عليهم السلام، هو الاستدلال بجميل صنعه عليه، بمعنى أنّ الدقّة والنّظم والتّدبير في صُنع الباري تكشف عن لزوم وجود صانع لتلك المصنوعات. ويجري التّعامل مع هذا البرهان في الثّقافة الإسلاميّة

(1) الديلمي، طبيعت وحكمت: پـژوهشى در برهان نظم، ص30. (الديلمي، الطبيعة والحكمة: دراسة في برهان النظم).

(2) سورة فصّلت، الآية 53.

(3) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط، ص35.

على أنّه دليل عامّ لجميع الناس؛ لذا، استُفيد منه حتّى مع المنكرين والمعاندين، فلمّا دخل أبو شاكر الدَّيْصانيّ -وهو زنديق- على أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام وقال: يا جعفر بن محمّد! دُلّني على معبودي! فقال له أبو عبد الله عليه السلام: **اجلس**؛ فإذا بغلام صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال أبو عبد الله عليه السلام: **نَاولْني يَا غُلامُ البَيْضَةَ**، فناوله إيّاها، فقال: «**يَا دَيْصَانيُّ! هَذَا حِصْنٌ مَكْنُونٌ، لَهُ جِلْدٌ غَليظٌ، وَتَحْتَ الْجِلْد الْغَليظ جِلْدٌ رَقيقٌ، وَتَحْتَ الْجِلْد الرَّقيق ذَهَبَةٌ مَائعَةٌ وَفضَّةٌ ذَائبَةٌ، فَلَا الذَّهَبَةُ الْمَائعَةُ تَخْتَلطُ بالْفضَّة الذَّائبَة، وَلَا الْفضَّةُ الذَّائبَةُ تَخْتَلطُ بالذَّهَبَة الْمَائعَة، فَهيَ عَلَى حَالهَا، لَمْ يَخْرُجْ منْهَا خَارجٌ مُصْلحٌ فَيُخْبرَ عَنْ صَلَاحهَا، وَلَا دَخَلَ فيهَا مُفْسدٌ فَيُخْبرَ عَنْ فَسَادهَا، لَا يُدْرَى للذَّكَر خُلقَتْ أَمْ للْأُنْثَى، تَنْفلقُ عَنْ مثْل أَلْوَان الطَّوَاويس. أَتَرَى لَهَا مُدَبِّراً؟**» قَالَ فَأَطْرَقَ مَليّاً، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّكَ إمَامٌ وَحُجَّةٌ منَ اللَّه عَلَى خَلْقه، وَأَنَا تَائبٌ ممَّا كُنْتُ فيه[1].

وفي موضع آخر، ردّ الإمام الصَّادق عليه السلام على سؤال أحد الزنادقة: ما الدليل على وجود الله؟ فقال: «**وُجُودُ الْأَفَاعيل دَلَّتْ عَلَى أَنَّ صَانعاً صَنَعَهَا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إذَا نَظَرْتَ إلَى بنَاءٍ مُشَيَّدٍ مَبْنيٍّ عَلمْتَ أَنَّ لَهُ بَانيَاً وَإنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ الْبَانيَ وَلَمْ تُشَاهدْهُ؟!**»[2].

ولم يقف الأمر عند ورود برهان النَّظم في المصادر الدينيّة بأشكال مختلفة فحسب؛ وإنّما أكّد الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام على أنّ هذا البرهان يمثّل أوّل الأدلّة على بارئ العالم، وقال واصفاً إيّاه: «**أَوَّلُ الْعبَر وَالْأَدلَّة عَلَى الْبَاري (جَلَّ قُدْسُهُ) تَهْيئَةُ هَذَا الْعَالَم وَتَأْليفُ أَجْزَائه وَنَظْمُهَا عَلَى مَا هيَ عَلَيْه، فَإنَّكَ إذا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بفكْرك وَميَّزْتَهُ بعَقْلكَ وَجَدْتَهُ كَالْبَيْت الْمَبْنيِّ الْمُعَدِّ فيه جَميعُ مَا يَحْتَاجُ إلَيْه عبَادُهُ، فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْف وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبسَاط وَالنُّجُومُ**

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج2، ص333.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص81؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص244.

مَنْضودةٌ كَالْمَصَابيح وَالْجَوَاهرُ مَخْزونَةٌ كَالذَّخَائر وَكُلُّ شَيْء فيهَا لشَأْنه مُعَدٌّ وَالْإِنْسَانُ كَالْمُمَلَّك ذَلكَ الْبَيْتَ، وَالْمُخَوَّل جَميعَ مَا فيه، وَضُرُوبُ النَّبَات مُهَيَّأَةٌ لمَآربه وَصُنُوفُ الْحَيَوَان مَصْرُوفةٌ في مَصَالحه وَمَنَافعه؛ فَفي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بتَقْدير وَحكْمَة وَنظَام وَمُلَاءَمَة، وَأَنَّ الْخَالقَ لَهُ وَاحدٌ وَهُوَ الَّذي أَلَّفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضاً إلَى بَعْض»[1].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج3، ص61. ولمعرفة المزيد حول الآيات والروايات في مجال الآيات الإلهيّة المختلفة في العالم، انظر: الريشهرى، الشيخ محمد، موسوعة العقائد الإسلاميّة، بمساعدة: رضا برنجكار وعبد الهادي المسعودي، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث، دار الحديث، إيران - قم، 1425هـ - 1383هـ.ش، ج4، ص190-213.

- المقصود من النَّظم في دليل النظام هو اجتماع أجزاء متباينة ضمن مجموعة واحدة، بحيث يؤدّي التنسيق بينها إلى تحقيق هدف معيّن ونتيجة موحّدة.
- بمشاهدة النَّظم والاتّساق في صفوف الموجودات المختلفة، يدرك الإنسان اللّبيب أنّ هذا النَّظم ليس وليد الصّدفة ولم يأتِ عبثاً؛ وإنّما هو بحاجة إلى منظِّم حكيم وقدير.
- أنّ إثبات الصّانع في النصوص الدينيّة غالباً ما يتمّ عن طريق الالتفات إلى الظواهر التي تحدث في العالم وخضوعها لنظم وتدبير خاصَّيْن. قال -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.
- أنّ من جملة سبل الاستدلال على الله وإثبات وجوده عن طريق العقل، بحسب ما ورد عن الأئمّة الميامين عليهم السلام، هو الاستدلال بجميل صنعه عليه، بمعنى أنّ الدقّة والنّظم والتّدبير في صُنع الباري تكشف عن لزوم وجود صانع لتلك المصنوعات.

الأسئلة

1. ما الشروط اللازم توفّرها لتحقّق النَّظم؟
2. اشرح برهان النَّظم مع الإشارة إلى مقدّماته.
3. بيّن باختصار استدلال الإمام الصَّادق عليه السلام للدَّيْصانيّ.
4. علامَ جرى التأكيد، في أقوال العلماء والفلاسفة، حول برهان النَّظم؟

الدرس الرابع



الأدلّة على وجود الله

برهان النّظم (2)

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعدّد نماذج من النظم الواردة في القرآن الكريم.
2. يذكر دور القرآن الكريم في الاستدلال على الخالق.
3. يشرح التأثير المعنويّ لمعرفة الآيات الإلهيّة.



* تمهيد

تقدّمت الإشارة، في الدرس السّابق، إلى أنّ برهان النَّظم قائم على مقدّمتين: الأولى تقتضي إثبات وجود نظام في الكون، وفي الثّانية يُستدلّ من وجود النّظام على وجود خالق للعالم. وفي هذا الدرس سنشير إلى أمثلة عديدة حول انتظام الكون.

* الآيات في خلق الأرض والشّمس والقمر

أشار القرآن الكريم، في أكثرَ من ثمانين موضعاً، إلى خلق الأرض والتّدبير الذي يسودها، ودعا المؤمنين إلى التدبّر في عجائب الأرض باعتبارها من أهمّ طرق التوحيد ومعرفة الله؛ فهو يعتبر الآيات الإلهيّة في الأرض كثيرة ودقيقة وواضحة، وهي قادرة على إيصال الباحث عن الحقيقة إلى مراتب اليقين، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[1].

(1) سورة الذاريات، الآية 20.

وقد بيّن الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام جانباً من تلكم الآيات للمفضّل قائلاً: «**فَكِّرْ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ حِينَ خُلِقَتْ رَاتِبَةً رَاكِنَةً، فَتَكُونُ مَوْطِناً مُسْتَقَرّاً لِلْأَشْيَاءِ، فَيَتَمَكَّنُ النَّاسُ مِنَ السَّعْيِ عَلَيْهَا فِي مَآرِبِهِمْ، وَالْجُلُوسِ عَلَيْهَا لِرَاحَتِهِمْ، وَالنَّوْمِ لِهَدْئِهِمْ**»[1].

ثمّ إنّ هذه الأرض بكلّ ما لديها من عظمة، وبجميع سكّانها من مليارات البشر وأعداد لا تُحصى من الحيوانات والنباتات والجمادات وغيرها، جُعلت كالمهاد الذي يستوعب جميع الساكنين ويمنحهم الاستقرار والسكون[2].

إنّنا نعلم أنّ الأرض واحدة من كواكب المنظومة الشّمسيّة، وقد جعل الباري بينها وبين الشمس والكواكب الأُخرى ارتباطاً مباشراً يتيح للناس العيش على سطح الكرة الأرضيّة دون مشاكل. وقد أشار (جلّ وعلا) إلى جوانب مختلفة من هذا الارتباط الوثيق باعتباره آيةً من آيات الخلق بحكمة وتدبير، مخاطباً العقول وداعياً الناس إلى التفكّر من أجل حثّهم على القبول بوجود الصّانع، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3].

ومن آيات اللّه اللّيل والنّهار والشّمس والقمر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[4].

(1) المفضل بن عمر الجعفي، التوحيد، تعليق: كاظم المظفر، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1404 - 1984م، ط2، ص91.

(2) انظر: سورة النبأ، الآية 6.

(3) سورة البقرة، الآية 164.

(4) سورة فصّلت، الآية 37.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

فالشمس والقمر، من وجهة نظر القرآن الكريم هما دليلان واضحان على وجود خالق حكيم ومقتدر لعالم الخلقة؛ حيث دعا هذا الكتاب السماويّ ذوي الألباب إلى التأمّل والتدبّر في هاتين الظّاهرتين العجيبتين في عالم الخلقة سبع عشرة مرّة.

إنّ النقطة الأهمّ والجديرة بالتأمّل في طريق معرفة اللّه من خلال خلق الشمس والقمر، هي أنّ الشمس بحجمها الذي يفوق حجم الأرض بمليون وثلاث مئة وواحد وتسعين ألف مرّة، والقمر بحجمه الذي يعادل 49/1 من حجم الأرض، كلاهما، أزاء أمر الخالق ساجدان وخاضعان، ومسخّران لخدمة حياة الإنسان. وقد تكرّر ذكر هذا الأمر في القرآن الكريم[2]، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[3].

إنّ وجود الحياة على وجه الكرة الأرضيّة لا ينفكّ عن وجود نور الشمس؛ وعليه فإنّ خلق الشمس وجعلها في خدمة الإنسان إنّما هو مقدّمة لخلق الإنسان ودوام حياته، فما إنْ ينطفئ نورها حتّى تغرق الأرض في الظلام ويسودها البرد القارس، فلا يهبّ فيها نسيم ولا تنزل فيها أمطار ولا ثلوج، وتنضب العيون وتجفّ الأنهار وتتوقّف الشلّالات عن الحركة، ولا ينبت في الأرض نبات، وينعدم فيها الطعام بجميع أشكاله، وتنتشر في جميع أرجائها كتل ثلجيّة عظيمة تجعل الحياة فيها أمراً مستحيلاً؛ فينطفئ مصباح الحياة.

(1) سورة يونس، الآية 5.
(2) الشيخ الريشهري، موسوعة العقائد الإسلاميّة، مصدر سابق، ج3، ص235.
(3) سورة إبراهيم، الآية 33.

وبهذا يتبيّن أنّ منشأ النظام الذي يشهده الكون والحياة البشريّة عموماً هو النظام والترتيب الخاصَّيْن للشمس والقمر والأرض، وهذا ما أفاده القرآن الكريم؛ حيث كشف عن حقيقة أنّ كُلّاً من الشمس والقمر يقطع منازل ضمن مسار خاصّ ويتحرّك وفقاً لنظام معيّن، فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[1].

على هذا الأساس، فالشّمس وإن كانت تمثّل مركز المنظومة الشّمسيّة، والأرض تدور حولها، لكنّها ليست بساكنة؛ بل إنّها تتحرّك حركات وضعيّة باتّجاه الشمال وحول مركز المجرّة، كما أنَّ للقمر حركات انتقاليّةً ووضعيّةً حول الشمس وبالتّزامن مع حركة المنظومة الشمسيّة.

ومن المظاهر الأُخرى للنّظام في خلق الشمس والقمر، دورهما الأساسيّ في التقدير الدّقيق للزّمان والتّقويم، وليس بخفيّ أنّ التقدير الزّمنيّ يعدّ من الأركان الأساسيّة لحياة الإنسان، والشمس والقمر من أهمّ الوسائل لحساب الزّمن والتاريخ، فهما كالسّاعتين الدّقيقتين اللّتين تعملان بنظام دقيق جدّاً، بحيث لم تقدّما ولم تؤخّرا ثانية واحدة؛ بل ولا أقلّ من الثانية على مدى ملايين السّنين، وذلك على الرّغم من حجمهما ووزنهما الكبير وحركاتهما المختلفة. نعم، إنّه درس آخر من دروس التوحيد المستفاد من القرآن الكريم: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[2].

* الآيات في خلق المجرّات الكونيّة

إنّ العالم الذي يبدو في أعيننا وكأنّه مجموعة من الموجودات البسيطة والتّافهة إنّما هو عظيم وواسع جدّاً بحيث لا يمكن أن تحيط به تصوّراتنا، إلى

(1) سورة يس، الآيات 38 - 40.
(2) سورة الأنعام، الآية 96.

درجة أنّ الالتفات إلى عظمة عالم المجرّات والنّظم الدقيق الذي يسودها، يدعو كلّ إنسان عاقل وذي ضمير حيّ إلى التأمّل والتدبّر.

وفي هذا السياق، كلمة «السّماء» في اللغة مشتقّة من الفعل «سُمُوّ» بمعنى الرّفعة والعلوّ؛ ولذا يطلق على سقف البيت سماء أيضاً[1]. وقد ورد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم بصورة المفرد والجمع وفي معانٍ مختلفة 313 مرّة.

ثمّ إنّ الشيء اللّافت في دراسة السماء هو سعتها المحيّرة التي تفوق التصوّر. نعم، في كلّ مجرّة من المجرّات عدد هائل من الكواكب والنجوم، ويتراوح قطر المجرّة التي نعيش عليها -وهي مجرّة درب التبّانة- والتي تقع فيها منظومتنا الشمسيّة ما بين مئة ومئة وعشرين ألف سنة ضوئيّة، وتبعد مجموعتنا الشمسيّة عن مركز هذه المجرّة ما يقارب من 27 ألف سنة ضوئيّة. هذا وأثبتت آخر الدراسات التي قام بها باحثون أختصاصيُّون أنّ في العالم مئات الملايين من المجرّات[2]، وفي مجرّتنا وحدها ما يزيد على مئتي مليار نجم.

وإنّ في مجرّة درب التبّانة عدداً كبيراً من الكواكب، وبحسب نظر علماء الفلك فإنّ عدد الكواكب التي تدور حول الشمس هو تسعةُ كواكب، أقربها إلى الشمس هو كوكب عطارد[3]، الذي يقع مداره على متوسِّط مسافة 91,57 مليون كلم من الشمس، بينما تبلغ المسافة بين كوكب الأرض والشمس ما متوسّطه 149 مليون و600 ألف كلم.

ثمّ إنّ جميع الكواكب تتحرّك بسرعة كبيرة ضمن مسارات مختلفة، فتبدأ سرعة حركتها من عشرة كيلومترات في الثانية كحدٍّ أدنى، وتصل إلى ثلاث مئة أو أربع مئة كيلومتر؛ بل تصل سرعة بعضها إلى ثلاثة آلاف كيلومتر في الثانية[4].

(1) ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، إيران - قم، 1404هـ ط1،ج3، ص98.

(2) لا يوجد إلى اليوم تحديد نهائيّ لعدد المجرّات في الكون، والأمر منوط بما تثبته وتبيّنه الدراسات الفلكيّة المستمرّة. (الإعداد)

(3) يليه كوكب الزهرة فالأرض فالمريخ فالمشتري فزحل فأورانوس فنبتون.

(4) لمزيد من المعلومات، انظر: نوري همداني، دانش عصر فضا (علم عصر الفضاء).

إنّ التدبّر في المجرّات والظواهر الكونيّة الأخرى يكشف للإنسان عن عملها طبقاً لنظام مُتقن، كما يكشف عن وجود ترابط وثيق بين أجزائها، فيدرك أنّ هذا الكون المترامي الأطراف والمتّسم بالنّظام والانسجام في الوقت ذاته، لا يمكن أن ينشأ عن طريق الصّدفة ودُون صانع؛ وبهذا، فإنّ العقل البشريّ يعترف بوجود صانع لا يتطرّق إليه الجهل والضعف، وترجع إليه جميع المخلوقات. من هنا، قال الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام لرجل زنديق: «**أَمَا تَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَلِجَانِ فَلَا يَشْتَبِهَانِ وَيَرْجِعَانِ قَدِ اضْطُرَّا، لَيْسَ لَهُمَا مَكَانٌ إِلَّا مَكَانُهُمَا، فَإِنْ كَانَا يَقْدِرَانِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا فَلِمَ يَرْجِعَانِ؟ وَإِنْ كَانَا غَيْرَ مُضْطَرَّيْنِ فَلِمَ لَا يَصِيرُ اللَّيْلُ نَهَاراً وَالنَّهَارُ لَيْلًا؟ اضْطُرَّا وَاللَّهِ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ إِلَى دَوَامِهِمَا، وَالَّذِي اضْطَرَّهُمَا أَحْكَمُ مِنْهُمَا وَأَكْبَر**»[1].

ومن الدّروس القرآنيّة الأخرى في التوحيد، إشارته إلى تعليق الأجرام السماويّة في الفضاء دون أعمدة، والتحكّم بها بوساطة قوّة الجاذبيّة التي عبّر عنها القرآن الكريم بـ«الأعمدة غير المرئيّة» وذلك في الآيتين الآتيتين: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[3].

لقد كشفت هاتان الآيتان عن حقيقة علميّة لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة؛ لأنّه في ذلك الوقت كانت نظريّة «بطليموس» في الهيئة تتحكّم، بكلّ قواها، في المحافل العلميّة في العالم وعلى أفكار الناس. طبقاً لهذه النظريّة، فإنّ السماوات أجرام متداخلة تشبه قشور البصل، وإنّها لم تكن معلّقة دون عمَد؛ بل كلّ واحدة منها تستند إلى الأخرى. ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصّل العلم إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السماويّة لها مقرٌّ ومدارٌ ثابت، ولا تستند إلى شيء، فالشيء الوحيد الذي يجعلها مستقرّة

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص73؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص295.
(2) سورة الرعد، الآية 2.
(3) سورة لقمان، الآية 10.

وثابتة في مكانها هو تعادل قوّة التجاذب والتنافر، فالأولى تربط الأجرام في ما بينها، والأخرى لها علاقة بحركتها. هذا التوازن للقوّتين هو الذي يشكّل أعمدةً غير مرئيّة تحفظ الأجرام السماويّة وتجعلها مستقرّة في مكانها[1].

وفي هذا السياق، أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا النّحو من العظمة التي يعجز الإنسان عن وصفها، وقال في دعاء يخاطب به الخالق الحكيم: «**سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَصْغَرَ كُلَّ عَظِيمَةٍ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ، وَمَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَمَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِي مَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ**»[2].

* التأثير المعنويّ لمعرفة الآيات الإلهيّة

دعا الله المسلمين في القرآن الكريم إلى التدبّر في عجائب الخلق والتأمّل في العالم المحيط بهم، لا سيّما في السماوات وما يرتبط بها، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[3].

وطبقاً لهذه الدّعوة الإلهيّة، كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام يولون اهتماماً خاصّاً للسماء التي فوقهم، خصوصاً في أوقات السحَر وأثناء صلاة اللّيل عند مناجاة الباري -سبحانه وتعالى-؛ حيث كانوا يحدّقون النّظر بالسماء ويغوصون في بحر الأفكار أوقاتاً طويلة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم في منتصف الليل ثلاث مرّات، وكان كلّما قام قلّب بصره في السماء، ثمّ قرأ الآيات من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ... إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[4] ثمّ يشرع ببعض صلاة اللّيل[5].

(1) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط، ج7، ص330-331.

(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص158، الخطبة 109؛ الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418هـ ط1، ص483.

(3) سورة ق، الآية 6.

(4) سورة آل عمران، الآيات 190 - 194.

(5) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص445.

ولربّما كان التدبّر في الآيات الإلهيّة الدالّة على التوحيد في جوف اللّيل خيراً من كثير من العبادات؛ ولذا رُوي في هذا المجال أنّه: «**قُرِّبَ إِلَى عَلِيِّ بن الحُسَيْن عليه السلام طَهُورُهُ فِي وَقتِ وِرْدِه، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الْإِنَاء لِيَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاء والْقَمَر والْكَوَاكِب، فَجَعَلَ يُفَكِّرُ فِي خَلْقِهَا حتَّى أَصْبَحَ وَأَذَّنَ الْمُؤَذِنُ وَيَدُهُ فِي الْإِنَاء**»[1].

ورُوِيَ في هذا المجال عن حبَّة العُرَنيّ قال: بَيْنَا أَنَا وَنَوْفٌ نَائِمَانِ فِي رَحَبَةِ الْقَصْرِ؛ إِذْ نَحْنُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي بَقِيَّةِ مِنَ اللَّيْلِ وَاضِعاً يَدَهُ عَلَى الْحَائِطِ شَبِيهَ الْوَالِهِ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[2].

قَالَ: ثُمَّ جَعَلَ يَقْرَأُ هَذه الْآيَات وَيَمُرُّ شبْهَ الطَّائِرِ عَقْلُهُ، فَقَالَ لي: «**أَرَاقِدٌ أَنْتَ يَا حَبَّةُ أَمْ رَامِقٌ؟**»، «قَالَ: قُلْتُ: رَامِقٌ، هَذَا أَنْتَ تَعْمَلُ هَذَا الْعَمَلَ فَكَيْفَ نَحْنُ؟» فَأَرْخَى عَيْنَيْه فَبَكَى ثُمَّ قَالَ لي: «**يَا حَبَّةُ! إِنَّ لله مَوْقِفاً وَلَنَا بَيْنَ يَدَيْه مَوقِفاً لَا يَخْفَى عَلَيْه شَيءٌ مِنْ أَعْمَالنا، يَا حَبَّةُ! إِنَّ اللهَ أَقْرَبُ إِلَيَّ وَإِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد، يَا حَبَّةُ! إِنَّهُ لَنْ يَحْجُبَنِي وَلَا إِيَّاكَ عَنِ الله شَيءٌ**».

(1) الشيخ الريشهري، دراسة في العقائد الإسلامية، مصدر سابق، ج4، ص398.
(2) سورة آل عمران، الآيات 190 - 194.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**أَرَاقِدٌ أَنْتَ يَا نَوْفُ؟**» قَالَ: قَالَ: لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنَا بِرَاقِدٍ، وَلَقَدْ أَطَلْتُ بُكَائِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ. فَقَالَ: «**يَا نَوْفُ، إِنْ طَالَ بُكَاؤُكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ مَخَافَةً مِنَ اللهِ -سبحانه وتعالى- قَرَّتْ عَيْنَاكَ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ (عَزَّ وَجَلَّ)، يَا نَوْفُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ عَيْنِ رَجُلٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ إِلَّا أَطْفَأَتْ بِحَارًا مِنَ النِّيرَانِ...** ثُمَّ وَعَظَهُمَا وَذَكَّرَهُمَا وَقَالَ فِي أَوَاخِرِهِ: **فَكُونُوا مِنَ اللهِ عَلَى حَذَرٍ فَقَدْ أَنْذَرْتُكُمَا**».

ثُمَّ جَعَلَ يَمُرُّ يَقُولُ: «**لَيْتَ شِعْرِي فِي غَفَلَاتِي أَمُعْرِضٌ أَنْتَ عَنِّي أَمْ نَاظِرٌ إِلَيَّ؟ وَلَيْتَ شِعْرِي فِي طُولِ مَنَامِي وَقِلَّةِ شُكْرِي فِي نِعَمِكَ عَلَيَّ مَا حَالِي؟**».

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالَ فِي هَذَا الْحَالِ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ[1].

(1) ابن طاووس، السيد علي بن موسى، فلاح السائل، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط، ص266.

المفاهيم الرئيسة

- أشار القرآن الكريم في أكثر من ثمانين مَوْضعاً إلى خلق الأرض والتدبير الذي يسودها، ودعا المؤمنين إلى التدبّر في عجائب الأرض باعتبارها من أهمّ طرق التوحيد ومعرفة اللَّه.
- من وجهة نظر القرآن الكريم، تُعدّ الشمس والقمر دليلين واضحين على وجود خالق حكيم ومقتدر لعالم الخلقة؛ حيث دعا هذا الكتاب السماويّ ذوي الألباب إلى التأمّل والتدبّر في هاتين الظاهرتين العجيبتين في عالم الخلقة سبع عشرة مرّة.
- إنّ العالم الذي يبدو في أعيننا وكأنّه مجموعة من الموجودات البسيطة والتّافهة إنّما هو عظيم وواسع جدّاً بحيث لا يمكن أن تحيط به تصوّراتنا، إلى درجة أنّ الالتفات إلى عظمة عالم المجرّات والنَّظم الدقيق الذي يسودها يدعو كلّ إنسان عاقل وذي ضمير حيّ إلى التأمّل والتدبّر.
- إنّ التدبّر في المجرّات والظواهر الكونيّة الأخرى يكشف للإنسان عن عملها طبقاً لنظام مُتقن ووجود ترابط وثيق بين أجزائها، فيدرك أنّ هذا الكون المترامي الأطراف والمتّسم بالنّظام والانسجام في الوقت ذاته، لا يمكن أن ينشأ عن طريق الصّدفة ودُون صانع.
- التدبّر في الآيات الإلهيّة الدالّة على التوحيد في جوف اللّيل خير من كثير من العبادات.

الأسئلة

1. إن أردت الاستدلال على أنّ الأرض آية من الآيات الإلهيّة، فإلى أيّ شيءٍ تشير وبأيّ شيءٍ تستدلّ؟
2. ما تأثير الشمس في حياة الإنسان وفي الكرة الأرضيّة عموماً؟
3. اذكر بعض الأمثلة حول عجائب المجرّات.

الدرس الخامس

الأدلّة على وجود اللّٰه

الفطرة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى الدليل الفطريّ على وجود اللّٰه.
2. يبيّن مزايا المعرفة الفطريّة وآثارها.
3. يقرأ تأثير العبادة والطاعة في زيادة المعرفة الفطريّة.

* تمهيد

تعرّفنا في الدرس السّابق على أوّل الطرق وأشهرها لإثبات الصانع، وصُور انتظام العالم بوجوه مختلفة، والآن سنتعرّف على دليل آخر يمثّل أساس المعرفة الإلهيّة في منظومة المعارف الدينيّة.

الطريق الآخر لمعرفة اللّه هو الطريق الفطريّ، وقد استفاد منه جميع الأنبياء الإلهيّين وجرى الحديث عنه بالتّفصيل في القرآن الكريم وورد في كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ويعتبر برهان الفطرة، إلى جانب برهان النَّظم، من أهمّ الطرق لمعرفة اللّه -سبحانه وتعالى-.

* تعريف المعرفة الفطريّة

حينما يواجه الإنسان المصاعب ويُبتلى بالشّدائد والملمّات، وفي ذروة اليأس والقنوط من جميع الأسباب والوسائل الاعتياديّة، يتّجه من أعماق قلبه ومن صميم وجوده إلى قوّة سرمديّة وطاقة لا تنضب، ويدرك بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّ هذه الحقيقة السرمديّة بوسعها تخليصه من الابتلاءات وإنقاذه من المآزق وإيصاله إلى ساحل البَرّ والأمان. ومردّ هذا التوجّه القلبيّ الذي لا يخلو منه إنسان، إلى معرفة مستقاة من الباري (جلّ وعلا) تُعرَف بـ«المعرفة الفطريّة».

* معنى الفطرة

يدلّ أصل «فَطَرَ» في اللّغة على فتح شيءٍ وإبرازه، كما يُستعمَل بمعنى «خَلَقَ»؛ ذلك أنّ خلق شيءٍ يعني الشروع بإيجاده[1]. وعليه فالفطرة حالة من حالات الخلق الابتدائيّ للإنسان. وطبقاً للحديث المأثور عن نبيِّ الإسلام ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَإِنَّ أَبَوَيْهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانه**»[2]. فإنّ الناس جميعاً خُلقوا على نحوٍ من الفطرة الأوّليّة التي لا تأبى عن قبول الدين، ويسعون إلى ذلك دائماً، وكلّ من يعدل عن هذه الفطرة الأوّليّة إنّما يكون بسبب وجود آفة من قبيل تقليد الآباء.

* المعرفة الفطريّة في الآيات والروايات

تؤكّد المصادر الدينيّة على أنّ الإنسان إذا ما كان قادراً على كسب المعرفة حول الباري -سبحانه وتعالى- في الحياة الدنيا، فإنّما هو لأجل المعرفة الفطريّة التي أودعها اللّه في روحه في بدء الخلقة؛ حيث قال (جلّ وعلا): ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

ومن الواضح، في هذه الآية الشريفة، أنّ الدِّين القيّمَ له ارتباط وثيق بالخلقة التي يشترك فيها جميع الناس، وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام ثمّة ارتباط جليّ بين التوحيد وبين معرفة الله باعتبارها أساس الدِّين من جهة، ومبدأ خلق الإنسان من جهة ثانية.

(1) انظر: المصطفوي، الشيخ حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مؤسّسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، 1417هـ ط1، ج9، ص111.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص13؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص331.

(3) سورة الروم، الآية 30.

وفي هذا السياق، سأل زرارة الإمام أبا عبد الله الصّادق عليه السلام عن تفسير قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾، فقال:«**فَطَرَهُمْ عَلَى التوحيد عِنْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَعْرِفَتِه أَنَّهُ رَبُّهُم**»[1].

وجرى التّأكيد في روايات أخرى على أنّه لولا هذه المعرفة الابتدائيّة لمّا تيسّر على العباد معرفة الله -سبحانه وتعالى-.

وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير آية الفطرة المتقدّمة: «**فَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِه أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا إِذَا سُئِلُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَلَا مَنْ رَازِقُهُمْ**»[2].

وعلى أساس معارف أهل البيت عليهم السلام، توجد هذه الفطرة المفضية إلى معرفة الله -سبحانه وتعالى- لدى جميع الناس دون استثناء، ولا يُحرم منها أيّ شخص في الكون. من هنا، علّق الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام على الحديث الوارد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ**» قَائلًا: «**يَعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللَّهَ (عَزَّ وَجَلَّ) خَالِقُه**»[3].

* مزايا المعرفة الفطريّة وآثارها

المعرفة الفطريّة عامّة لدى أفراد النوع الإنسانيّ، وهي لا تتبدّل أو تتغيّر بتبدّل الأمكنة أو تغيّر الزمان. نعم هي قابلة للنموّ من جهة وللضمور من جهة أخرى نتيجةً لعوامل مختلفة. وإنّ أهمّ مزايا الطريق الفطريّ وأبرز فوائد المعرفة الفطريّة هي حصول أُنسٍ بالحقّ -سبحانه وتعالى- وإقامة ارتباط وثيق به والانجذاب إليه وامتلاك حالة الخوف والرّجاء في جميع نواحي الحياة.

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص330؛ الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص13.
(2) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص330.
(3) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص331؛ الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص13.

إنّ هذه المعرفة تنبع من القلب وتترك تأثيراً في الجوارح والأركان؛ بل يظهر أثرها في كلّ جزء من حياتنا ووجودنا. فعلى الرّغم من أنّنا نعترف بالله كحقيقة واضحة، إلّا أنّنا غالباً لا نعتبره مؤثّراً في حياتنا، فكأنّنا نتصوّر يديه مغلولتين عن إجراء تغيير في شؤوننا وأمورنا، والحال أنّ الله -سبحانه وتعالى- بحسب الرؤية القرآنيّة: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1]، و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[2] فيستطيع تغيير مسار حياة الإنسان في أيّ لحظة. ومن الواضح أنّنا نعوّل أحياناً على شخص مسؤول أو ثريّ أكثر من تعويلنا على الله -سبحانه وتعالى-، فنؤمن بأنّه هو من يحلّ مشاكلنا المعقّدة.

بيد أنّ المعرفة القلبيّة للإنسان بالله -سبحانه وتعالى- تجعله يعتبر الله مؤثّراً في حياته تأثيراً مباشراً؛ بل وأكثر اقتداراً وقرباً من أيّ مؤثّر آخر. من هنا وبقطع النّظر عن جميع الأسباب والمسبّبات الظاهريّة، يؤمن الموحّدون بأنّه لا قوّة في العالم قادرة على إصابتهم بأدنى ضرر دون إذن منه -سبحانه وتعالى-.

❋ طرق إظهار الفطرة وبلورتها

إنّ المعرفة الفطريّة غالباً ما تبقى مخبّأة وفي طيّ النسيان؛ ولكن يتسنّى للإنسان استذكار تلك المعرفة الإلهيّة وإظهارها بطرق ووسائل مختلفة، من أبرزها:

1. تذكير الأنبياء والأولياء

لا شكّ في أنّ التذكير الذي يقوم به الأنبياء والأولياء الإلهيّون يؤول إلى التذكير بالمعرفة الفطريّة، وهي المعرفة التي تشكّل أساس الإيمان بالدِّين. من هنا، أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة الأولى من «نهج البلاغة» إلى مسؤوليّة الأنبياء قائلاً: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ؛ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ**»[3].

(1) سورة آل عمران، الآية 40؛ سورة الحجّ، الآية 18.

(2) سورة المائدة، الآية 1.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة 1.

وكما هو واضح، فإنّ الرّسالة الأولى للأنبياء هي إيقاظ الفطرة ودعوة الناس إلى الوفاء بالميثاق الذي عقدوه في قلوبهم مع ربّهم، فمن الفوارق الأساسيّة بين منهج الأنبياء الإلهيّين وبين الأديان البشريّة هو أنّ الله -سبحانه وتعالى- يرسم منهج دعوة الأنبياء بقوله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

ويكشف كلام الأنبياء المذكور عن حقيقة مفادها أنّ كلّ إنسان يعود إلى نفسه، ويلتفت إلى الآيات الإلهيّة في موضوع الخلق، عبر هذا النّحو من التذكيرات، سوف يستذكر معرفته الفطريّة التي طواها النسيان، ويحيا ضميره الرّاقد ويستنير بنور المعرفة الإلهيّة؛ لأنّ الله (جلّ وعلا) ليس مجهولاً ولا مشكوك الوجود في فطرة أيّ إنسان[2].

2. المصائب والبلايا

من الأُمور التي تدفع الإنسان إلى استذكار المعرفة الإلهيّة، وقوعه في البلاء الشديد وفي حالة انقطاع الأمل عن الأسباب الماديّة والوسائل الاعتياديّة، وليس للإنسان دور مباشر في حصول تلك المعرفة؛ وإنّما تحصل في الغالب بشكل اضطراريّ ودون قصد منه، وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بالمعرفة في البأساء والضرّاء[3].

عندما تمرّ على الإنسان حالات من البأساء والضرّاء، تنقطع آماله عن كلّ شيءٍ وعن الأسباب الماديّة أكثر فأكثر، وعند اشتداد المصائب وتفاقم الأزمات يفقد الإنسان القدرة على التعقّل والتفكّر المنطقيّ أيضاً، وفي ذورة هذه الحالة يشعر بمنتهى الفقر والعجز، وفي ظلّ هذا الفقر والعجز يدرك وجود الإله الغنيّ والقدير.

(1) سورة إبراهيم، الآية 10.

(2) يشار إلى أنّ كلام الأنبياء الوارد في الآية المتقدّمة جاء بصيغة الاستفهام الاستنكاري، وهو بمعنى نفي كلّ أشكال الشكّ في وجود الباري -سبحانه وتعالى-.

(3) انظر: سورة البقرة، الآيتَيْن 177 - 214؛ سورة الأنعام، الآية 42؛ سورة الأعراف، الآية 94.

ولا ينبغي أن يفوتنا أنّ هذا النّحو من المعرفة لا يتأتّى بطبيعة الحال عند حدوث البلايا والمشاكل الاعتياديّة التي تقع في الحياة اليوميّة؛ بل عند وقوع البلايا الكبرى وفي حالة الانقطاع عن جميع الآمال واليأس من جميع الوسائل والعلل، فنجد أنّ الله -سبحانه وتعالى- يتراءى إلى فطرة الإنسان في حالات العسر والشدّة من قبيل الفيضان والغرق وسقوط الطائرة والحرائق الكبرى والأسر بأيدي أناس مجرمين وبلا رحمة.

على أنّ رجوع الإنسان إلى الفطرة والإقرار بالتوحيد عند البأساء والضرّاء من السّنن الإلهيّة بنظر القرآن الكريم؛ حيث قال، عزّ من قائل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[1].

في هذه اللّحظات العصيبة، فإنّ الناس يدعون الله بمنتهى الإخلاص؛ ولكن إذا ماهدأ البحر وانتهي هيجانه وشعروا بالنّجاة، تراهم يُنكرون ذلك ويتراجعون عن دعوتهم ويشركون بالله ثانيةً[2].

وقد أُشير في الروايات إلى هذه المعرفة الخاصّة لله التي تمتاز من حيث الشدّة والوضوح، فروي عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام أنّه قال في معنى «الله»: «**هُوَ الَّذي يَتَأَلَّهُ إِلَيْه عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائد كُلُّ مَخْلُوق عِنْدَ انْقطاع الرَّجَاء مِنْ كُلِّ مَنْ هُوَ دُونَهُ وَتَقَطُّع الْأَسْبَاب مِنْ جَميع مَا سِوَاهُ**»[3].

وَفي هَذَا السِّياق قَالَ رَجُلٌ للصَّادق عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُول الله! دُلَّني عَلَى الله مَا هُوَ؟ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادلُونَ وَحَيَّرُوني. فَقَالَ لَهُ: «**يَا عَبْدَ الله، هَلْ رَكبْتَ سَفينَةً قَطُّ؟**» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**فَهَلْ كُسرَتْ بِكَ حَيْثُ لَا سَفينَةَ تُنْجيكَ وَلَا سبَاحَةَ**

(1) سورة الإسراء، الآية 67.

(2) انظر: سورة العنكبوت، الآية 65.

(3) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص231؛ الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص4.

تُغْنيكَ؟» قَالَ: بَلَى، **«فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟»** فَقَالَ: بَلَى، قَالَ الصَّادق عليه السلام: **«فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ»**[1].

3. الاهتمام بالآيات الإلهيّة

من العوامل الأخرى لاستجلاء المعرفة الفطريّة، الاهتمام بالآيات الإلهيّة؛ لأنّ من شأن هذا الاهتمام توفير الأرضيّة المناسبة لإظهار المعرفة الفطريّة الموجودة في بواطن الناس. من هنا، قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام مشيراً إلى الحقيقة الرّبوبيّة: **«مَوْصُوفٌ بِالْآيَاتِ مَعْرُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ»**[2].

إنّ المعرفة الفطريّة -وكما ذكرنا سابقاً- تبقى مستترة وغير ظاهرة للعيان، حيث يحيط غبار الغفلة بقلوب الناس. في هذه الحالة يكون الإنسان بحاجة إلى التذكير والتنبيه ليرجع إلى معرفته الباطنيّة، ويعرف ربّه بكلّ وضوح. لقد جعل الله -سبحانه وتعالى- في مخلوقاته خصوصيّات معيّنة، وعندما ينعم الإنسان النظر إليها ويفكّر في كيفيّة خلقها وإيجادها يجد فيها آيات الرّبوبيّة. من هنا، فإنّ كلّ آية من الآيات الإلهيّة وكلّ علامة من علامات صنع الخالق وتدبيره في عالم الكون تذكّر النّاظر البصير بخالقه وتعرّفه ببارئه، وتجعله مستعدّاً لتلقّي ضربٍ من المعرفة، لا يسعها العقل ولا يحويها البيان.

* العبادة والطّاعة

بعدما أظهر الباري -سبحانه وتعالى- معرفته وعرّف العباد بهدايته الأولى، دعاهم إلى العبادة والطاعة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، على أن يجازيهم عن تلك العبادة بالثّواب، ومن أهمّ مصاديق هذا الثّواب المعرفة به

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص231.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص97؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص108.
(3) سورة الذاريات، الآية 56.

-سبحانه وتعالى-. وهكذا فإنّ العبادة التي تبتدئ من معرفة الربّ تكون حصيلتها زيادة معرفته، وهذه المعرفة في حدّ ذاتها كفيلة بإيصال الإنسان إلى العبوديّة في مراحل أسمى. وقد أُشيرَ في القرآن الكريم إلى أنّ إطاعة الله -سبحانه وتعالى- تؤدّي بصاحبها إلى الهداية من الله، والتي هي من المصاديق الأساسيّة للمعرفة[1].

لكنّ الطريق الأخير مقتصر على المؤمنين، وتتحقّق عن طريقه أقصى درجات معرفة الله. وقد جرى التأكيد في معارف أهل البيت عليهم السلام على أنّ الصلاة والدعاء -تحديداً من بين العبادات المختلفة التي تشكّل بمجموعها الشريعة الإسلاميّة- يؤدّيان دوراً كبيراً في زيادة المعرفة وبلورة معرفة خاصّة، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بشأن الصلاة: «**الصَّلَاةُ مِنْ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَفِيهَا مَرْضَاةُ الرَّبِّ (عَزَّ وَجَلَّ)، وَهِيَ مِنْهَاجُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلِلْمُصَلِّي حُبُّ الْمَلَائِكَةِ وَهُدًى وَإِيمَانٌ وَنُورُ الْمَعْرِفَةِ**»[2].

وثمّة روايات كثيرة في هذا الخصوص تبيّن أنّ المصلّي بصدد الوصول والتقرّب، وليس للوصول والقرب الإلهيّ معنى سوى تحقّق الكمالات وعلى رأسها معرفة الله (جلّ وعلا)؛ ولذا ورد في حديث روي عن أمير المؤمنين والإمام الرِّضا والإمام الصَّادق عليهم السلام: «**الْصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ**»[3].

كما أشير إلى حصول هذه المعرفة في الأحاديث الواردة بشأن صلاة الليل أيضاً: «**صَلَاةُ اللَّيْلِ... نُورُ الْمَعْرِفَةِ**»[4].

ومن السّبل الأخرى لحصول المعرفة باللَّه -سبحانه وتعالى-، التوجّه بالدعاء إليه (عَزَّ وَجَلَّ)، وهو ما يعدّ من أبرز مصاديق العبادة؛ ولذا عُرف عن الأنبياء والأولياء كثرة الدعاء والتضرّع إلى الذّات الأحديّة.

(1) انظر: سورة النور، الآية 54.
(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص522.
(3) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص265.
(4) الديلمي، الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، إيران - قم، انتشارات الشريف الرضي، 1415هـ - 1374ش، ط2، ج1، ص191.

وربّما كانت أهمّيّة الدعاء ومكانته بين سائر العبادات الأخرى هي السبب وراء اعتباره عصارة العبادة ومخّها: «**الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ**»[1].

وعلى هذا الأساس، فإنّ الدّعاء والمناجاة والبكاء عند التضرّع إلى الله (جلّ وعلا) تعدّ من أهمّ أسباب إعطاء المعرفة الإلهيّة. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يطلب الإنسان من الله المعرفة ويسأله زيادتها خلال الدّعاء والتضرّع إليه. قال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام في تفسير الآية الشريفة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، قال: «**اسْتِزَادَةً فِي الْمَعْرِفَةِ بِرَبِّهِ وَبِعَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ**»[2].

وهنا لا بدّ من التوجّه إلى الله والإقبال على الدّعاء من أعماق الوجود، ورفع الأيدي إلى الباري الغنيّ عن العالمين لقضاء الحوائج، والتوسّل بالسّاحة الإلهيّة المقدّسة من صميم القلب: «**اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ، لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ؛ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ، ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي**»[3].

(1) الراوندي، الدعوات، مصدر سابق، ص18.

(2) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1414هـ ط2، ج1، ص310.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص337؛ النعماني، الغَيْبة، مصدر سابق، ص166؛ وأيضاً انظر: الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص286.

المفاهيم الرئيسة

- يُعتبر برهان الفطرة إلى جانب برهان النَّظم من أهمّ الطرق لمعرفة الله -سبحانه وتعالى-.
- حينما يواجه الإنسان المصاعب ويُبتلى بالشّدائد والملمّات، يتّجه من أعماق قلبه ومن صميم وجوده إلى قوّة سرمديّة وطاقة لا تنضب.
- هذا التوجّه القلبيّ الذي لا يخلو منه إنسان إلى معرفة مستقاة من الباري (جلّ وعلا) تعرف بـ«المعرفة الفطريّة».
- تؤكّد المصادر الدينيّة على أنّ الإنسان إذا ما كان قادراً على كسب المعرفة حول الباري -سبحانه وتعالى- في الحياة الدنيا، فإنّما هو لأجل المعرفة الفطريّة التي أودعها الله في روحه في بدء الخلقة.
- هذه الفطرة المفضية إلى معرفة الله -سبحانه وتعالى- لدى جميع الناس دون استثناء، ولا يُحرم منها أيّ شخصٍ في الكون.
- إنّ هذه المعرفة تنبع من القلب وتترك تأثيراً في الجوارح والأركان؛ بل يظهر أثرها في كلّ جزء من حياتنا ووجودنا.
- عندما تمرّ على الإنسان حالات من البأساء والضرّاء، تنقطع آماله عن كلّ شيءٍ وعن الأسباب الماديّة أكثر فأكثر، وفي ذروة هذه الحالة يشعر بمنتهى الفقر والعجز، وفي ظلّ هذا الفقر والعجز يدرك وجود الإله الغنيّ والقدير.
- إنّ المعرفة الفطريّة -كما ذكرنا سابقاً- تبقى مستترة وغير ظاهرة للعيان، حيث يحيط غبار الغفلة بقلوب الناس، في هذه الحالة يكون الإنسان بحاجة إلى التذكير والتنبيه ليرجع إلى معرفته الباطنيّة ويعرف ربّه بكلّ وضوح.

الأسئلة

1. اذكر معنى الفطرة لغةً ثمّ اشرح معناها في القرآن والسنّة.
2. بيّن مزايا المعرفة الفطريّة وأهمّيّتها في الحياة الحقيقيّة للإنسان.
3. كيف توقظ المصائب والبلايا الفطرة الإنسانيّة الرّاقدة؟ وضّح ذلك مستعيناً بالآيات والروايات.
4. اشرح بدقّة معنى الحديث «موصوف بالآيات ومعروف بالعلامات».
5. بيّن دور العبادة والدّعاء في زيادة المعرفة بالله.

الدرس السادس



توحيد الله

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يناقش أهمّيّة التوحيد في الكتاب والسّنَّة.
2. يعرف معنى التوحيد.
3. يعدّد مراتب التوحيد.



❋ تمهيد

يُعتبر التوحيد أهمّ عنصر من عناصر العقيدة الإسلاميّة وجميع الأديان الإلهيّة، ويحتلّ الصدارة في المنهج العلميّ والتربويّ للأنبياء الإلهيّين. من هنا، جرى التأكيد على هذا الأصل المعرفيّ أكثر من أيّ ركن آخر في القرآن الكريم.

❋ أهمّيّة التوحيد في الكتاب والسنّة

أُشير إلى توحيد الله في القرآن الكريم في سياق النفي والإيجاب: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[1].

فنرى أنّ الله -سبحانه وتعالى- في هذه الآية المباركة وآيات قرآنيّة أخرى كثيرة دعا المسلمين، بل الناس جميعاً إلى هذا الأصل المهمّ، وأن يؤمنوا بالله وحده، وألّا يركنوا إلّا إلى الله الواحد الرحمن.

لا شكّ في أنّ التوحيد أصلٌ وأساس في جميع الأديان الإلهيّة، فهي جميعاً تدعو الناس، في بداية الأمر، إلى التوحيد وتطالبهم بالإقرار به، ولا يوجد دين دعا إلى التوحيد كما دعا إليه الإسلام[2]. وفي هذا السياق كان أوّل ما قام به النبيّ الأكرم ﷺ هو دعوة الناس إلى شهادة أن «لا إله إلّا اللّه» وتَرْكِ الشِّرك[3].

---

(1) سورة البقرة، الآية 163.

(2) برنجكار، كلام وعقائد (الكلام والعقائد)، ص84.

(3) قال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَيَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! أَدْعُوكُمْ إِلى عِبَادَةِ اللهِ وَخَلْعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَأَدْعُوكُمْ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1417هـ ط1، ص39.

لذلك، إنّ التوحيد هو الركن الركين للدين الإسلاميّ حتّى من وجهة نظر غير المسلمين أيضاً. فقد شدّد «جون ناس» في كتابه «تاريخ الأديان» على هذا الأمر المهمّ الذي ميّز الإسلام من سائر الأديان والمذاهب، مؤكّداً على أنّ التوحيد في الإسلام لا يشبهه أيّ اعتقاد في جميع الأديان الأخرى[1].

وعلى هذا الأساس، يُعتبر الإيمان بالتوحيد أساساً رصيناً في الإسلام؛ ولذا قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في هذا الخصوص: «**إِنَّ أَسَاسَ الدِّين التوحيد وَالْعَدْلُ**»[2].

إنّ التوحيد شعار الدِّين وعموده، فجميع المعارف الدينيّة تَنْهَلُ منه ومردّها إليه، حتّى إنّ الله -سبحانه وتعالى- أبلغ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم بوساطة جبرائيل عليه السلام أنّ أصل الدِّين ودعامته قول: «لا إله إلّا اللّه»[3].

فالتوحيد هو العمود الذي يستند إليه الدِّين الإسلاميّ ويمنعه من الانحراف والسقوط؛ ولهذا السبب يجب معرفة الأبعاد المختلفة لهذا الأصل والتمسّك به في البحوث العقديّة والدينيّة المختلفة للحيلولة دون الانحراف والسقوط.

* معنى التوحيد

كلمة التوحيد تعني الإيمان بالله وحده لا شريك له[4]، فالتوحيد أصله بمعنى الوحدانيّة، لكنّ للوحدانيّة مصاديق مختلفة، وأوّل مصاديقها الذي يتبادر إلى الأذهان هو نفي الشريك. كما وردت معانٍ دقيقة وطريفة للتوحيد في القرآن والروايات، فعلى سبيل المثال فُسّر التوحيد في بعض الروايات بانعدام الشبيه

(1) ناس، تاريخ جامع اديان (تاريخ جامع الأديان)، ص704.

(2) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص11؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص96.

(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج23، ص247.

(4) الخليل الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسّسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ، ط2، ج3، ص280؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص446.

والنظير؛ وعليه فإنّ وصف اللّه بـ«الواحد» و«الأحد» يعني أنّه لا شيء يشبهه، ولا يتّصف بأيٍّ من صفات المخلوقات.

وقد أشار الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام إلى هذا الأمر ببيان بليغ فقال: «**أَمَّا التوحيد فَأَنْ لَا تُجَوِّزَ عَلَى رَبِّكَ مَا جَازَ عَلَيْكَ**»[1].

هذه الرّواية تشير في الحقيقة إلى المعنى الدّقيق للتوحيد، وتثبت أنّ أيّ تشابه بين المخلوقات والخالق يكون مصيره الإشراك باللّه -سبحانه وتعالى-؛ ولذا فإنّنا نحمد الله الذي لا شبيه له في دعاء الافتتاح: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُنَازِعٌ يُعَادِلُهُ وَلَا شَبِيهٌ يُشَاكِلُهُ وَلَا ظَهِيرٌ يُعَاضِدُه**»[2].

❋ مراتب التوحيد

لإيضاح المعنى الدقيق للتوحيد، يجدر بنا بيان مراتبه، والمقصود من مراتب التوحيد هو شموله لجميع شؤون الحياة والكون.

فكما أنَّ الله -سبحانه وتعالى- واحد لا نظير له في ذاته، كذلك لا شبيه له في صفاته وأفعاله، وهذا ما يُعبَّرُ عنه بالتوحيد الذاتيّ والتوحيد الصفاتيّ والتوحيد الأفعاليّ. وحيث إنّ الثمرة الحقيقيّة للتوحيد تتجلّى في كيفيّة سلوك الإنسان مع الله -سبحانه وتعالى-، سنشير إلى مرتبة أخرى من مراتب التوحيد أيضاً، وهي التوحيد في العبادة، وفي ما يلي توضيحٌ مختصرٌ لكلٍّ واحدة من هذه المراتب:

1. التوحيد الذاتيّ

معنى التوحيد الذاتيّ -كما مرّت الإشارة إليه- هو أنّ الذات الإلهيّة لا تشبه شيئاً من الموجودات مطلقاً، فالذات الإلهيّة غير متناهية، لا حدود لها ولا قياس

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص96.

(2) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1364ش، ط3، ج3، ص110.

ولا تَقْبَل التركيب، وهذه الصفات غير موجودة في ذات أيّ مخلوق آخر؛ وهذا معنى ألّا شريك للذّات الإلهيّة.

2. التوحيد الصفاتيّ

إنّ الله -سبحانه وتعالى- لا شبيه له ولا نظير في صفاته أيضاً، كما هو الحال في ذاته، فهو منزّه عن صفات مخلوقاته؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**وَمَا زَالَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ مُتَعَالِياً**»[1].

وقال الإمام الحسين عليه السلام في هذا الصّدد أيضاً: «**لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ**»[2].

فإذاً ليس له أيّ شبه أو مثل في صفاته وخصائصه كالعلم والقدرة وغيرهما، ولا يشبهه الخلق في أيّ صفة من صفاتهم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

3. التوحيد الأفعاليّ

لا شبيه لله -سبحانه وتعالى- ولا نظير له في أفعاله أيضاً، فالتوحيد الأفعاليّ يشمل جهتين أساسيّتين: من جهة أنّ الله ليس بحاجة إلى سند أو ظهير في أداء أفعاله؛ ولذا ورد في القرآن الكريم توبيخاً للمشركين الذين يدعون غيره: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[4].

وحيث لا يمكن فرض أيّ حالة يعجز فيها الله وحده عن الإدارة والتّنظيم، فيطلب فيها أو في غيرها العون والمساعدة، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص: «**ابْتَدَعَ الْأَشْيَاءَ بِغَيْرِ تَفَكُّرٍ وَلَا ظَهِيرٍ وَلَا وَزِيرٍ**»[5].

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص50.
(2) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص244.
(3) سورة شورى، الآية 11؛ وسيأتي الكلام تفصيلاً عن هذا الموضوع في الدّروس التالية.
(4) سورة سبأ، الآية 22.
(5) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج25، ص26.

من جهة أخرى، جميع الموجودات في العالم تحتاج، في جميع أفعالها وآثارها، إلى الإمداد الإلهيّ، فلا تستطيع أيّ قوة في العالم أن يكون لها أيّ وجود أو فعلٍ أو أثر بصورة مستقلّة عن الإمداد الإلهيّ. وعلى هذا، فكما أنّ المخلوقات والموجودات محتاجة إلى الذات الإلهيّة في أصل الوجود، كذلك هي بحاجة إليه في أفعالها وآثارها أيضاً. قال الله (جلّ وعلا): ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[1].

على هذا الأساس، صحيح أنّ الإنسان حرّ ومختار في أداء أفعاله؛ بيد أنّه يكتسب القوّة والإرادة على القيام بها من الله -سبحانه وتعالى-[2].

4. التوحيد في العبادة

التوحيد في العبادة يعني ألّا نعبد إلّا الله وحده ولا نركع لسواه؛ لأنّ العبادة مقتصرة عليه، فكانت مسألة التوحيد في العبادة من أولويّات دعوة الأنبياء الإلهيّين، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[3].

إنّ العبادة في اللغة لا تنفكّ عن معنى الخشوع والتواضع، فالاحترام والتواضع ذو مراتب ودرجات مختلفة، آخر هذه الدرجات وأرفعها هي العبوديّة والعبادة الخاصّة بالله -سبحانه وتعالى-، والعبادة تعني الخشوع والتسليم أمام من نعتبره المالك المطلق.

لكن -وكما أشرنا سابقاً- لا تَصْدُق العبادة على كلّ أشكال الخشوع والتواضع؛ فكثيراً ما يتواضع الإنسان ويخشع أمام والديه وأساتذته وأُمَرائه، وقد يسألهم بعض حاجاته أيضاً. ومن المؤسف وجود جماعة تتمسّك بالفهم السَطحيّ للمسائل

(1) سورة الرعد، الآية 16.
(2) انظر: الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج2، ص125.
(3) سورة النحل، الآية 36.

والموضوعات الإسلاميّة -تدعى الوهّابيّة- تفسّر التوحيد في العبادة بشكل يتنافى مع الزيارة والتوسّل والشّفاعة، وفي حقيقة الأمر إنّ التوحيد في العبادة لا يتنافى مع التوسّل والشّفاعة اللّتين أكّد عليهما القرآن والروايات من الفريقين.

ولتسليط مزيد من الأضواء على ذلك نقول: إنّ معنى العبادة هو الخضوع والخشوع إزاء من يستحقّ التذلّل والتواضع بصورة مستقلّة وبالذات، وليس هو إلّا الله -سبحانه وتعالى-، ولمّا يسأل شخص النبيّ أو الإمام قضاء حاجة معيّنة له، فإنّ اعتبره قاضياً لها بشكل مستقلٍّ فهو مشركٌ؛ لأنّه جعل غير الله مساوياً له وفي رُتبته، ومن ثَمَّ تواضع له وخشع أمامه، أمّا لو اتّخذ النبيّ أو الإمام وسيلة إلى الله لتحقيق مبتغاه وقضاء حاجته عن طريقهما؛ وبالتالي، فإنّ الله هو الذي قضى حاجته بوسيلتهما، ففي هذه الحالة لا يعدّ هذا الشخص مشركاً؛ بل إنّه يكون قد عمل بمقتضى الأوامر الإلهيّة ولم يخالفها، وبالتاليفلا تأثير لأفعال من قبيل الزيارة والتوسّل بالأئمّة عليهم السلام والاستشفاع بهم -كما أمر الله -سبحانه وتعالى-- في مسألة التوحيد في العبادة؛ لأنّ هذه الأمور لا تعدّ عبادةً لغير الله.

المفاهيم الرئيسة

- يُعتبر التوحيد أهمّ عنصر من عناصر العقيدة الإسلاميّة وجميع الأديان الإلهيّة، ويحتلّ الصدارة في المنهج العلميّ والتربويّ للأنبياء الإلهيّين.
- يُعتبر الإيمان بالتوحيد أساساً رصيناً في الإسلام.
- الوحدانيّة لها مصاديق مختلفة، وأوّل مصاديقها الذي يتبادر إلى الأذهان هو نفي الشريك.
- فُسّر التوحيد في بعض الروايات بانعدام الشّبيه والنّظير؛ وعليه فإنّ وصف الله بـ«الواحد» و«الأحد» يعني أنّه لا شيء يشبهه ولا يتّصف بأيٍّ من صفات المخلوقات.
- الذّات الإلهيّة غير متناهية، لا حدود لها ولا قياس ولا تَقْبَل التركيب، وهذه الصفات غير موجودة في ذات أيّ مخلوق آخر؛ وهذا معنى ألّا شريك للذّات الإلهيّة.
- فالتوحيد الأفعاليّ يشمل جهتين أساسيّتين: من جهة أنّ الله ليس بحاجة إلى سند أو ظهير في أداء أفعاله، ومن جهة أخرى، جميع الموجودات في العالم تحتاج في جميع أفعالها وآثارها، إلى الإمداد الإلهيّ.
- التوحيد في العبادة يعني ألّا نعبد إلّا الله وحده ولا نركع لسواه؛ لأنّ العبادة مقتصرة عليه، فكانت مسألة التوحيد في العبادة من أولويّات دعوة الأنبياء الإلهيّين.
- إنّ التوحيد في العبادة لا يتنافى مع التوسّل والشّفاعة اللّتين أكّد عليهما القرآن والروايات من الفريقين.

الأسئلة

1. بيّن أهمّيّة أصل التوحيد بالنسبة إلى سائر أصول العقائد.
2. كيف فُسّر التوحيد في روايات أهل البيت عليهم السلام؟
3. ما المقصود بمراتب التوحيد؟ عدّدها.
4. اشرح معنى التوحيد في العبادة، وبيّن مواضع خطأ العقيدة الوهّابيّة في ذلك.

الدرس السابع



الأدلّة على وحدانيّة اللّٰه

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبرهن على أنّ الشرك باللّٰه-تعالى- ناشئ من الجهل بالصفات الحقيقيّة لخالق الكون.
2. يتعرّف إلى دليل النظام لإثبات وحدانيّة اللّٰه -تعالى-.
3. يعلّل بأنّ الفطرة تدلّ على وحدانيّة اللّٰه -تعالى-.



❋ تمهيد

ذُكرت أدلّة وشواهد مختلفة لإثبات وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-. ومع أنّ التوحيد -حسبما أفادت الآيات والروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام- أمرٌ فطريّ وبديهيّ، ومن قبيل أصل المعرفة الإلهيّة، لكن يمكن الاستدلال عليه بأدلّة عقليّة أيضاً. سنشير هنا إلى نماذج من الأدلّة على التوحيد بما يتناسب مع مستوى هذا الكتاب.

❋ تعدّد الآلهة مخالف للألوهيّة

يمكن إثبات الوحدانيّة عن طريق عدم صواب الشرك، ففي الحقيقة إنّ الاعتقاد بتعدّد الآلهة ينشأ من الجهل بالصّفات الحقيقيّة لخالق الكون، فمن يتصوّر إمكان وجود شبيه ونظير لله -سبحانه وتعالى- لديه في حقيقة الأمر تصوّر ناقص وغير صحيح عنه (جلّ وعلا)، فما أكثر من تصوّروا الله كأحد المخلوقات والموجودات الأخرى، ثمّ جعلوا له في أذهانهم شريكاً أو شركاء عدّة. وفي المقابل، من يضع الله -سبحانه وتعالى- في مكانه الحقيقيّ ويتصوّره تصوّراً صحيحاً يدرك أنّه لا يمكن أن يكون له شريك قطّ.

رُوي عن هشام بن الحكم أنّ زنديقاً جاء إلى الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام، وكان ممّا قاله الإمام له: «**لَا يَخْلُو قَوْلُكَ: «إِنَّهُمَا اثْنَانِ» مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ، أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيّاً وَالْآخَرُ ضَعِيفاً، فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ، فَلِمَ لَايَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَيَتَفَرَّدَ بِالتَّدْبِيرِ؟ وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ، وَالْآخَرَ ضَعِيفٌ، ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ كَمَا نَقُولُ؛ لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي. فَإِنْ قُلْتَ إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ أَوْ مُفْتَرِقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِماً وَالْفَلَكَ جَارِياً وَالتَّدْبِيرَ وَاحِداً وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلَّ صِحَّةُ الْأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَائْتِلَافُ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ**»[1].

* الانتظام في الكون[2]

من الأدلّة العقليّة على التوحيد والذي أشير إليه في الآيات والروايات، الانتظام السائد في العالم. قال -سبحانه وتعالى- في هذا المضمار: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[3].

لا يخفى أنّ الموجودات في العالم غير مستقلّة عن بعضها؛ بل إنّ بعضها مرتبط ببعضها الآخر ويتأثّر به، وإدراك هذا الأمر ليس بالصّعب أو المستحيل؛ بل يستطيع كلّ شخص وبمستوى المعلومات التي يمتلكها أن يدرك الارتباط الوثيق بين الظواهر الكونيّة المختلفة.

هب أنّنا خُلقنا وكان خالقنا إلهاً غير الله خالق الأرض والسماء والهواء و...، فالسّؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل نستطيع أن نعيش دون ماء أو هواء ودون وجود نظام حاكم على الأرض والسماء؟ لو ألقينا نظرة على ما حولنا من ظواهر مختلفة، نجد أنّ القاعدة عامّة وشاملة لجميع ما في الكون، فلا وجود لأيّ مخلوق فاقد للارتباط بالموجودات الأخرى، وإن وُجد فلا يمكنه أن يبقى ويدوم.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص81.

(2) الانتظام في الكون تارة يكون طريقًا لإثبات وجود الله تعالى بعنوان كونه المبدع لهذا النظام، وتارة أخرى يكون طريقًا لإثبات وحدانيّة الخالق، وهو ما نحن بصدده في هذا الدرس. (الإعداد)

(3) سورة الأنبياء، الآية 22.

ومن مظاهر الإبداع في الخلق، وجود تناسق متبادل بين ظاهرتين غير متزامنتين، ويتجلّى هذا التناسق والانسجام في قيام إحدى الظاهرتين بتوفير احتياجات الظاهرة الأخرى قبل وجود الأخيرة. ولعلّ أبرز مثال على هذا الانسجام هو ما يمكن أن نلاحظه بين الأمّ وطفلها، فما إنْ تحمل الأمّ ويبدأ الجنين بالنموّ في رحمها -سواء كانت من الثدييّات عموماً أو من البشر خصوصاً- حتّى تشرع الغدد المنتجة للحليب -وهو غذاء كامل ولذيذ جدّاً- بالعمل على إفرازه بتأثير من هرمونات خاصّة، وكلّما نما الجنين أكثر ازدادت كمّيّة هذه المادّة الغذائيّة، حتّى إذا صار على أعتاب الولادة اكتمل إنتاج الحليب اللّازم لتغذيته وسدّ حاجته الجسديّة. ومن اللّافت أنّ هذا المحصول منسجم تماماً مع ضعف الجهاز الهضميّ لدى الوليد الجديد، ثم يُخزن في مكان أمين ومناسب أُعدّ في جسد الأمّ قبل سنوات من نشوء الطفل وتكوّنه.

أليس هذا الاتّساق والانسجام بين موجودَين مختلفين إلّا من صُنع قوّة واحدة؟ ألا يُعدّ هذا الاتّساق دليلاً واضحاً على تدخّل قوّة غير متناهية ومصمّمٍ عظيم لمواصلة مسيرة الحياة ونموّ المظاهر المختلفة وتكاملها؟

إن لم يكن الكون منسجماً إلى هذا الحدّ، وكان نتاجاً مِنْ خَلْقِ إلهين اثنين أو أكثر، لما اتّسمت حياة الإنسان والعالم المحيط به بكلّ هذا النظام، ولفقدت القدرة على الاستمرار على هذه الحال؛ فلا ريب في أنّه لو كان العالم يُدار من إلهين أو أكثر -مثلما شدّدت الآية الشريفة- لكان مصيره الفساد والدمار.

رُوِيَ عَنْ هِشَام بْنِ الْحَكَم قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي‌عَبْدِ اللَّه عليه السلام: مَا الدليلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ. قَالَ: «**اتِّصَالُ التَّدْبِيرِ وَتَمَامُ الصُّنْعِ، كَمَا قَالَ (عَزَّ وَجَلَّ):** ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾»[1].

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص250.

وقال أيضاً ردّاً على زنديق حول وحدانيّة الباري -سبحانه وتعالى-: «... **فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِماً وَالْفَلَكَ جَارِياً وَالتَّدْبِيرَ وَاحِداً وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلَّ صِحَّةُ الْأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَائْتِلَافُ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِد**»[1].

* إخبار الأنبياء عن وحدانيّة الله

يُعتبر إرسال الأنبياء من أهمّ الأدلّة على وحدانيّة الله (جلّ وعلا)؛ إذ لو كان يوجد آخر لكان عليه إرسال أنبياء وتبيين آثار اقتداره إلى الخلق. قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لولده الإمام الحسن عليه السلام: «**اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّه لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، ولَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِه وسُلْطَانِه، ولَعَرَفْتَ أَفْعَالَه وصِفَاتِه**»[2].

ثمّ إنّ جميع الأنبياء يعتبرون أنفسهم مبعوثين من الله الواحد؛ ولذا قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ... وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[3].

في هذه الآيات وأمثالها، دعا جميع الأنبياء الإلهيّين الناس إلى عبادة الله الواحد وحذّروهم من أنّه لا إله غيره.

وبحسب تعبير القرآن الكريم، فإنّ أساس دعوة جميع الأنبياء كان قائماً على التوحيد والإيمان بعدم وجود إله سواه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[4].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص81؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص244.
(2) نهج البلاغة، مصدر سابق، الكتاب 31؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص72.
(3) سورة الأعراف، الآيات 65 - 73 - 85؛ سورة هود، الآيات 50 - 61 - 84.
(4) سورة الأنبياء، الآية 25.

وعلى هذا الأساس، لو أُلقيت نظرة على تاريخ الأنبياء لشوهد أنّ كبار الأنبياء مثل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والنبيّ محمّد (صلوات الله عليهم أجمعين) يعتبرون أنفسهم مبعوثين من قبل الله الأحد الذي لا شريك له ولا شبيه، ولم يشهد التاريخ أنّ نبيّاً من الأنبياء ادّعى أنّه مبعوث من إله غير الإله الذي دعا إليه هؤلاء الأنبياء.

بناءً على ذلك، بما أنّ جميع الأنبياء الذين بعثهم الله لإرشاد البشريّة وتبليغ الرسالة الإلهيّة كانوا يصفونه بالواحد، فهذا في حدّ ذاته شاهد ودليل واضح على وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-.

❋ شهادة الفطرة على الوحدانيّة

أشرنا في مبحث «المعرفة الفطريّة» إلى أنّ الله -سبحانه وتعالى- يتجلّى إلى الإنسان في الضرّاء والشدائد والمصائب أو عند تذكير الأنبياء أو أثناء العبادة والتهجّد، وأنّ الإنسان يعرف بارئه بقلبه دون الحاجة إلى وساطة. وجديرٌ بالذّكر أنّ الإنسان في هذه الحالات لا يدرك أصل وجود الله -سبحانه وتعالى- وحسب؛ بل يعرف ربّه ويؤمن أنّه واحد، وأنّه هو ربّ السماوات والأرض وسائر المخلوقات أيضاً. من هنا، أشارت بعض الروايات المبيّنة للفطرة إلى هذه الحقيقة النّاصعة، فروُي أنّ أبا عبد الله الصّادق عليه السلام قال في تفسير الآية الشريفة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾: «**فَطَرَهُمْ عَلَى التوحيد**»[1].

وعلى هذا يمكن للفطرة أن تشكّل دليلاً آخر على وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-، ويمكن إثبات التوحيد عن طريق الدليل الفطريّ أيضاً. نعم، إذا قلنا إنّ التوحيد أمرٌ فطريٌّ، وإنَّه مودعٌ في فطرة جميع الناس، فلا بدّ من القول -حينئذ- إنّ جميع الأدلّة والشواهد المتقدّمة تمثّل علامات مرشدة إلى تلك الحقيقة الفطريّة.

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص13؛ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص329.

المفاهيم الرئيسة

- في الحقيقة إنّ الاعتقاد بتعدّد الآلهة ينشأ من الجهل بالصّفات الحقيقيّة لخالق الكون، فمن يتصوّر إمكان وجود شبيه ونظير لله -سبحانه وتعالى- لديه في حقيقة الأمر تصوّر ناقص وغير صحيح عنه (جلّ وعلا).
- من الأدلّة العقليّة على التوحيد، والذي أُشير إليه في الآيات والروايات، الانتظام السائد في العالم. قال -سبحانه وتعالى- في هذا المضمار: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.
- إن لم يكن الكون منسجماً إلى هذا الحدّ، وكان نتاجاً من خَلْق إلهين اثنين أو أكثر، لما اتّسمت حياة الإنسان والعالم المحيط به بكلّ هذا النظام، ولفُقدت القدرة على الاستمرار على هذه الحال.
- يُعتبر إرسال الأنبياء من أهمّ الأدلّة على وحدانيّة الله (جلّ وعلا)؛ إذ لو كان يوجد آخر لكان عليه إرسال أنبياء وتبيين آثار اقتداره إلى الخلق.
- إنّ الإنسان لا يدرك أصل وجود الله -سبحانه وتعالى- وحسب؛ بل يعرف ربّه ويؤمن أنّه واحد، وأنّه هو ربّ السماوات والأرض وسائر المخلوقات أيضاً.
- على هذا يمكن للفطرة أن تشكّل دليلاً آخر على وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-، ويمكن إثبات التوحيد عن طريق الدليل الفطريّ أيضاً.

الأسئلة

1. إلى أيّ دليل من أدلّة التوحيد تشير الآية الشريفة ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾؟

2. كيف تدلُّ الفطرة على وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-؟ اشرح ذلك.

3. كيف يمكن الاستدلال بإرسال الأنبياء على وحدانيّة الله -سبحانه وتعالى-؟

الدرس الثامن

الصفات الثبوتيّة علم اللّٰه وقدرته

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يَتعرّف إلى الصفات الإلهيّة وانقسامها إلى الصفات الثبوتيّة والسلبيّة.
2. يَستنتج أنّ اللّٰه -تعالى- يتّصف بصفتي (العلم) و(القدرة).
3. يذكر خصائص العلم والقدرة الإلهيَّين.

* تمهيد

تُقسّم الصّفات الإلهيّة إلى قسمين: ثبوتيّة وسلبيّة. تُشير الصّفات الثبوتيّة إلى الكمالات التي يتّصف بها الله -سبحانه وتعالى-، بخلاف الصّفات السلبيّة التي هي أوصاف لا يمكن أن تُنسب إليه (جلّ وعلا). وفي الحقيقة، تعود جميع الصّفات السلبيّة إلى تنزيه الله -سبحانه وتعالى- عن النقص والفاقة، ممّا يعدّ من لوازم المخلوقات.

ومن أبرز الصفات الثبوتيّة علم الله -سبحانه وتعالى-، وقدرته، وحياته، وسنبحث في هذا الدرس في إثبات صفتي العلم والقدرة[1]، واستعراض بعض خصائصهما.

* علم الله

أُشير إلى صفة العلم في القرآن الكريم بمفردات من قبيل: عَالم، عَلِيْم، علّام، أعلم، خبير، شهيد، وما شاكل، وجرى التّعبير عنها في بعض المصاديق الجزئيّة بكلمات مثل: سميعٌ وبصير؛ ولكن لا بدّ من معرفة خصائص العلم الإلهيّ، وما المسائل المطروحة في هذا المجال؟ وعند بحث صفة العلم الإلهيّ، ينبغي أوّلاً بيان موضوعين أساسيّين:

(1) من المعروف عند علماء العقيدة أنّ صفة الحياة ملازمة لصفتي العلم والقدرة، فمتى ثبتت هاتان الصفتان ثبتت صفة الحياة.

1. إثبات العلم الإلهيّ

من أبرز معالم العلم الإلهيّ، صنع العالم والنظام الدقيق السائد في جميع أجزائه، ففي الحقيقة كما أنّ الخلق والنّظام الدقيق في العالم يدلّان على وجود الله؛ فإنّهما في الوقت ذاته يُثبتان العلم والقدرة والحكمة لصانع ذلك العالم أيضاً. فعلى سبيل المثال، إذا أمعنّا النظر في الذرّات أو في المنظومة الشمسيّة ككلّ، ندرك أنّه لو حصل مقدارٌ قليلٌ من الزيادة أو النقصان في قوّة الجاذبيّة بين الإلكترون ونواة الذرّة أو بين الكواكب السيّارة والشمس، لأدّى ذلك إمّا إلى تصادمها أو إلى تناثرها وخروجها عن مساراتها المحدّدة؛ وبالتالي، فناء العالم وانعدام الكون، وعليه، فالعالِم المطلق هو الوحيد القادر على لمّ شتات هذه الأجزاء وجعلها مُنسجمة ومُنتظمة وفقاً لقوانين دقيقة ومحسوبة.

ومن هذا المنطلق، فخلق الكون والنَّظم السائد فيه لا يدلّان على إثبات وجود الله فحسْبُ؛ بل يدلّان أيضاً على إثبات العلم والقدرة والحكمة لله -سبحانه وتعالى-، مضافاً إلى إثبات صفات أُخرى مُرتبطة بالصفات المذكورة آنفاً، مثال صفات السميع والبصير والقادر وغيرها.

وثمّة آيات في القرآن الكريم كشفت النقاب عن هذه الحقيقة، وهي أنّ الله الذي خلق هذا الكون بكلّ ما فيه من دقّة وتعقيد لا يمكن أن يكون جاهلاً بما خلق، بل هو أكثر من يعلم به، منها قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].

قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في سياق أمثلة وشواهد كثيرة ساقها ضمن برهان إثبات الصانع في حديث توحيد المفضّل: «**وَغَيْرَ ذَلِكَ سَآتِيكَ بِهِ مِمَّا تَعْرِفُ اتِّصَالَ الْخَلْقِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ عَالِمٍ قَدِيرٍ**»[2].

(1) سورة الملك، الآية 14.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج3، ص189.

2. خصائص علم الله -سبحانه وتعالى-

لا يمكن قياس علم الله -سبحانه وتعالى- بعلم المخلوق، وإن حدث مثل هذا القياس أحياناً بصورة تلقائيّة وفي حالة اللّاشعور، بمعنى أن يتبادر إلى ذهن الإنسان ذلك المفهوم الذي يعرفه عن العلم، والحال أنّ هذا النحو من العلم مستمدٌّ من خصائص المخلوقات؛ ولذا فهو محدود من جهة، وذو صبغةٍ إنسانيّةٍ وكيفيّةٍ بشريّةٍ من جهة ثانية. وممّا لا شكّ فيه أنّ العلم والمعرفة الموجودين لدى المخلوقات من صنع الله -سبحانه وتعالى- وممّا أفاض به عليها، ومثل هذا العلم لا يمكن أن يكون من صفات الخالق[1].

هذا وقد وردت أبحاثٌ عدّة حول العلم الإلهيّ في القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام وذُكرت بشأنها مطالب بليغةٌ وأمورٌ دقيقة لا تسع الفرصة هنا لبسط الكلام فيها؛ لكنّنا سنشير هنا إلى خصيصتين من خصائص العلم الإلهيّ:

أ-علم غير محدود:

إنّ العلم الإلهيّ -خلافاً للعلم البشريّ- غير محدود وشامل لجميع المعلومات، الأعمّ من الموجودات والمعدومات، الكليّات والجزئيّات، الماضي والحاضر والمستقبل. وعليه، فلا حدود لهذا العلم، وليس بوسع الموجودات إيجاد محدوديّة للعلم الإلهيّ. من هنا، أشار القرآن الكريم مراراً إلى العلم الإلهيّ الواسع وغير المحدود، نحو قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3].

(1) فإنّ هذا العلم مخلوق ومحدود من جهة ومشروط ومقيّد من جهة أخرى، فيستحيل ثبوته لله تعالى (الاعداد).
(2) سورة الحجرات، الآية 16.
(3) سورة الحديد، الآية 4.

كما أنَّ عدم محدوديّة علم الله تبلغ مَدَيات واسعة بحيث إنّه يشمل العلم بالمكنونات القلبيّة والأسرار الباطنيّة للإنسان أيضاً، فلا يخفى عليه أيّ شيء من وجود الإنسان مطلقاً: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[1].

وبناءً على ذلك، فالله حاضر في كلّ مكان، وعلمه يغطّي جميع زوايا عالم الكون. ومن الطبيعيّ أنّ الإيمان باتّساع رقعة العلم الإلهيّ والاعتقاد بوجوده في كلّ مكان يؤثّر بشكل كبير في حياة الإنسان؛ فمن يؤمن بأنّ ربّه حاضر معه في كلّ مكان وناظر إلى جميع أعماله، ويستشعر هذا الحضور إلى جانبه دائماً، فممّا لا ريب فيه أنّه سيحجم عن ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب، ويسعى في جميع اللحظات إلى أن يتصرّف بطريقة ترضي مولاه.

ب-علم ثابت لا يتغيّر:

لا يطرأ على علم الله -سبحانه وتعالى- تغيير في مرحلة قبل الخلقة وما بعدها؛ وبهذا فالعلم الإلهيّ ليس كعلم المخلوقات يتغيّر ويتبدّل باستمرار لتغيّر المعلومات. وفي هذا السياق، قال الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام نقلاً عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام: «... **وَكُلُّ عَالِم فَمِنْ بَعْد جَهْل تَعَلَّمَ، وَاللَّهُ لَمْ يَجْهَلْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ، أَحَاطَ بِالْأَشْيَاءِ عِلْماً قَبْلَ كَوْنِهَا، فَلَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهَا عِلْماً، عِلْمُهُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُكَوِّنَهَا كَعِلْمِهِ بَعْدَ تَكْوِينِهَا**»[2].

إنَّ من يؤمن بأنّ علم الله لا يطاله التغيير سوف يعتقد بأنّه لا ينسى شيئاً مطلقاً، وأنّ علمه لا ينقص بمقدار ذرّة واحدة. ولا شكّ في أنّ لهذا الاعتقاد أثراً كبيراً في حياة الإنسان، فيدفعه ذلك إلى أن لا يتساهل في عمل ولا يغفل عنه، ولا يقتصر الأمر على ذلك؛ بل سيؤمن بأنّ الله لا ينساه أبداً ولا تفوته ملاحظة أيّ عمل من أعماله الحسنة أيضاً.

(1) سورة آل عمران، الآية 29.

(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص135؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص43.

❋ قدرة الله

أُشير إلى قدرة الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن والروايات بتعابير من قبيل: قادر، قدير، مقتدر، ذي قوّة، عزيز، غالب، قويّ، قيّوم، مولى، مُحيط... الخ. وقد أكّدنا في بحث التوحيد على أنّه لا نظير لله في ذاته، وأنّه لا شبيه له -سبحانه وتعالى-، ولا نظير في صفاته أيضاً. وعلى هذا الأساس، لا بدّ من إثبات أصل القدرة الإلهيّة أوّلاً، ثمّ إثبات أنّ من خصائصها أنّها لا تشبه قدرة أحد من المخلوقات.

1. إثبات قدرة الله

إنّ العالَم المليء بالتعقيد والتشابك والنّظام المتناسق الجاري في الخلق على مدار التاريخ يعدّ دليلاً واضحاً وآيةً محكمةً على قدرة الله -سبحانه وتعالى-، كما هو المستفاد من علمه وتدبيره وحكمته. وثمّة أكثر من 100 آية في القرآن الكريم تطرّقت إلى قدرة الله (جلّ وعلا)، وأشارت بعض هذه الآيات بصورة مباشرة إلى قدرة الله على خلق السماوات والأرض، وسنسلّط الضوء هنا، على عدد منها:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[1].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾[2].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾[3].

(1) سورة الطلاق، الآية 12.
(2) سورة الشورى، الآية 29.
(3) سورة المعارج، الآيات 40 - 42.

يُستفاد من بعض الآيات مثل: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ و ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أنّ الله -سبحانه وتعالى- قادر على الخلق وعلى جمع الخلق وعلى تبديله كيفما يشاء.

2. خصائص قدرة الله

لقدرة الله -سبحانه وتعالى- خصائص عدّة، أهمّها:

أ-قدرة غير محدودة:

أُشير إلى قدرة الله -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم مراراً، واعتُبرت أنّها قدرة لا متناهية وغير محدودة، ويمكن فهم هذه الصفة بوضوح من الآية الشريفة التالية وغيرها من الآيات الأخرى المشابهة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

وقد ورد هذا اللّفظ بلفظ «قدير» 37 مرّة، وبلفظ «مقتدر» مرّة واحدة في القرآن الكريم. ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ تعبير «كلّ شيءٍ» لا يشمل المُحال والممتنع؛ لأنّه من المحال عقلاً تعلّق قدرة الله -سبحانه وتعالى- بالأمور المتناقضة، لكن من الواضح أنّ استحالة هذه الأمور لا تعني محدوديّة قدرة الله، ولا تدلّ على نقص في قدرته اللّامتناهية. وعليه، فطرح تساؤلات من قبيل: هل الله قادر على خلق حجر لا يمكنه رفعه وزحزحته من مكانه؟ ليس صحيحاً أساساً؛ لأنّه لا يمكن للمُحال العقليّ أن يكون متعلَّقاً للخلقة والقدرة ليتسنّى إطلاق مثل هذا السّؤال، فلا يدخل النقص في مثل هذه الموارد على قدرة الله؛ بل هو من ناحية المقدور.

بعبارة أخرى: تتعلّق قدرة الله -سبحانه وتعالى- بكلّ ما هو ممكن التحقّق، فالمراد من «كلّ شيءٍ» كلّ ما هو ممكن عقلاً[2]؛ ولذا فإنّ الأمور المحالة خارجة عن موضوع القدرة والخلقة.

(1) سورة البقرة، الآية 20.

(2) نعم، لا ينبغي أن نعتبر كلّ ما لا يحلو لنا محالاً عقليّاً؛ ذلك أنّ بعض الأمور خارجة عن نطاق اقتدارنا المعرفيّ فلا يستطيع فهمها وإدراكها، لكنّ العقل لا يراها محالاً.

رُوي عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: «قيلَ لأَمير الْمُؤْمنينَ عليه السلام: هَلْ يَقْدرُ رَبُّكَ أَنْ يُدْخلَ الدُّنْيَا في بَيْضَة منْ غَيْر أَنْ يُصَغِّرَ الدُّنْيَا أَوْ يُكَبِّرَ الْبَيْضَةَ؟ قَالَ: «**إِنَّ اللَّه -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- لَا يُنْسَبُ إِلَى الْعَجْزِ وَالَّذِي سَأَلْتَنِي لَا يَكُونُ**»[1].

ب-قدرة بلا أداة:

من أبرز خصائص قدرة المخلوق أنّها تحصل عن طريق الآلات والأدوات. فعلى سبيل المثال، النجّار الذي يريد صنع عصاً لا بدّ له أوّلاً من الإتيان بخشبة مناسبة من المخزن، وثانياً أن تكون لديه المهارة اللّازمة لأداء هذا العمل، فنرى أنّ هذه القدرة تُسلب منه أثناء النوم والمرض، وتتوفّر لديه عند السّلامة واليقظة، كذلك ينبغي له الاستفادة من الأدوات والوسائل المطلوبة ليتمكّن من إعمال قدرته وصنع العصا المطلوبة.

ولا شيء من الخصائص المذكورة آنفاً موجود لدى الباري -سبحانه وتعالى-؛ لأنّها جميعاً دالّة على النقص والضعف، فتكشف عن قدرة المخلوق المحدودة. من هنا، قال أبو الحسن الرِّضا عليه السلام بعد إيضاح دقّة صنع الله ولطفه: «**عَلِمْنَا أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ لَطِيفٌ، لَطُفَ بِخَلْقِ مَا سَمَّيْنَاهُ بِلَا عِلَاجٍ وَلَا أَدَاةٍ وَلَا آلَةٍ**»[2].

إنّ قدرة الله -سبحانه وتعالى- أسمى وأرفع من أن تحتاج إلى وساطة أو وسيلة لإعمالها؛ ولذا ليس من شأن الله -سبحانه وتعالى- مقارنة قدرته بقدرة المخلوقات؛ لأنّها من سنخ آخر.

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص130.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص118؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص186.

المفاهيم الرئيسة

- تُقسّم الصفات الإلهيّة إلى قسمين: ثبوتيّة وسلبيّة. تُشير الصّفات الثبوتيّة إلى الكمالات التي يتّصف بها الله -سبحانه وتعالى-، بخلاف الصّفات السلبيّة التي هي أوصاف لا يمكن أن تُنسب إليه (جلّ وعلا).
- أُشير إلى صفة العلم في القرآن الكريم بمفردات من قبيل: عَالم، عَلِيْم، علّام، أعلم، خبير، شهيد، وما شاكل.
- من أبرز معالم العلم الإلهيّ، صنع العالم والنّظام الدقيق السائد في جميع أجزائه، ففي الحقيقة كما أنّ الخلق والنّظام الدقيق في العالم يدلّان على وجود الله؛ فإنّهما في الوقت ذاته يُثبتان العلم والقدرة والحكمة لصانع ذلك العالم أيضاً.
- إنّ العلم الإلهيّ -خلافاً للعلم البشريّ- غير محدود وشامل لجميع المعلومات، الأعمّ من الموجودات والمعدومات، الكلّيّات والجزئيّات، الماضي والحاضر والمستقبل.
- إنّ الإيمان باتّساع رقعة العلم الإلهيّ والاعتقاد بوجوده في كلّ مكان يؤثّر بشكل كبير في حياة الإنسان.
- أُشير إلى قدرة الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن والروايات بتعابير من قبيل: قادر، قدير، مقتدر، ذي قوّة، عزيز، غالب، قويّ، قيّوم، مولى، مُحيط...
- إنّ تعبير «كلّ شيءٍ» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ لا يشمل المُحال والممتنع؛ لأنّه من المحال عقلاً تعلّق قدرة الله -سبحانه وتعالى- بالأمور المتناقضة، لكن من الواضح أنّ استحالة هذه الأمور لا تعني محدوديّة قدرة الله ولا تدلّ على نقص في قدرته اللّامتناهية.

الأسئلة

1. ما الفارق بين علم المخلوق وعلم الخالق؟
2. كيف يمكن إثبات العلم الإلهيّ؟
3. ما الآثار المترتّبة على الإيمان بعدم طروء التغيير على العلم الإلهيّ في حياة الإنسان؟
4. بمَ تتعلّق قدرة الله -سبحانه وتعالى-؟ وهل يمكن القول: إنّه غير قادر على المحال العقليّ؟

الدرس التاسع

الصفات السلبيّة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبيّن أنّ اللَّه -تعالى- منزّه عن التركيب.
2. يشرح أنّ اللَّه -تعالى- منزّه عن الجهة والمكان.
3. يتعرّف إلى أنّ اللَّه -تعالى- يستحيل رؤيته بالعين الباصرة.

* تمهيد

تقدّم الحديث عن بعض الصفات الثبوتيّة الذاتيّة لله تعالى وهما صفتا العلم والقدرة، وفي هذا الدرس سنتطرّق إلى بعض الصّفات السّلبيّة التي تنزّه الله عن النّقص.

* نفي الجسمانيّة

لا يتّصف الله بكلّ أشكال الجسمانيّة والمادّيّة؛ لأنّ الجسم والمادّة لا ينفكّان عن أنواع مختلفة من النقص والمحدوديّة. وبسبب شدّة وضوح هذا الموضوع وبداهته لم يشِر إليه القرآن الكريم بصورة مباشرة، فمن الآيات الدالّة على نفي الجسمانيّة عن الله بشكل غير مباشر قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1].

فالإدراكُ بالأبصار يعني الإحاطة بالشيء، وهذه الآية الشريفة تنفي إدراك الله -سبحانه وتعالى- والإحاطة به بجميع وسائل الرؤية، وهذا التعبير يفيد نفي الجسمانيّة؛ لأنّ من لوازم الجسمانيّة التّركيب من أجزاء مرئيّة والإحاطة بها.

(1) سورة الأنعام، الآية 103.

هذا وجرى التأكيد على تنزيه الله -سبحانه وتعالى- عن الجسمانيّة في روايات كثيرة أيضاً، منها قول الإمام جعفر بن محمّد الصَّادق عليه السلام في تنزيهه (عزَّ وَجلَّ):

«وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُجسُّ... وَلَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا تَخْطيطٌ وَلَا تَحْديدٌ»[1].

«الْحَمْدُ لله الَّذي لَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ... فَكُلُّ شَيْءٍ حَسَّتْهُ الْحَوَاسُّ أَوْ جَسَّتْهُ الْجَوَاسُّ أَوْ لَمَسَتْهُ الْأَيْدِي فَهُوَ مَخْلُوقٌ»[2].

* التّركيب

التركيب ممّا يترتّب على القول بالجسمانيّة، لكنّ ذات الله -سبحانه وتعالى- منزّهة عن التركيب؛ لأنّ الأمور المركّبة ذات أبعاد كالطول والعرض والارتفاع، ومكوّنة من أجزاء بقياسات مختلفة. ومن الواضح أنّ التركيب من أجزاء دليل على النقص والحاجة؛ ذلك أنّ الموجود المركّب من أجزاء محتاج إلى كُلٍّ واحد من تلك الأجزاء، ومن دونها يعاني من النقص، والله منزّه عن كلّ أشكال النقص والحاجة.

* الجهة والمكان

إنّ الله -سبحانه وتعالى- منزّه عن الجهة والمكان أيضاً، ولا يمكن نسبة هذه الأوصاف إليه؛ لأنّها مختصّة بالموجودات الحادثة، والمحدودة بأبعاد ثلاثة هي الطول والعرض والارتفاع، والتي يمكن الإشارة إلى جهتها أو مكانها ضمن نطاق خاصّ، وهذا كلّه من خصائص الأجسام. وفي هذا السياق، وردت في القرآن الكريم بعض الآيات الدالّة على نفي الجهة والمكان عنه -سبحانه وتعالى-، منها:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص104؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص98.
(2) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص75.
(3) سورة البقرة، الآية 115.

كذلك عمدت الروايات إلى تنزيه الباري -سبحانه وتعالى- عن المكان والجهة بتعابير وأدلّة مختلفة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ردّاً على سؤال رجل يهوديّ حول مكان الله: «**إِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) أَيَّنَ الْأَيْنَ فَلَا أَيْنَ لَهُ، وَجَلَّ عَنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِغَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا مُجَاوَرَةٍ، يُحِيطُ عِلْمًا بِهَا، وَلَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْ تَدْبِيرِهِ -سبحانه وتعالى-**»[1].

وقال أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في هذا الخصوص: «**وَلَا يُوصَفُ بِكَيْفٍ، وَلَا أَيْنٍ وَحَيْثٍ، وَكَيْفَ أَصِفُهُ بِالْكَيْفِ وَهُوَ الَّذِي كَيَّفَ الْكَيْفَ حَتّى صَارَ كَيْفاً، فَعُرِفَتِ الْكَيْفُ بِمَا كَيَّفَ لَنَا مِنَ الْكَيْفِ؟! أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِأَيْنٍ وَهُوَ الَّذِي أَيَّنَ الْأَيْنَ حَتّى صَارَ أَيْناً، فَعُرِفَتِ الْأَيْنُ بِمَا أَيَّنَ لَنَا مِنَ الْأَيْنِ؟! أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِحَيْثٍ وَهُوَ الَّذِي حَيَّثَ الْحَيْثَ حَتّى صَارَ حَيْثاً، فَعُرِفَتِ الْحَيْثُ بِمَا حَيَّثَ لَنَا مِنَ الْحَيْثِ؟! فَاللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالى- دَاخِلٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَخَارِجٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**»[2].

❋ الرّؤية بالعين الباصرة

من النتائج المترتّبة على نفي الجهة والمكان عن الله -سبحانه وتعالى-، نفي رؤيته بالعين الباصرة؛ لأنّ ما يمكن رؤيته بها هو الموجود الذي يشغل جهة معيّنة وحيّزاً خاصّاً ويحتوي على أجزاء وأبعاد مختلفة، فهذا النوع من الرؤية ممكن بالنسبة إلى الموجودات الجسمانيّة فقط.

على أنّ تعذّر إمكان رؤية الله -سبحانه وتعالى- بالعين الباصرة أمرٌ واضح ومسلّم إلى درجة أنّ الأئمّة الميامين عليهم السلام ذكروا أنّ المقصود من الإبصار في الآية الشريفة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هو الأوهام الذهنيّة والتصوّرات الفكريّة؛ بمعنى أنّ البشر لا يستطيعون معرفة الله عن طريق الأوهام والأفكار التي تراود

(1) المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الإرشاد، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2، ج1، ص201.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص103 - 104؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص115.

أذهانهم حول الله (جلّ وعلا)، وإلّا فمن الواضح لدى الجميع أنّ العين الباصرة قاصرة عن رؤيته -سبحانه وتعالى-. قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في معنى الآية المتقدّمة: «**إِنَّمَا عَنَى إِحَاطَةَ الْوَهْمِ... اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ**»[1].

وقال الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام في هذا الصّدد أيضاً: «**لَا تُدْرِكُهُ أَوْهَامُ الْقُلُوبِ، فَكَيْفَ تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الْعُيُونِ؟**»[2].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص98؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص112.

(2) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ ط1، ص410.

- فمن الآيات الدالّة على نفي الجسمانيّة عن الله بشكل غير مباشر، قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾.
- جرى التأكيد على تنزيه الله -سبحانه وتعالى- عن الجسمانيّة في روايات كثيرة أيضاً.
- ذات الله -سبحانه وتعالى- منزّهة عن التّركيب، ومن الواضح أنّ التركيب من أجزاء دليل على النقص والحاجة.
- إنّ الله -سبحانه وتعالى- منزّه عن الجهة والمكان أيضاً، ولا يمكن نسبة هذه الأوصاف إليه؛ لأنّها مختصّة بالموجودات الحادثة.
- من النتائج المترتّبة على نفي الجهة والمكان عن الله -سبحانه وتعالى-، نفي رؤيته بالعين الباصرة.
- إنّ تعذّر إمكان رؤية الله -سبحانه وتعالى- بالعين الباصرة أمرٌ واضح ومسلّم إلى درجة أنّ الأئمّة الميامين عليهم السلام ذكروا أنّ المقصود من الإبصار في الآية الشريفة ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هو الأوهام الذهنيّة والتصوّرات الفكريّة؛ بمعنى أنّ البشر لا يستطيعون معرفة الله عن طريق الأوهام والأفكار التي تراود أذهانهم حول الله (جلّ وعلا).

الأسئلة

1. نفي التركيب عن الله -سبحانه وتعالى- من الصّفات السلبيّة، اشرح ذلك.
2. لماذا يجب أن يُنزَّه الباري -سبحانه وتعالى- عن الوجود في جهة خاصّة؟ اذكر الدليل على ذلك.
3. ما الإشكال الذي يلزم من رؤية ذات الله -سبحانه وتعالى-؟

الباب الثالث

العدل الإلهيّ

الدرس العاشر

العدل أهمّيّته والأدلّة عليه

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح أهمّيّة صفة (العدل) للّه -تعالى-.
2. يذكر حدود العدل الإلهيّ.
3. يعدّد أهمّ الأدلّة لإثبات العدالة في أفعال اللّه -تعالى-.

* تمهيد

ثَمَّ صفات كثيرة لله -سبحانه وتعالى-، مثل التوحيد والعلم والقدرة والحياة والعدل والإرادة وأمثالها، لكنّ صفتي التوحيد والعدل تحظيان بأهمّيّة كبيرة من بين الصّفات الأخرى الكثيرة حتّى عُدّا من أصول الدين. من هنا، سنبحث في هذا الدرس أهمّيّة العدل، ثمّ نتطرّق إلى تعريفه وحدوده، وسنذكر أهمّ الأدلّة عليه.

* أهمّيّة العدل

يكفي لإثبات أهمّيّة العدل أنّه قد وردت مشتقّات مادّة العدل والظلم في القرآن الكريم أكثر من 300 مرّة، ونُفيت صفة الظّلم عن الباري -سبحانه وتعالى- 41 مرّة. فعلى سبيل المثال قال -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[2].

ولا يخفى أنّ تكرار الموضوع الواحد والتأكيد عليه بأساليب مختلفة يكشفانِ عن مدى أهمّيّته.

(1) سورة النساء، الآية 40.

(2) سورة النحل، الآية 90.

كذلك جرى التأكيد على صفة العدل في الروايات والأحاديث، بل اعتبر الإمام جعفر بن محمّد الصَّادق عليه السلام أنّ العدل والتوحيد أساس الدين فقال: «**إِنَّ أَسَاسَ الدين التوحيد وَالْعَدْلُ**»[1].

وذهب بعض المتكلّمين عند شرح أهمّيّة العدل إلى أنّ كثيراً من العقائد الإسلاميّة تندرج تحت باب العدل الإلهيّ، وأنّ إثبات بعض أصول الدِّين أي النبوّة والإمامة والمعاد يتوقّف على إثبات العدل الإلهيّ؛ لأنّنا إنّما نقول بلزوم إرسال الرسل وإيجاد القيامة وإثابة المحسنين ومعاقبة المُسيئين على الله -سبحانه وتعالى- طبقاً لأصل العدل الإلهيّ، وإلّا فإن كان الله ظالماً -والعياذ بالله- فلا يمكن إثبات أيٍّ من هذه الأمور.

* مفهوم العدل

مفهوم العدل لغةً

ذكر اللغويّون أنّ معنى العدل: الحكم بالحقّ وهو ضدّ الجور[2]. والحكم بالحقّ هو الحكم المناسب للشخص المحكوم، وإلّا اعتبر حكماً جائراً؛ وعلى هذا فالعادل هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم.

من هنا، عندما تُستعمل كلمة «العدل» بشأن الله -سبحانه وتعالى- فهي تعني أنّه لو حكم بعقوبة على أحد، فهو بهذا الحكم جدير، أي لم يُصدِر الحكم عليه استجابةً للهوى أو من غير استحقاق[3].

مفهوم العدل اصطلاحاً

المعنى الشائع للعدل الذي يتبادر إلى الأذهان أسرع من غيره من المعاني،

(1) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص96؛ الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص11.
(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص430؛ الفراهيديّ، كتاب العين، مصدر سابق، ج2، ص38.
(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص430.

هو «رعاية حقوق الآخرين وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه»[1]. وفي مقابل هذا المعنى للعدل، يقف الظّلم والجور بمعنى تضييع حقوق الآخرين والاعتداء عليها.

وفي ضوء هذا المعنى، قال الشيخ المفيد عند تعريف العدل:

«العدل هو الجزاء على العمل بالقدر المستحقّ عليه، والظّلم هو منع الحقوق، والله -سبحانه وتعالى- عدل كريم جواد متفضّل رحيم، قد ضمن الجزاء على الأعمال، والعوض على المبتدئ من الآلام، ووعد التفضّل بعد ذلك بزيادة من عنده»[2].

وبناءً عليه، فإنّ كون الله -سبحانه وتعالى- عادلاً يعني أنّه يعطي كلّ ذي حقّ حقّه دون نقصان؛ فإن كان من أهل الطاعة والعبوديّة أعطاه ما يستحقّه من الثّواب، وإن كان من أهل المعصية عاقبه بالعقوبة المناسبة.

وفي بحث العدل الإلهيّ في القرآن الكريم، جرى الحديث في مواضع عدّة حول أنّ الله -سبحانه وتعالى- لا يظلم أحداً، بمعنى أنّه يُعطي المحسنين جزاءهم الكامل، وقد يضاعف لهم الثّواب من فضله، ولا يعاقب المُسيئين إلّا بما يستحقّون وبقدر عملهم القبيح[3].

❋ حدود العدل الإلهيّ

يشمل العدل الإلهيّ دائرة واسعة من الأفعال الإلهيّة، وسنشير هنا إلى موردين من مصاديق الأفعال الإلهيّة التي يشملها عدل الله -سبحانه وتعالى-:

1. العدل في الجزاء

العدل في الجزاء يعني أنّ الله (جلّ وعلا) لا يظلم أحداً من المُحسنين

(1) انظر: المفيد، الشيخ محمد بن محمد، تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق حسين درگاهي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2، ص83؛ السبحاني، الشيخ جعفر، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، تعريب: الشيخ جعفر الهادي، لا.ت، لا.ط، ص82.

(2) الشيخ المفيد، تصحيح اعتقادات الإماميّة، مصدر سابق، ص83.

(3) انظر: سورة الأنعام، الآية 160.

والمُسيئين، فيُعْطي المحسن الثّواب الذي يستحقّ ويُعاقِب المُسيء بالعقوبة المناسبة لمعصيته.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ وجوب الثواب للمحسنين يأتي على أساس الوعد الذي قطعه الباري -سبحانه وتعالى- لعباده من أنّه يثيبهم على الأعمال الحسنة، ولولا هذا الوعد لما كان إعطاء الثواب واجباً؛ لأنّه ليس للعبد إلّا شكر المعبود وطاعة الخالق. بناءً على ذلك، ليس للإنسان حقّ على الله حينما يؤدّي الأوامر الإلهيّة، ولكن في ضوء الوعد الإلهيّ بشأن إعطاء الثّواب للمُحسنين، يكون معنى العدل في الجزاء هو العمل بذلك الوعد وإعطاء الثّواب الذي وعد العباد به.

وأمّا بشأن جزاء العصيان، فإن شاء الله -سبحانه وتعالى- تعامل مع العاصي بفضله وكرمه ومن ثَمّ العفو والصّفح عنه، وإن شاء أخذه بعدله وعاقبه بعقوبة مناسبة لعصيانه؛ ذلك أنّ معاقبة العاصي بعقوبة تفوق ما تستحقّه المعصية المُرتكَبة ظلم، والله (جلّ وعلا) منزّه عن كلّ أشكال الجور والظّلم. قال -سبحانه وتعالى- في هذا الصدد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[1].

2. العدل في التّشريع

وهو يعني أنّ الله -سبحانه وتعالى- لا يأمر الإنسان بأكثر من طاقته في الأحكام الشرعيّة أيضاً؛ لأنّ التكليف بما لا يُطاق ظُلم وخلاف العدل والحكمة الإلهيّة. قال -سبحانه وتعالى- في هذا الخصوص: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[2].

وقد ورد في رواية عن الإمام المعصوم عليه السلام أنّ المراد من التّكليف في هذه الآية الواجبات دون المستحبّات[3]. فعلى سبيل المثال، في ما يتعلّق بالصيام لم

(1) سورة الأنعام، الآية 160.

(2) سورة البقرة، الآية 286.

(3) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، إيران - طهران، 1422هـ ط1، ج1، ص160.

يُفرض على المكلّف الذي تتوفّر فيه الشروط اللّازمة إلّا صيام شهر رمضان الكريم فقط، والحال أنّه قادر على الصوم المستحبّ في الأشهر الأخرى أيضاً، فضلاً عن شهر رمضان. ويُستفاد من هذه الحقيقة أنّ الوُسع أقلّ من طاقة الإنسان، وأنّ الواجبات الشّرعيّة المفروضة عليه أقلّ من طاقته الطبيعيّة.

* أدلّة العدل الإلهيّ

ثَمَّةَ أدلّة كثيرة على العدالة في أفعال الله، ولكن نكتفي منها بدليلين:

1. دليل الكمال الأخلاقيّ

يبتني هذا الدليل على مقدّمتين: الأولى، أنّه وفقاً للحكم العقليّ يُعتبر الظُّلم أمراً قبيحاً والعدل أمراً حسناً؛ فإذا رجعنا إلى العقل والضمير وجدنا أنّ الظُّلم والجَور قبيح والعدل والقسط حسن، حتّى مع قطع النّظر عن الشريعة؛ ولهذا السبب عندما نرى ظالماً نذمّه ونعتبره مُستحقّاً للعقاب.

قال أمير المؤمنين عليه السلام حول قبح الظُّلم: «**الظُّلْمُ أُمُّ الرَّذَائِلِ**»[1].

وقال أيضاً: «**إِنَّ القُبْحَ فِي الظُّلْمِ بِقَدَرِ الحُسْنِ فِي العَدْلِ**»[2].

أمّا المقدّمة الثانية فتستند إلى الإيمان بأنّ أفعال الله -سبحانه وتعالى- لا تخالف الكمال الأخلاقيّ الذي يؤيّده العقل؛ لأنّ الله (سبحانه) منزّه عن كلّ أشكال النقص والقبح كما أثبتناه في بحث الصّفات السلبيّة سابقاً. والنتيجة المترتّبة على هاتين المقدّمتين هي أنّه -سبحانه وتعالى- منزّه عن الظُّلم والجَور.

2. دليل نفي منشأ الظُّلم

إنّ منشأ ارتكاب الأفعال القبيحة يدور بين الجهل بقبحها، أو الحاجة إليها،

(1) الآمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم المفهرس من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، دار الهادي، لبنان - بيروت، 1413هـ - 1992م، ط1، الحكمة 804.

(2) الآمدي، غرر الحكم، مصدر سابق، الحكمة 3443.

أو عدم القدرة على تركها؛ لكنّنا في بحث التوحيد أثبتنا بالبراهين العقليّة، أنّ الله -سبحانه وتعالى- عليم وغنيّ وقدير، فلا معنى للجهل والفاقة والعجز في ساحة الباري (جلّ وعلا). وحيث لا وجود لمبدأ الظُّلم عند الله، يمكن القول: إنّه -سبحانه وتعالى- عادل ولا يرتكب الظُّلم[1].

ورد عن الإمامين السجّاد والصادق عليهما السلام أنّهما قالا في الدعاء: «**قَدْ عَلِمْتُ يَا إِلَهِي أَنْ لَيْسَ فِي حُكْمِكَ ظُلْمٌ، وَلَا فِي نَقِمَتِكَ عَجَلَةٌ، وَإِنَّمَا يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الْفَوْتَ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى الظُّلْمِ الضَّعِيفُ، وَقَدْ تَعَالَيْتَ يَا إِلَهِي عَنْ ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيراً**»[2].

فنرى أنّ الضعف، في هذا الحديث، اعتُبِر منشأً للظُّلم، والجهل والحاجة والعجز من المصاديق البارزة للضّعف؛ ومن هنا، يمكن اعتبار الحديث المتقدّم عبارة أخرى لدليل نفي مبدأ الظُّلم.

(1) انظر: العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق: آية الله حسن زاده الآملي، مؤسّسة نشر الإسلامي، إيران - قم، 1417هـ ط7، ص305.

(2) الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، مصدر سابق، ج3، ص88.

المفاهيم الرئيسة

- ثَمَّ صفات كثيرة لله -سبحانه وتعالى-، مثل التوحيد والعلم والقدرة والحياة والعدل والإرادة وأمثالها، لكنّ صفتي التوحيد والعدل تحظيان بأهمّيّة كبيرة من بين الصّفات الأخرى الكثيرة حتّى عُدّا من أصول الدّين.
- جرى التأكيد على صفة العدل في الروايات والأحاديث، إلى درجة أنّ الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام اعتبر العدل والتوحيد أساس الدِّين.
- العدل في الجزاء يعني أنّ الله (جلّ وعلا) لا يظلم أحداً من المُحسنين والمُسيئين، فيُعْطي المحسن الثّواب الذي يستحقّ ويُعاقِب المُسيء بالعقوبة المناسبة لمعصيته.
- ليس للإنسان حقّ على الله حينما يؤدّي الأوامر الإلهيّة، ولكن في ضوء الوعد الإلهيّ بشأن إعطاء الثّواب للمُحسنين، يكون معنى العدل في الجزاء هو العمل بذلك الوعد وإعطاء الثّواب الذي وعد العباد به.
- وأمّا بشأن جزاء العصيان، فإن شاء الله -سبحانه وتعالى- تعامل مع العاصي بفضله وكرمه ومن ثَمّ العفو والصّفح عنه، وإن شاء أخذه بعدله وعاقبه بعقوبة مناسبة لعصيانه.
- العدل في التشريع معناه أنَّ الله -سبحانه وتعالى- لا يأمر الإنسان بأكثر من طاقته في الأحكام الشرعيّة أيضاً؛ لأنّ التكليف بما لا يُطاق ظُلم وخلاف العدل والحكمة الإلهيّة.
- يمكن إثبات العدالة في أفعال الله تعالى من خلال: دليل الكمال الأخلاقيّ، ودليل نفي منشأ الظلم.

الأسئلة

1. لماذا اعتُبر العدل واحداً من أُصول الدِّين بعد التوحيد؟ وكيف تندرج بعض العقائد الأخرى كالمعاد والنبوّة، تحت هذا الأصل؟
2. ما معنى العدل في الجزاء؟ أليس من العدل أن يُجازَى المسيئُون بأعمالهم السّيئة؟
3. ما معنى العدل في التّشريع؟ هل تكليف الإنسان بأكثرَ مِن وسعه يُعدّ ظلماً وجوراً؟
4. يُعدّ الكمال الأخلاقيّ من الأدلّة على العدل الإلهيّ، اشرح ذلك في سياق استدلاليّ.
5. لماذا لا يرتكب الله الظُّلم والجَور؟ استدلّ، عن طريق منشأ الظُّلم، على العدل الإلهيّ.

الدرس الحادي عشر

العدل الإلهيّ واختيار الإنسان

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف نظريّة الجبر ومنافاتها للعدل الإلهيّ.
2. يشرح نظريّة الأمر بين الأمرين.
3. يدرك أنّ الشدائد والبلاءات لا تتعارض مع العدل الإلهيّ.

❋ تمهيد

تطرّقنا في الدرس السابق إلى تعريف العدل وبيان حدوده والأدلّة على إثباته، وسنبحث في هذا الدرس ارتباط العدل الإلهيّ باختيار الإنسان، وتبيين نظريّة «الأمر بين الأمرين» استناداً إلى المصادر الوحيانيّة، ومن ثَمَّ نعالج إشكاليّة الشدائد والمصائب التي تقع في عالم الكون.

❋ الجبر أو الاختيار؟

من الأبحاث التي تُطرح في الكتب الكلاميّة على هامش بحث العدل الإلهيّ، مبحث اختيار الإنسان وحرّيّته، ويرتبط العدل باختيار الإنسان باعتبار أنّه لو كان الإنسان مجبوراً ومفتقراً إلى الحريّة والاختيار في أفعاله، سيكون من الظُّلم تكليفه بأداء بعض الأفعال أو تركها ومن ثَمّ معاقبته بسبب عدم التزامه بتلك التكاليف. فعلى سبيل المثال، لو أَوْثَقوا يَدَيْ شخصٍ ورِجلَيْه بالحبال وأداروا في فمه الخمر عُنوةً، ثمّ أقاموا عليه الحدّ وجلدوه بسبب شرب الخمر، فسيعترف الجميع بأنّ هذا الشخص مظلوم.

ومن هذا المُنطلق، أنكر المتكلّمون مبدأ الجبر للإنسان وبادروا إلى الرّد على هذه الشبهة في باب العدل الإلهيّ؛ إذ مع ثبوت نظريّة الجبر يُخدش العدل

الإلهيّ. من هنا، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في مجال أعمال الإنسان: «**فَإِنْ كَانَتْ [أي الأعمال السّيئة] مِنَ اللهِ عَلَى انْفِرَادِه فَمَا بَالُهُ (سُبْحَانَهُ) يُعَذِّبُ عَبْدَهُ عَلَى مَا لَمْ يَفْعَلْهُ مَعَ عَدْلِه وَرَحْمَتِه وَحِكْمَتِه**»[1].

وسئل الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: هل فوّض الله الأمر إلى العباد أو جبرهم على المعاصي؟ فقال: «**اللهُ أَعْدَلُ وَأَحْكَمُ مِنْ ذَلِكَ**»[2].

وعلى هذا الأساس، ورد في آيات عدّة من القرآن الكريم أنّه لا يُظلم أحد في الآخرة؛ بل يُجزى كلّ شخص على العمل الذي قام به فقط، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾[3].

على أنّ نظريّة الجبر تتنافى مع الضمير الإنسانيّ، فضلاً عن منافاتها للعدل الإلهيّ أيضاً؛ ذلك أنّ اختيار الإنسان وحرّيته أمر وجدانيّ وبديهيّ، ولو رجع كلّ إنسان إلى نفسه وأفعاله، فسيجد أنّ أعماله منبعثة من ذاته وصادرة عن إرادته، ولا يستطيع أن يُحمّل مسؤوليّتها للآخرين وأن يخلّي عاتقه عن ثقل عمله وجُرمه. والقرآن الكريم تحدّث عن هذه الحالة الإنسانيّة الواعية بالنسبة إلى أعمال الإنسان نفسه، وخاطبه بكلّ وضوح: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾[4].

* الأمر بين الأمرين

لمّا كانت نظريّة الجبر متعارضة مع العدل الإلهيّ، فقد ذهب جماعة إلى القول بنظريّة التّفويض مقابل الجبر، والتّفويض يعني أنّ الله -سبحانه وتعالى-

(1) الديلمي، الحسن بن محمد، أعلام الدين في صفات المؤمنين، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، لا.ت، لا.ط، ص318.
(2) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص157.
(3) سورة غافر، الآية 17.
(4) سورة القيامة، الآيتان 14 - 15.

أعطى قدرة أداء الأفعال إلى الإنسان وتركَه لحاله دون أن يتدخّل في أموره المختلفة؛ بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول إنّه -سبحانه وتعالى- غير قادرٍ على التدخّل في شؤونه[1].

إنّ أهمّ إشكال يواجه نظريّة التّفويض هو تقييد قدرة الله وسلطته، مضافاً إلى عجزه وضعفه؛ لأنّه -سبحانه وتعالى- عندئذٍ ليس لديه أيّ سلطة على أفعال عباده، ولا يمتلك القدرة على منع صدور أيّ فعلٍ منهم بمقتضى هذه النظريّة، في حين ثبت، في بحث التوحيد، أنّه ذو قُدرة مُطلقة.

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في ردّ نظريّتي الجبر والتّفويض: «**لَمْ يُفَوِّضِ الْأَمْرَ إِلَى خَلْقِهِ وَهْناً مِنْهُ وَضَعْفاً، وَلَا أَجْبَرَهُمْ عَلَى مَعَاصِيهِ ظُلْماً**»[2].

وفي مقابل هاتين النظريّتين، أطلق الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام عقيدة الأمر بين الأمرين، فقال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الصدد: «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ، وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**»[3].

وخلاصة الكلام في الأمر بين الأمرين أنّ الإنسان من جهة غير مجبور لامتلاكه القدرة والاختيار، ومن جهة أخرى لم تفوَّض إليه الأمور بشكل تامّ، فيستطيع الله -سبحانه وتعالى- في أيّ لحظة منع الإنسان من استخدام قدرته أو الحيلولة دون تأثيرها أو سلبه أصل تلك القدرة. أو فقل: من ناحية يُعترف بأنّ الإنسان مختار؛ إذ اختياره أمر وجدانيّ وبديهيّ، ومن ناحية ثانية يجري التّسليم بالسلطة المطلقة لله -سبحانه وتعالى- بحيث لا يمكن أن يتحقّق أيّ فعل من الأفعال في العالم دون إرادته ومشيئته (جلّ وعلا).

(1) برنجكار، معرفت عدل الهى (معرفة العدل الإلهي)، ص57.
(2) الشيخ الطبرسي، الإحتجاج، مصدر سابق، ج2، ص327.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص160؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص362.

❋ العدل الإلهيّ والشدائد

هناك بعض الشّبهات والإبهامات أُثيرت حولَ العدل الإلهيّ، كموضوع الكوارث والشّدائد والمصائب في عالم الكون، إذ كيف تنسجم هذه الظّواهر مع العدل الإلهيّ؟

بعبارة أوضح: لمّا كان الله -سبحانه وتعالى- عادلاً ولا يظلم أيّ أحد من الناس، فقد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: لماذا يوجد في العالم جهل وضعف وفقر وحرمان وظلم وعوامل ضلال مختلفة؟ من هو موجد الفيضانات والزلازل والأمراض والموت؟ أليس الوضع الأمثل للعالم هو خلوّه من المساوئ والشدائد وحلول المحاسن والأفراح بدلاً منها؟ ألا تعدّ هذه الشرور ظُلماً للمنكوبين والواقعين تحت جورها؟

قبل الردّ على هذه الأسئلة بصورة مفصّلة، لا بدّ من الالتفات إلى أنّ صفتي العدل والحكمة قد أُثبتتا للباري -سبحانه وتعالى- في محلّهما. من هنا فإنّه لا بدّ من الاعتراف بوجود حكمة لجميع الكوارث والمصائب والشدائد في الدنيا، وإن لم نعرفها ولم نَعهَا، وسنشير أدناه إلى بعض هذه الحِكَم:

1. الشّدائد التي تعود إلى الإنسان نفسه

إنّ كثيراً من المصائب والشدائد التي تحلّ بالعالم ما هي إلّا نتيجة لأعمال الإنسان نفسه. فهي في الحقيقة جزء من العقوبة على المعاصي التي يرتكبها الإنسان في دار الدّنيا، ويبقى الجزء الآخر منها إلى الآخرة. وقد قال القرآن الكريم بشأن هذه الشدائد والمفاسد:

﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾[1].

(1) سورة الروم، الآية 41.

وعلى هذا الأساس، يتبيّن أنّ كثيرًا من الكوارث والشدائد التي يعاني منها البشر مثل الجدب والفيضانات والزلازل تحدث نتيجة الذنوب التي يرتكبها الناس، ولا ظُلم في مثل هذه الموارد من الله -سبحانه وتعالى-؛ لأنّ العدل الإلهيّ يقتضي معاقبة المُجرمين بالعقوبة التي يستحقّونها، وكما وردت الإشارة في الآية الآنفة ثمّة حكمة أخرى لعقوبة الله -سبحانه وتعالى- غير كونها مطابقة للعدل، وهي توبة العصاة ورجوعهم عن غيّهم.

2. الشّدائد التي لا تعود إلى الإنسان

في المقابل، لا يعود منشأ بعض المشاكل والشدائد التي يواجهها البشر إلى أعمالهم وتصرّفاتهم؛ بل لها منشأ آخر؛ فعلى سبيل المثال، لو ألقينا نظرة إلى سيرة الأنبياء والأولياء الإلهيّين، لوجدنا أنّهم واجهوا مشاكل وشدائد أكثر من غيرهم، لكنّ الحكمة من تلك الشدائد ليس اقترافهم الذّنوب وارتكابهم المعاصي؛ حيث ثبت بالدليل أنّهم معصومون. من هنا، يُطرح السؤال الآتي: ما الحكمة من هذه الأمور؟

ورد في بعض الأحاديث أنّ الحكمة من ذلك هو التكامل وبلوغ الدرجات العليا، فقال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ يَخُصُّ أَوْلِيَاءَهُ بِالْمَصَائِبِ لِيَأْجُرَهُمْ عَلَيْهَا مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ**»[1].

فاتّضح أنّ الأولياء الإلهيّين يواجهون هذا الضرب من المصائب والشّدائد من باب الفضل والرحمة الإلهيّة؛ لأنّ هذه المشاكل المحدودة تشكّل وسيلة ومقدّمة لخيرات أبديّة. وعلى هذا الأساس، كلّما كان الشخص أقرب إلى الله وأكثر محبّةً لديه ابتلي بمشاكل أكثر من سواه، وقد وردت روايات كثيرة في هذا المجال، منها ما صدر عن الإمام الصّادق عليه السلام: «**أَشَدُّ الناس بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُمْ ثُمَّ الأمثلُ فالأمثلُ**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص450.
(2) المصدر نفسه، ص253.

والنقطة المُهمّة في هذا البحث هي أنّ من يصبر على هذين النحوين من الشدائد ويتّخذ موقفاً صحيحاً مقابلهما، سواء أكان إنساناً معصوماً أم غير معصوم، سيحصل في نهاية المطاف على خير أبديّ وغير محدود، وهذا يعني أنّ جميع أقسام المصائب والابتلاءات تكون لصالح الإنسان إن واجهها بالصبر والاستقامة واتّخاذ الموقف الصحيح.

- يرتبط العدل باختيار الإنسان من حيث إنّه لو كان الإنسان مجبوراً ومفتقراً إلى الحرّيّة والاختيار في أفعاله، سيكون من الظلم تكليفه بأداء بعض الأفعال أو تركها ومن ثَمَّ معاقبته بسبب عدم التزامه بتلك التكاليف.
- إنّ نظريّة الجبر تتنافى مع الضمير الإنسانيّ، فضلاً عن منافاتها للعدل الإلهيّ أيضاً؛ ذلك أنّ اختيار الإنسان وحرّيّته أمر وجدانيّ وبديهيّ.
- نظريّة التفويض تعني أنّ الله -سبحانه وتعالى- أعطى قدرة أداء الأفعال إلى الإنسان وتركَه لحاله دون أن يتدخّل في أموره المختلفة؛ بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالقول إنّه -سبحانه وتعالى- غير قادرٍ على التدخّل في شؤونه.
- إنّ أهمّ إشكال يواجه نظريّة التفويض هو تقييد قدرة الله وسلطته، مضافاً إلى عجزه وضعفه؛ لأنّه -سبحانه وتعالى- عندئذٍ ليس لديه أيّ سلطة على أفعال عباده.
- في مقابل هاتين النظريّتين، أطلق الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام عقيدة الأمر بين الأمرين، فقال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في هذا الصدد: «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ، وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**».
- الأمر بين الأمرين يعني أنّ الإنسان من جهة غير مجبور لامتلاكه القدرة والاختيار، ومن جهة أخرى لم تفوَّض إليه الأمور بشكل تامّ، فيستطيع الله -سبحانه وتعالى- في أيّ لحظة منع الإنسان من استخدام قدرته، أو الحيلولة دون تأثيرها، أو سلبه أصل تلك القدرة.

الأسئلة

1. ما الصلة بين الاختيار وقدرة الإنسان على أداء الأفعال وبين العدل الإلهيّ؟
2. ما هو الإشكال على نظريّة التفويض؟ وما الفرق بين الاختيار والتفويض؟
3. اشرح عقيدة الأمر بين الأمرين وبيّن ما هو الخطّ الفاصل بين هذا الاعتقاد من جهة والجبر والتفويض من جهة أخرى.
4. ما هو الإشكال حول المصائب والشدائد التي تصيب البشر؟
5. كيف يمكن تبديل التهديد الناجم عن المصائب والشدائد إلى فرصة مباركة؟

الدرس الثاني عشر



العدل الإلهيّ وإشكاليّة الفوارق والاختلافات

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبيّن الاختلافات والفوارق التي لا تتعارض مع العدل الإلهيّ.
2. يشرح إشكاليّة وجود معوّقين وتعارضها مع العدل الإلهيّ والجواب عنها.
3. يتعرّف حكمة خلق الكافرين وعدم تعارضها مع العدل الإلهيّ.



❋ تمهيد

جرى الحديث في ما مضى عن الكوارث الطبيعيّة التي تقع في السماء والأرض، غير أنّ كثيرين عمدوا إلى إطلاق شبهات حول الفوارق والاختلافات الموجودة في حياة الإنسان، لا سيّما الأمور التي لازمت الإنسان منذ بدء الخلقة، والآن سنبحث هذه الاختلافات ومدى ارتباطها بالعدل الإلهيّ.

وتُطرح التّساؤلات الآتية حول الفوارق والاختلافات الموجودة في الكون: لماذا خُلقت الكائنات بصورة متباينة ومتخالفة؟ ولماذا خُصّ بعضها بأنواع من الكمال دون بعضها الآخر؟ ألا تعدّ هذه الاختلافات بين البشر في حدّ ذاتها ظُلماً وانعداماً للحكمة؟

❋ النسبة بين العدل والتّشابه

قبل البدء بالحديث في أيّ شيءٍ لا بدّ من القول: لا التّساوي والتّشابه بين الناس دليل على العدل، ولا الاختلاف والتباين بالضرورة مساوق للظّلم والجور. نعم، إن اعتبرنا التشابه بين الكائنات عدلاً سيجرّنا إلى القول بأنّ كلّ شكل من أشكال الاختلاف والتّباين ناشئ من الظُّلم وعدم العدل. ثمّ إنّ الاختلافات الموجودة بين المخلوقات في هذا العالم لا تعدّ منشأ للخير والشرّ بقدر ما تدلّ على جميل صنع

الباري -سبحانه وتعالى- وحسن تدبيره وإتقان عمله؛ حيث إنّها تمثّل سرّ الانسجام الكبير والتناسق الدقيق والنظام المتقن في هذا العالم. كما أنّ هذه الاختلافات جعلت ظروف كلّ واحد من المخلوقات مضافاً إلى احتياجاته الجسديّة والروحيّة مختلفة عن الآخرين، وأدّت إلى أن يضطلع كلّ موجود بدور مغاير لأدوار الآخرين.

فعلى سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى الفوارق الجسديّة والنفسيّة الموجودة بين الرجل والمرأة؛ حيث أسفرت تلك الاختلافات الجوهريّة بين الجنسين عن قيام كلٍّ منهما بدور المكمّل في تشكيل الأسرة، فيأخذ الرجل على عاتقه دور الأب وأداء المسؤوليّات التي تحتاج إلى القوّة والصّلابة، في حين تؤدّي المرأة دور الأمّ الذي يحتاج إلى الرقّة وتنجز وظائف الأمومة ابتداءً من مرحلة الحمل والوضع والإرضاع. ومن النّاحية النفسيّة، تُعدّ المرأة موجوداً مليئاً بالأحاسيس والعواطف الضروريّة لتحمّل مصاعب فترة الحمل والوضع والاهتمام بالطفل ما بعد الولادة، بينما يتكفّل الأب بالأعمال التي تتطلّب التدبير والحزم.

ومن الواضح أنّ هذه الاختلافات ليست من الظلم في شيءٍ؛ بل هي العدل عينُه؛ لأنّ الظلم إنّما يتحقّق حينما لا يستطيع كلّ واحد من الرجل والمرأة الحصول على مبتغياته واحتياجاته المتناسبة مع وضعه الجسديّ والنّفسيّ؛ وبالتالي، تُسلب منه الأرضيّة المناسبة لبلوغ الكمال المنشود[1].

بناءً على ذلك، يمكن دراسة قلّة إعطاء النِّعم وزيادتها من جهتين:

الجهة الأولى: لماذا منح الله بعض الناس ذكاءً خارقاً ومنح الآخرين ذكاءً محدوداً؟ أو لماذا وسّع الرّزق على بعض وابتلى آخرين بضيق ذات اليد وقلّة الرزق؟

(1) مطهّري، مجموعة آثار، ج19؛ نظام حقوق زن در اسلام (نظام حقوق المرأة في الإسلام)، ص127 فصاعداً؛ سبحاني، الشيخ محمد تقي، شخصيّة المرأة - دراسة في الأنموذج الحضاريّ الإسلاميّ، المترجم: علي بيضون وشاكر كسراني، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - سلسلة الدراسات الحضاريّة، 2009م، ط1، ص177.

الجواب عن ذلك أنّ مرجع جميع هذه الاختلافات إلى الحكمة الإلهيّة التي تصبّ في مصلحة العباد، وأنّ عقولنا قاصرة عن بلوغ الحكمة من التباين وكشف أسباب التغاير والوقوف على جميع أبعاده؛ لكن، ومن منطلق التجربة البشريّة والتعاليم السماويّة، يمكن الإشارة إلى النقاط التالية في هذا الخصوص:

1. إنّ الله -سبحانه وتعالى- يهدف من هذا التباين بين العباد، إلى دعوة كلّ واحد منهم إليه ومنحه الكمال والمعرفة للتقرّب إليه، فمن أُعطي سعة في الرزق يُدعى إلى الشكر والطاعة، وفي الوقت نفسه يحذَّر من الكِبَر والغرور المؤدّي إلى سقوط الإنسان في المهالك. ومن قُتّر عليه رزقه ولم يحصل إلّا على قليل من الأموال يُدعى إلى الابتهال والطلب وبذل مزيد من الجهود التي توفّر أرضيّة للكمالات العليا، والبُعد عن الوقوع في الرذائل والانحطاط الروحيّ[1].

2. إذا حاز كلّ واحد من البشر على جميع الإمكانيّات بالقدر نفسه، فعندها لن يستقيم النّظام الاجتماعيّ؛ لأنّ المجتمع الإنسانيّ قائم على تقسيم الوظائف والمسؤوليّات والاستفادة من قابليّات جميع الأفراد. قال -سبحانه وتعالى- في هذا الخصوص: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

إنّ هذه النقطة التي سُمّيت «مبدأ الاستخدام المتبادل» لا تتحقّق إلّا حينما يفتقر الأشخاص إلى بعض الكمالات ويُحرزون بعضها الآخر؛ ليحتاجوا إلى الآخرين في ما هم مفتقرون إليه ويعزّزوا التّواصل بينهم.

(1) انظر: الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص8.
(2) سورة الزخرف، الآية 32.

الجهة الثانية: ألا يعدّ نقص الكمالات لدى بعض الناس ظلماً لهم؟

لا يعدّ هذا النقص ظلماً لهؤلاء الأفراد إلّا إذا تمّ تكليفهم بقدر أصحاب الطاقات وبما لا يطيقون، وإلّا فإن كُلّف الشخص بقدر وُسعه وبما يُطيق وبمقدار ما أُعطي من كمالات، فلا يكون تكليفه حينئذٍ ظلماً.

قال -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم في هذا الصدد: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[2].

* المعوّقون والمتخلّفون عقليّاً

يولد بعض الناس مُعوَّقين أو متخلّفين عقليّاً، وهنا يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: لماذا يجب أن يكون هؤلاء الأفراد معاقين أو متخلّفين عقليّاً ومن المسؤول عن ذلك؟

للردّ على هذا السؤال، بدايةً لا بدّ من الإشارة إلى مقدّمتين:

1. أطلق الباري -سبحانه وتعالى- على نفسه اسم «أحسن الخالقين» وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم، سواء أكان ذلك على المستوى الجسديّ أَمْ الروحيّ، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3].

ليس على صعيد الإنسان وحسب؛ بل لا خلل أو نقص في الخلق الإلهيّ عموماً: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[4].

وبالنّظر إلى عظمة عالم الكون، نجد أنّ كلّ ما فيه معبّرٌ عن دقّة الله في صنعه وقمّة الانسجام والخضوع لقوانين مدروسة وعمليّات محسوبة.

(1) سورة البقرة، الآية 286.
(2) سورة الطلاق، الآية 7.
(3) سورة التين، الآية 4.
(4) سورة الملك، الآية 3.

2. إنّ الله -سبحانه وتعالى- خلق الإنسان مختاراً وحرّاً في حياته، فوضع أمامه سبيل الخير والشرّ، وأمره بالخير ونهاه عن الشرّ؛ وعندئذٍ بوسعه اختيار سبيل الخير بمحض إرادته واختياره ليسير في طريق الحقّ والعدل ولا يسبّب الضرر لأحد، كما أنَّ هذا الإنسان المختار -نفسه- قادر على معصية الأمر الإلهيّ وارتكاب أعمال تسبّب له ولغيره أضراراً بليغة في بعض الأحيان.

وفي ضوء هاتين المقدّمتين، يمكن الخلوص إلى أنّ أيّ فساد وخلل ونقص موجود في هذا العالم يعود إلى عوامل مختلفة، منها الإنسان وأعماله بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ ولذا قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾[1].

ويمكن مشاهدة هذه الحقيقة في الجوانب المختلفة من الحياة الفرديّة والاجتماعيّة للناس، ومنها أنّ عدم رعاية العوامل الصحّيّة الجسديّة والروحيّة في الحياة الزوجيّة، خصوصاً في مراحل التكاثر والإنجاب، يعدّ عاملاً مهمّاً جدّاً ومؤثّراً في نشوء الإعاقة والتخلّف العقليّ. وعليه، فإنّ إلقاء نظرة سريعة على آداب النكاح في الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام يكشف لنا عن وصايا صحّيّة وأخلاقيّة للزوجين بشأن موضوعات النكاح، ولا ريب في أنّ مراعاة تلك الوصايا من الأسباب التي تضمن ولادة أطفال سالمين، وفي المقابل فإنّ عدم رعايتها قد يؤدّي إلى إصابتهم بأنواع مختلفة من النقص والتخلّف.

وعلى هذا الأساس، فإنّ المسؤول عن ولادة أطفالٍ ناقصين ومعوّقين أحياناً هو الوالدان نفسهما؛ حيث ينجم عن إهمالهما وتساهلهما في تطبيق بعض التوصيات إصابة أبنائهم ببعض أشكال الإعاقة والتخلّف الجسديّ والذهنيّ، وهو ما يضع على عاتقهم مسؤوليّة ذلك. ولا بدّ من الالتفات إلى وجود عوامل أخرى يمكن أن تكون مؤثّرة في سلامة الأطفال، أبرزها الأجيال السابقة والأشخاص المحيطون

(1) سورة الروم، الآية 41.

والأطبّاء والمسؤولون الحكوميّون، والبيئة بما تمثّل من هواء نستنشقه، وطعام نأكله، وماء نشربه... وعلى أيّ حال، لا ظلم لأيّ طفل من الله -سبحانه وتعالى- في هذا المجال.

وتبقى نقطة أخرى في هذا المضمار، وهي أنّه ما ذنب الشّخص الذي يولد ناقصاً أو متخلّفاً عقليّاً بسبب تساهل الأبوين أو غيرهما في المثال المتقدّم؟ وفي مقام الردّ يجب القول: لو أسفر تهوّر سائق إحدى الحافلات عن إصابة بعض المسافرين، هل يُسأل حينئذ: ما ذنب هؤلاء المصابين؟ أو يُردّ عليه بأنّ السائق هو المقصّر ويجب عليه تحمّل المسوؤليّة ودفع الخسائر؟

وعلى مستوى أوسع من ذلك وبصورة عامّة، المسؤولون عن النّواقص في خلق الله طيلة التاريخ والذين عزا لهم الباري -سبحانه وتعالى- ظهور الفساد في البرّ والبحر هم الناس المرتكبون للأفعال القبيحة، فهؤلاء يحاسَبون في محكمة العدل الإلهيّ وينالون جزاءهم العادل، وعلى هذا الأساس يحصل المتضرّرون على حقوقهم المشروعة أيضاً.

❋ الحكمة من خلق الكافرين

لماذا خلق الله الكافرين؟ وما الفائدة من خلق من تكون عاقبته الكفر والعذاب في جهنّم؟ وهل هذا العمل متناسب مع العدل والحكمة الإلهيّة؟

نقول ردّاً على هذا السؤال: إنّ الله -سبحانه وتعالى- لا يخلق شخصاً كافراً؛ بل الكفر نتيجة لسوء اختيار الإنسان نفسه وحصيلة لأعماله القبيحة. بعبارة أخرى: من يُطلَق عليه كافر هو من يختار إنكار الحقّ ومعصية الله مقابل الانصياع للحقّ وطاعة الله. ومن هذا المنطلق، ردّ الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام على من سأله: من خلقه الله كافراً أيستطيع الإيمان؟ وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟ فقال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ جَمِيعَاً مُسْلِمِينَ، أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ، وَالْكُفْرُ اسْمٌ يَلْحَقُ الْفِعْلَ**

حينَ يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ الْعَبْدَ حينَ خَلَقَهُ كَافِرًا، إِنَّهُ إِنَّمَا كَفَرَ مِنْ بَعْدِ أَنْ بَلَغَ وَقْتًا لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ مِنَ اللهِ فَعَرَضَ عَلَيْهِ الْحَقَّ فَجَحَدَهُ، فَبِإِنْكَارِهِ الْحَقَّ صَارَ كَافِرًا»[1].

بناءً على ذلك، إن سار شخص في طريق إنكار الحقّ وانتهج سبيل المعصية، فلا بدّ من أن يتحمّل نتائج عمله ويقبل بالعواقب المترتّبة على ذلك، ولئن عوقب على ما فعله فالعقاب متناسب مع العدل والحكمة الإلهيّة.

وإكمالاً لهذا البحث، يجب طرح هذا السؤال الأساسيّ: صحيح أنّ خلق الكافرين ليس بظلم؛ لأنّهم اختاروا الكفر بمحض إرادتهم، لكن ما الحكمة من خلق أناس يعلم الله -سبحانه وتعالى- أنّهم سيكفرون باختيارهم؟ أوَليس من الأفضل ألّا يُخلق هؤلاء من البداية لئلّا يواجهوا هذا المصير الأسود؟

يمكن القول ردّاً على هذا السؤال: لمّا ثبت في محلّه أنّ الله -سبحانه وتعالى- حكيم، ونعلم إجمالاً أنّه لا يصدر عنه إلّا الفعل الحكيم؛ فلا إشكال في جميع أفعاله حتّى لو لم نعلم الحكمة من بعضها، وعلى أيّ حال يمكن الإشارة إلى بعض الحِكَم الإلهيّة على النّحو الآتي:

1. إنّ الدّنيا موضعٌ لابتلاء العباد واختبارهم، فسَعيُ الإنسان في هذه الدنيا هو الذي يحدّد مصيره، والكُفّار إنّما يصبحون كفّاراً نتيجة هذه الاختبارات، ولولا ذلك كان من حقّهم أن يتساءلوا: لماذا حُكم علينا بالكفر دون توفير الأرضيّة اللّازمة للاختبار؟ وعلى هذا الأساس، لم يكتفِ الله -سبحانه وتعالى- بعلمه في هذا المجال؛ بل مهّد الأرضيّة أمام الجميع ليتسنّى لكلّ شخص رؤية نتائج أعماله بصورة عمليّة.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج2، ص341.

2. يتهلّل كلّ إنسانٍ فرحاً بامتلاكه كمالاتٍ مختلفة، ولا يخفى أنّه يبتهج بكمال الحياة أكثر من سائر الكمالات الأخرى، ولا يشكّل الكُفّار استثناءً من هذه القاعدة؛ حيث يدخلهم السرور بوجود هذا الكمال أيضاً؛ ففي الوقت الذي ينكرون الحقّ -سبحانه وتعالى- ويعصون أوامره ونواهيه، ويعلمون أنّ هذا العصيان يوجب عليهم العقاب الإلهيّ، لا يرغبون بالتّفريط بكمال الحياة لا في الدّنيا ولا في الآخرة لما فيه من لذّة وبهجة. ولمّا كانت رحمة الله -سبحانه وتعالى- شاملة لكلّ شيءٍ، وحيث إنّ رحمته تسبق غضبه، لم يحرم الكافرين من كمال الحياة في الدّنيا والآخرة، على الرّغم من علمه أنّهم عصاةٌ وسائرون في طريق العناد واللَّجاج.

3. إنّ الدنيا دار الامتحان والابتلاء الإلهيّ؛ حيث يبتلي الله -سبحانه وتعالى- المؤمنين بطرق مختلفة؛ ليرفع درجة المخلصين من جهة وليميّز الكذّابين ودعاة الإخلاص المزيَّفين من جهة ثانية. وبهذا يتبيّن أنّ وجود الكافرين يمثّل أحد طرق اختبار المؤمنين وابتلائهم؛ إذ يكتسب المؤمنون القدرة على الامتحان الإلهيّ وتتوفّر أمامهم الفرصة المناسبة للتكامل من خلال المواجهة مع الكافرين.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ كثيرين عمدوا إلى إطلاق شبهات حول الفوارق والاختلافات الموجودة في حياة الإنسان ومدى ارتباطها بالعدل الإلهيّ.
- لا التساوي والتشابه بين الناس دليل على العدل، ولا الاختلاف والتباين بالضرورة مساوق للظلم والجور.
- إنّ الاختلافات الموجودة بين المخلوقات في هذا العالم تدلّ على جميل صنع الباري -سبحانه وتعالى- وحسن تدبيره وإتقان عمله؛ حيث إنّها تمثّل سرّ الانسجام الكبير والتناسق الدقيق والنظام المتقن في هذا العالم.
- إذا حاز كلّ واحد من البشر على جميع الإمكانيّات وبالقدر نفسه، فلن يستقيم النظام الاجتماعيّ؛ لأنّ المجتمع الإنسانيّ قائم على تقسيم الوظائف والمسؤوليّات والاستفادة من قابليّات جميع الأفراد.
- إنّ أيّ فساد وخلل ونقص موجود في هذا العالم يعود إلى عوامل مختلفة، منها الإنسان وأعماله بصورة مباشرة أو غير مباشرة؛ ولذا قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾.
- المسؤول عن ولادة أطفالٍ ناقصين ومعوّقين أحياناً هو الوالدان أنفسُهما؛ حيث ينجم عن إهمالهما وتساهُلهما في تطبيق بعض التوصيات إصابة أبنائهما ببعض أشكال الإعاقة والتخلّف الجسديّ والذهنيّ.
- إن سار شخص في طريق إنكار الحقّ وانتهج سبيل المعصية، فلا بدّ من أن يتحمّل نتائج عمله ويقبل بالعواقب المترتّبة على ذلك، ولئن عوقب على ما فعله، فالعقاب متناسب مع العدل والحكمة الإلهيّة.

الأسئلة

1. بأيّ صفة من صفات الباري -سبحانه وتعالى- يمكن بيان الاختلافات لدى المخلوقات؟
2. كيف تَردّ على التمييز في إعطاء الكمالات وتَفَوُّقِ بعض الناس على بعضهم الآخر في الكمالات الذاتيّة؟
3. كيف يمكن توجيه خلق بعض الأشخاص معاقين ومتخلّفين؟ وكيف يتناسب ذلك مع العدل الإلهيّ؟
4. ما الحكمة من خلق أناس يعلم الله -سبحانه وتعالى- أنّهم سيكفرون باختيارهم؟ أوَليس من الأفضل ألّا يخلق هؤلاء من البداية؟
5. من جملة حِكَم الله -سبحانه وتعالى- هو اختيار العباد وابتلاؤهُم، اشرح ذلك.

الدرس الثالث عشر



العدل الإلهيّ والعقاب الأخرويّ

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح معنى الجزاء والخلود.
2. يلخّص التناسب بين الذنب والخلود في ضوء العدل الإلهيّ.
3. يتعرّف أنّ لله -تعالى- أن يصفح عن العصاة ويخفّف عن بعضهم لرحمته الواسعة.



❋ تمهيد

أجبنا إلى الآن عن بعض الشبهات والغموض بشأن العدل الإلهيّ، ومن تلكم الشبهات العقاب الأخرويّ، وعلى وجه التحديد خلود الإنسان في النار؛ حيث يبدو أنّ العدل الإلهيّ لا يتناسب مع العذاب الأبديّ للإنسان، وهذا الدرس بصدد الردّ على هذه الشبهة.

بما أنّ مدّة ارتكاب الذنب في الحياة الدنيا محدودة، فقد يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: لمَ ينبغي للإنسان الذي يرتكب ذنباً صغيراً ومحدوداً أن يعاقَب بعقوبة غير محدودة ومؤلمة جدّاً؟ ألا يعدّ هذا ظلماً للعباد؟

وللردّ على هذا السؤال، يجب أوّلاً بيان معنى الجزاء والخلود وتأثيرهما في التعاليم الدينيّة.

❋ مفهوم الجزاء والخلود

معنى «الجزاء» لغةً هو المكافأة على الشيء بالإحسان والإساءة[1]. و«الخلود» دوام البقاء في دار لا يخرج منها، وإنّما سُمّيت الجنّة «دار الخُلد» لبقاء أهلها فيها وعدم خروجهم منها إلى الأبد، وكذا أطلق على الآخرة «دار الخُلد» لبقاء أهلها من المؤمنين والكافرين فيها أيضاً[2].

(1) انظر: الفراهيديّ، كتاب العين، مصدر سابق، ج6، ص164؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص143.
(2) انظر: الفراهيديّ، كتاب العين، مصدر سابق، ج4، ص231؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص164.

وتؤكّد التعاليم الدينيّة على أنّ جزاء المؤمنين الصالحين والمحسنين في الآخرة هو الخلود في الجنّة التي تحوي ما لا يعدّ ولا يُحصى من النِّعم الإلهيّة. وفي المقابل، فإنّ جزاء الكافرين والمُذنبين متوقّف على مقدار ما يرتكبونه من الذنوب والمعاصي، فكلّما كان الذنب كبيراً كانت عقوبته أشدّ، إلى درجة أنّ بعضهم مخلّدون في نار جهنّم، فخلود طائفة من الكافرين والعصاة في جهنّم من العقائد الإسلاميّة المسلّمة والمستندة إلى القرآن الكريم؛ حيث قال (جلّ وعلا) في محكم كتابه الكريم: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، وبشأن الكافرين قال (سبحانه): ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

وعليه، فإنّ مصير من يصدفون عن الهداية الإلهيّة، ويعصون الله، ويرفضون الانصياع والتسليم إلى قدرته، ويصرّون على الكفر والشّرك، ويثيرون في الأرض الفساد، ولا يتورّعون عن ظلم العباد، هو الخلود في نار جهنّم.

❋ تناسب الذّنب مع الخلود في ضوء العدل الإلهيّ

وبالعودة إلى السؤال الآنف: لِمَ ينبغي للإنسان الذي يرتكب ذنباً صغيراً ومحدوداً أن يعاقَب بعقوبة غير محدودة ومؤلمة جدّاً؟ نقول: يمكن لنا، في مقام الجواب، الإشارة إلى النقاط الآتية:

1. **عدم قدرة العقل على إدراك أبعاد تأثير المعصية:** فكلّ معصية يقترفها الإنسان تثير موجة من التأثيرات المختلفة كما هو حال الحجر الذي يلقى في بركة من الماء؛ حيث تعتمد أبعاد هذه الموجة على حجم المعصية ومدى

(1) سورة البقرة، الآية 81.
(2) السورة نفسها، الآية 257.

صغرها أو كبرها. ولا يخفى أنّه يتعذّر إدراك جميع أبعاد تأثير المعصية على الشخص العاصي وغيره ممّن تعرّض إلى الأضرار النّاجمة عنها؛ لأنّ حدودها خارجة عن دائرة العقل البشريّ.

ولعلّ التخلّفات المروريّة خير مثال في هذا المجال، فالسّائق المرتكب للمخالفة والمخالف لقوانين المرور لا يسبّب الضرر لنفسه فقط؛ وإنّما يعرّض الآخرين إلى المخاطر أيضاً، كما يتعذّر إحصاء حجم الخسائر الناجمة عن التخلّف المروريّ، فقد يسفر عنها موت أسرة بريئة وتأثّر عدد كبير من أقربائها وأصدقائها وجيرانها وبروز مشاكل عويصة ومستعصية، بحيث تبقى الأجيال المستقبليّة تعاني من تداعياتها أيضاً.

وهذا الكلام يجري في ارتكاب المعصية وعدم الالتزام بالأوامر الإلهيّة أيضاً، فمن الممكن أن تكون للمعصية المحدودة ظاهراً تبعات كبيرة وعواقب وخيمة لا يتمكّن العقل من إدراك عمقها ومرارتها؛ ولكن لمّا كان الله -سبحانه وتعالى- عالماً بعواقب الأمور فقد حذّر العباد من مغبّة اقترافها.

قال الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام في هذا الخصوص، مخاطباً الله (جلّ وعلا): «**وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ وَاحِداً مِنْ ذُنُوبِي يُوجِبُ لِي أَلِيمَ عَذَابِكَ، وَيَحِلُّ بِي شَدِيدُ عِقَابِكَ**»[1].

وعلى هذا الأساس، ليس ببعيد أن يتسبّب عمل صغير بآثار مدمّرة وتداعيات خطيرة لطائفة واسعة من الناس، وقد يؤدّي إلى تدمير إمكانات هائلة يصعب إحصاؤها.

2. **تناسب العقوبة مع عظمة من يُعصى:** تارةً يكون جزاء الجريمة المرتكبة متناسباً مع عِظَم الجريمة نفسها، وتارةً يتناسب -فضلاً عن ذلك- مع عظمة

(1) الصحيفة السجّاديّة، الدعاء 21.

الشخص الذي يُعصى. فعلى سبيل المثال، تختلف عقوبة الشخص الذي يلطم وجه إنسان عاديّ دون سبب وجيه عن عقوبة من يوجّه اللّطمة نفسها إلى شخص وجيه ذي مقام؛ حيث تشتدّ العقوبة كلّما كان منصب ذلك الشخص أرفع. بعبارة أخرى: العقوبة تتأثّر بوجود آثار قانونيّة للشخصيّة الاعتباريّة للفرد فضلاً عن شخصيّته الحقيقيّة.

وليس بخفيّ أنّ الله -سبحانه وتعالى- ذو عظمة لا حدّ لها وتفوق الوصف، وأكبر من حدّ التصوّر؛ لذا فإنّ من يعصي الله (جلّ وعلا) ينتهك أوامر صاحب العظمة غير القابلة للتصوّر، ولا بدّ من أن تكون عقوبة هذا الشخص مناسبة لعظمة الله ومقامه السامي، فإن كانت أبديّة وغير مُتناهية في الشدّة والأمد، فهي مناسبة لعدم تناهي عظمة الباري -سبحانه وتعالى- ومقامه الأعلى، وليست مخالفة للعدل الإلهيّ أبداً. ومنه يتّضح أنّه لو أراد الله تخليد عبد من عباده في العذاب الأليم لأنّه ارتكب معصية الجرأة على مقام بارئه وكان هاتكاً لعظمته، لا يكون ظالماً له ولا متعدّياً على هذا العبد. من هنا، قال الإمام زين العابدين عليه السلام مخاطباً الله -سبحانه وتعالى-: «**فَأَمَّا الْعَاصِي أَمْرَكَ وَالْمُوَاقِعُ نَهْيَكَ... لَقَدْ كَانَ يَسْتَحِقُّ فِي أَوَّلِ مَا هَمَّ بِعِصْيَانِكَ كُلَّ مَا أَعْدَدْتَ لِجَمِيعِ خَلْقِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ**»[1].

وقال عليه السلام في موضع آخر، خلال مناجاته ربّه: «**إِلَهَنَا وَسَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا! لَوْ بَكَيْنَا حَتَّى تَسْقُطَ أَشْفَارُنَا، وَانْتَحَبْنَا حَتَّى تَنْقَطِعَ أَصْوَاتُنَا، وَقُمْنَا حَتَّى تَيْبَسَ أَقْدَامُنَا، وَرَكَعْنَا حَتَّى تَتَخَلَّعَ أَوْصَالُنَا، وَسَجَدْنَا حَتَّى تَتَفَقَّأَ أَحْدَاقُنَا... مَا اسْتَوْجَبْنَا بِذَلِكَ مَحْوَ سَيِّئَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِنَا**»[2].

(1) الصحيفة السجّاديّة، الدعاء رقم 29.

(2) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج91، ص138.

نعم، من جملة الحِكَم الدّاعية إلى تشريع عقوبة خالدة للمذنبين والعصاة، هو التأكيد على الآثار الخفيّة لأعمالهم والتّشديد على عظمة مقام الباري -سبحانه وتعالى- وحقّ طاعته. من هنا، ورد في الأحاديث التحذير من الاستخفاف بالمعصية واستحقار الذّنوب، فقال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**اتَّقُوا الْمُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّهَا لَا تُغْفَرُ**»[1].

وقال أيضاً: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَا يَعْمَلْهَا فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ السَّيِّئَةَ فَيَرَاهُ الرَّبُّ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً**»[2].

3. **تناسب العقوبة مع نيّة المجرم:** معنى النيّة لغةً، هو الجهة التي يذهب فيها الإنسان بعدما يقصدها ويعتقدها[3]، ومعناها في ثقافة القرآن والأحاديث، القصد والإرادة القلبيّة للقيام بأيّ عمل. وعليه، فالنيّة القلبيّة لكلّ إنسان هي التي تحدّد حقيقة عمله. بعبارة أخرى: إنّ حقيقة أيّ عمل رهن بنيّة من يقوم به ويؤدّيه. قال -سبحانه وتعالى- في هذا الخصوص: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[4].

ورُوي في حديث عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**»[5].

ولمّا كان عمل الإنسان مرتبطاً بنيّته وبنيّة الكافرين والعاصين لله ارتكاب المعاصي وعدم الإيمان بالله أبداً ما بقوا في الحياة الدنيا، فالعقل يحكم باستحقاقهم العقوبة الأبديّة في الآخرة أيضاً. قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الصدد: «**إِنَّمَا خُلِّدَ أَهْلُ النار فيالنار؛ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِّدُوا فِيهَا**

(1) الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص287.
(2) المصدر نفسه، ص271.
(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص347.
(4) سورة الإسراء، الآية 84.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج4، ص84.

أَنْ يَعْصُوا اللهَ أَبَدَاً، وَإِنَّمَا خُلِّدَ أَهْلُ الْجَنَّة فِي الْجَنَّة لِأَنَّ نِيَّاتهمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُوا فِيْهَا أَنْ يُطِيعُوا اللهَ أَبَدَاً، فَبِالنِّيَّاتِ خُلِّدَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ -سبحانه وتعالى-: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾، قَالَ: «**عَلَى نِيَّتِه**»[1].

ويُستفاد من هذا الحديث الشريف أنّ «نيّة المعصية الأبديّة لله -سبحانه وتعالى-» مع ترجمتها العمليّة، ولو في مدّة محدودة من العمر، جريمة عقابها العذاب الأبديّ؛ لأنّ هذه المعصية في حدّ ذاتها معصية دائميّة وغير مقيّدة بزمان محدّد ولا مكان معيّن.

❋ الصّفح عن العُصاة

صحيح أنّ معصيةً واحدةً قد تجرّ صاحبها إلى الخلود في النار في بعض الأحيان، غير أنّ التعاليم الدينيّة الواردة في المصادر الإسلاميّة تفيد أنّ الله -سبحانه وتعالى- يصفح عن كثير من المعاصي والذنوب، ولا يخلّد في النار والعذاب الإلهيّ إلّا الكافرون والمشركون وأعداء الله، وأمّا المؤمنون فمنهم من يُعفى عن ذنوبهم، ومنهم من يُعاقَب في دار الدنيا، ومنهم من يعاقَب في البرزخ. نعم، قد يُعاقب بعض المؤمنين في الآخرة أيضاً، لكنّهم سوف يدخلون الجنّة في نهاية المطاف.

قال الباري (عزَّ وجلَّ) في هذا المجال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[2].

وقال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام معقّباً على هذه الآية الشّريفة: «**مَا يَعْفُو اللهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِه**»[3].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص85.
(2) سورة الشورى، الآية 30.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص269.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في شرح الآية المذكورة: «**مَنْ عَجَّلَ اللهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) أَجَلُّ وَأَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الْآخِرَةِ**»[1].

* تخفيف العذاب عن المخلّدين في النار

على الرغم من أنّ الله -سبحانه وتعالى- وعد بعض أهل النار بالخلود في العذاب الأخرويّ، بيد أنّ رحمته الواسعة قد تشمل أفرادًا منهم، فقد ورد في بعض الروايات أنّه كان في بني إسرائيل مؤمنٌ وكان له جارٌ كافرٌ، فكان الكافر يرفق بالمؤمن ويولّيه المعروف في الدنيا، فلمّا أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النار من طين، وكان يقيه حرّها[2]. وفي رواية أخرى أنّ مؤمناً كان في مملكة جبّار، فأزعجه ولاحقه، فهرب منه إلى دار الشرك ونزل عند رجل من المُشركين، فأظلّه وأرفقه وأضافه، فلمّا حضر الموت المشرك أوحى الله (عزّ وجلّ) إليه: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَوْ كَانَ لَكَ فِي جَنَّتِي مَسْكَنٌ لَأَسْكَنْتُكَ فِيهَا، وَلَكِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى مَنْ مَاتَ بِي مُشْرِكًا، وَلَكِنْ يَا نَارُ! هِيدِيهِ وَلَا تُؤْذِيهِ**»[3].

من هنا، فإنّ الله -سبحانه وتعالى- يخفّف بلطفه وكرمه العذاب عن بعض مستحقّيه ويحميهم من حرارة النار الحامية، أو يقلّل من آلامهم ومعاناتهم، وإن كان قد خلقها لأجل عذاب الناس العاصين. نعم، لا يرفع الله (سبحانه) العذاب عن جميع أهل النار، لكنّ عذاب جهنّم ليس متساوياً بالنسبة إلى الجميع؛ لأنّهم على درجات مختلفة، وكذا عذابهم له درجات متباينة أيضاً.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص445.
(2) الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج16، ص289.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص188.

- تؤكّد التعاليم الدينيّة على أنّ جزاء المؤمنين الصّالحين والمحسنين في الآخرة هو الخلود في الجنّة. وفي المقابل، فإنّ جزاء الكافرين والمُذنبين متوقّف على مقدار ما يرتكبونه من الذنوب والمعاصي.
- من الممكن أن تكون للمعصية المحدودة ظاهراً تبعات كبيرة وعواقب وخيمة لا يتمكّن العقل من إدراك عمقها ومرارتها؛ ولكن لمّا كان الله -سبحانه وتعالى- عالماً بعواقب الأمور، فقد حذّر العباد من مغبّة اقترافها.
- تارةً يكون جزاء الجريمة المرتكبة متناسباً مع عِظَم الجريمة نفسها، وتارةً يتناسب -فضلاً عن ذلك- مع عظمة الشخص الذي يُعصَى.
- لو أراد الله تخليد عبد من عباده في العذاب الأليم لأنّه ارتكب معصية الجرأة على مقام بارئه وكان هاتكاً لعظمته، لا يكون ظالماً له ولا متعدّياً على هذا العبد.
- لمّا كان عمل الإنسان مرتبطاً بنيّته، ونيّة الكافرين والعاصين لله ارتكاب المعاصي وعدم الإيمان بالله أبداً ما بقُوا في الحياة الدنيا، فالعقل يحكم باستحقاقهم العقوبة الأبديّة في الآخرة أيضاً.
- التعاليم الدينيّة تفيد أنّ الله -سبحانه وتعالى- يصفح عن كثير من المعاصي والذّنوب، ولا يخلّد في النار والعذاب الإلهيّ إلّا الكافرون والمشركون وأعداء الله، وأمّا المؤمنون فمنهم من يُعفى عن ذنوبهم، ومنهم من يُعاقَب في الدّنيا، ومنهم من يعاقَب في البرزخ. نعم، قد يُعاقب بعض المؤمنين في الآخرة أيضاً، لكنّهم سوف يدخلون الجنّة في نهاية المطاف.

الأسئلة

1. ما المعنى اللغويّ للجزاء والخلود؟ ولماذا يُطلَق على الجنّة والنار «دار الخُلد»؟

2. من أسباب تناسب الخطأ مع الخلود في النار وعدم منافاته للعدل الإلهيّ، عدم قدرة العقل على إدراك جميع أبعاد المعصية. اشرح ذلك.

3. كيف تتناسب نيّة المجرم مع جزاء الجريمة؟ اشرح ذلك مع ذكر مثال.

4. إلامَ يشير الحديث القائل: «**مَا يَعْفُو اللهُ أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِهِ**»؟

5. كيف تتأثّر العقوبة من وجود آثار قانونيّة للشخصيّة الاعتباريّة؟ بيّن ذلك بالأمثلة والشواهد القانونيّة الحديثة.

الباب الرابع

النبوّة

الدرس الرابع عشر

النبوّة تعريفها، فوائدها ودليل الحاجة إليها

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يوضّح معنى «النبيّ» و«الرسول» والفرق بينهما.
2. يفصّل مسألة درجات الأنبياء والرسل.
3. يعرف حاجة الناس إلى النبوّة.

* تمهيد

إنّ مراجعة تاريخ الحياة البشريّة يكشف عن وجود مجموعة من الأفراد أعلنوا أنّهم أنبياء ورسل مبعوثين من الله إلى الناس بهدف تبليغهم التعاليم السماويّة وتعليمهم الأوامر الدينيّة. وفي مقابل هذه الدعوات، ثمّة من آمن بها وصدّق المُرسلين واستفاد من تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم، وثمّة من أنكرها وكذّبها. ومن هذا المنطلق، تأسّس بحث إلى جانب باقي الأصول والأركان العقديّة تحت عنوان «النبوّة» يحظى باهتمام كبير ويحتاج إلى دراسة موسَّعة.

* مفهوم النبيّ والرسول

كلمة «النبيّ» إمّا أن تكون من «النبأ» بمعنى الخبر[1]، وإمّا من «النباوة» أي الارتفاع والشرف[2]. ففي الصورة الأولى يكون معنى النبيّ هو المُخبِر أو المُخبَر أو حامل الخبر، وفي الصورة الثانية يكون معناه الرفيع ومعنى النبوّة الرفعة وعلوّ المرتبة[3].

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص162؛ الفراهيديّ، كتاب العين، ج8، ص382.
(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص163، ج15، ص302.
(3) انظر: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص114.

وعلى هذا الأساس، فالنبيّ هو من يُنبّئه الله أو من يأتي بالأنباء عن الله والمُخبر عنه[1]، وهو أشرف من سائر الخلق وأرفعهم درجةً[2].

أمّا الرسول فهو، لغةً، بمعنى المُرسَل، والإرسال يعني التوجيه[3]، والمُرسَل يقال لمن أُرسل في أمرٍ ما[4]، وقد يكون هذا الأمر إيصال رسالة أو أداء شيء آخر[5].

وبحسب الاصطلاح، الرّسول هو المبعوث من الله -سبحانه وتعالى- والمُرسَل إلى الناس لإبلاغ الرسالة الإلهيّة وتطبيق الأحكام السماويّة؛ وبهذا فإنّ المعنى الاصطلاحيّ للرسالة ينطوي على التعليم والتربية والإدارة أيضاً[6].

* الفرق بين النبيّ والرّسول

يدلّ الكلام القرآنيّ على وجود فارق بين مُفردتي النبيّ والرسول بحسب الظاهر؛ حيث قال الباري -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا﴾[7].

فالعطف بين هاتين الكلمتين في الآية المُتقدّمة يكشف عن وجود اختلاف بين مقام النبوّة والرسالة، وقد أُشير إلى هذا الاختلاف في الروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً، فروي: «عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَقُلْتُ: كَمِ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: **ثَلَاثُ مِئَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ جَمّاً غَفِيراً**»[8].

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص162-163؛ الفراهيديّ، كتاب العين، ج8، ص382.

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص302؛ الطريحيّ، مجمع البحرين، ج1، ص405؛ الزبيديّ، تاج العروس، ج20، ص213.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص283.

(4) الطريحي، الشيخ فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيّد أحمد الحسينيّ، نشر مرتضوي، لا.م، 1362ش، ط2، ج5، ص384.

(5) الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، 2001م، ط1، ج12، ص272.

(6) انظر: السيوري، مقداد بن عبدالله، شرح الباب الحادي عشر للعلاّمة الحلي، مقدمة وتحقيق: دكتور مهدي محقق، مؤسسة آستان قدس رضوي، مشهد - إيران، 1368هـ.ش، لا.ط، ص35.

(7) سورة الحجّ، الآية 52.

(8) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص333.

ومن هنا، لا بدّ من أن نرى ما النّسبة بين كلمتي النبيّ والرّسول وما الفارق بينهما؟ يمكن بحث هذا الموضوع من جوانب عدّة:

1. الرسالة مقامٌ أرفعُ من النبوّة يهبه الله -سبحانه وتعالى- لعبد من عباده بعد مقام النبوّة. وفي هذا السياق قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام حول كسب النبيّ إبراهيم عليه السلام هذا المقام الرفيع: «**إِنَّ اللهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيْمَ عليه السلام عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتْخِذَهُ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ نَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَتْخِذَهُ رَسُولاً**»[1].

وعليه، فلو تجسّد مقام الرسالة في أحد الأولياء الإلهيّين، فهذا يعني أنّه حصل على مقامٍ أرفع من مقام النبوّة.

2. يقع على عاتق الرسل الإلهيّين وظيفة أعظم من الوظيفة المُلقاة على عاتق الأنبياء الإلهيّين؛ ولذا يقوم الرّسول بجميع وظائف النبيّ ويختصّ ببعض الوظائف والمسؤوليّات لنفسه دون أن يشاركه فيها أحد من الأنبياء.

إلّا أنّ ثمّة اختلافاً بين الأنبياء أنفسهم من حيث الوظائف والمسؤوليّات المُناطة بهم أيضاً، فتقتصر مسؤوليّة بعض الأنبياء الإلهيّين على النبيّ نفسه، بمعنى أنّ الله -سبحانه وتعالى- يوحي له حقائق مُعيّنة وهو بدوره -وعلى المستوى الشخصيّ- يتحمّل بعض التكاليف تجاه تلك الحقائق؛ في حين لا تقتصر مسؤوليّة بعض الأنبياء الإلهيّين الآخرين على التكاليف الشخصيّة فحسب؛ بل يتعدّى الموضوع إلى تبليغ الأخرين والأمر بأداء الأوامر الإلهيّة أيضاً. وقد سأل شخصٌ الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام: أَكَانَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام حين تَكَلَّمَ في الْمَهْد حُجَّةَ الله عَلَى أَهْل زَمَانه؟ فَرَدَّ الإمَامُ قَائلاً: «**كَانَ يَوْمَئذ نَبيًّا حُجَّةَ الله غَيْرَ مُرْسَل، أَمَا تَسْمَعُ لقَوْله حينَ قَالَ: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾... وَكَانَ نَبيًّا حُجَّةً عَلَى مَنْ سَمعَ كَلَامَهُ في تلْكَ الْحَال، ثُمَّ صَمتَ فَلَمْ يَتَكَلَّم... فَلَمَّا بَلَغَ عيسَى عليه السلام سَبْعَ سنينَ تَكَلَّمَ بالنُّبُوَّة وَالرِّسَالَة**»[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص175.
(2) المصدر نفسه، ص382.

* درجات الأنبياء والرُّسل

يختلف الأنبياء والرُّسل في درجاتهم ومراتبهم عند الله (جلّ وعلا)، وهذا ما صرّحت به الآيات القرآنيّة؛ حيث قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1].

كما وردت روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام حول المقام السّامي لبعض الأنبياء الإلهيّين وعلوّ مرتبة خاتم الأنبياء والمُرسلين صلى الله عليه وآله وسلم مقارنةً مع جميع الأنبياء الآخرين، فروي عن الإمام أبي الحسن الرِّضا عليه السلام أنّه قال بشأن الأنبياء الخمسة من أولي العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (صلوات الله عليهم أجمعين): «**هُمْ أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ والرُّسُلِ**»[2].

على أنّ سائر الأنبياء الإلهيّين ليسوا على مرتبة واحدة؛ بل يختلف بعضهم عن بعضهم الآخر من جهات مختلفة كالمقام والمسؤوليّة وما شاكل[3].

* فوائد البعثة والدليل على الحاجة إلى النبوّة

ممّا تجدر الإشارة إليه أنَّ الموضوعات الواردة أدناه تمثّل فائدة البعثة من جهة وحاجة الإنسان إلى الدِّين الإلهيّ من جهة ثانية.

إنّ البشر بحاجة إلى الأنبياء الإلهيّين من جوانب عدّة، بيد أنّ هذه الحاجة تتجلّى في البعدين الآتيين أكثر من الأبعاد الأخرى:

1. حاجة الإنسان إلى المعارف العقديّة

ما إن يولد الإنسان ويضع قدميه على سطح الكُرة الأرضيّة ويرى نفسه والآخرين من حوله وينظر إلى السماء والأرض وما فيهما، حتّى يواجه مجموعة

(1) سورة الإسراء، الآية 55.
(2) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج2، ص80.
(3) انظر: سورة البقرة، الآية 253 والأحاديث التي وردت ذيلها.

من الأسئلة[1]، تشكّل الإجابة عنها الرّؤية الكونيّة لديه أو طبيعة رؤيته إلى الكون؛ وبالتالي، تبلور اتّجاهه الفكريّ والعمليّ في الحياة. من هنا، لا بدّ من توخّي الدقّة والصّواب في الأجوبة الأوّليّة عن تلك الأسئلة؛ لما لها من أهمّيّة فائقة في بلورة نواة أفكاره.

صحيح أنّ الإنسان تقدّم كثيرًا على صعيد العديد من العلوم العقليّة والتجريبيّة، وأنّه استطاع اكتشاف العديد من حقائق الكون التي حوله عن طريق تلك العلوم، إلّا أنّ تلك الأسئلة الأساسيّة التي ترتبط بمبدأ الوجود وغايته والطريق الموصل إلى الغاية، تعجز تلك العلوم عن الإجابة عنها، ولولا المعارف الدينيّة وتعاليم الأنبياء الإلهيّين لما تمكّن البشر بمفردهم -اعتمادًا على أفكارهم فقط- من خوض غمار تلك الأسئلة ومعرفة أجوبتها. وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته الأولى في «نهج البلاغة» بعضَ منجزات الأنبياء في مجال المعرفة والهداية، فقال: **«فَبَعَثَ فيهِمْ رُسُلَهُ وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ»**[2].

ويمكن أن نخلص من هذا البيان العَلَويّ إلى أنّه لولا قيام الأنبياء الإلهيّين بكشف الحقائق الرّبوبيّة للبشر، عبر صبرهم الكبير وجهادهم المرير، وتذكيرهم إيّاهم بجواهر النفوس وكمالها اللّامُتناهي، من خلال إيقاظ الفطرة وتحرير العقول من نير الأهواء والشّهوات، لأخفق الناس في بلوغ المعرفة الحقيقيّة ولظلّوا يتخبّطون في ظُلَم الجهل وأوهام الباطل.

2. حاجة الإنسان إلى القانون

يواجه الإنسان في حياته الفرديّة والاجتماعيّة، وفي تعامله مع نفسه ومع المجتمع ومع ربّه ومع الطبيعة التي يعيش فيها، قضايا مختلفة، تفرض عليه

(1) يمكن اختصار تلك الأسئلة في: من أين؟ وإلى أين؟ وفي أين؟ (الاعداد).
(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة 1، ص43.

سلوكات معيّنة لها تداعيات تعود عليه وعلى الآخرين أيضاً؛ ذلك أنّ الربح والخسارة وليدا أعمال الإنسان، ثمّ إنّ بعض الأفعال لا تترك تأثيراً واسعاً على البُعد الجسديّ للإنسان وحسب؛ بل لها تأثير كبير في بُعده الروحيّ أيضاً، فيبدأ هذا التأثير من الإنسان نفسه ثمّ ينتقل إلى المحيطين به، وبعد ذلك إلى المجتمع، وفي نهاية المطاف تتّسع رقعته ليشمل باقي المجتمعات أيضاً. وكلّما ازداد عدد الأفراد والمجتمعات المُتأثّرة بفعل الإنسان واختلفت أوضاعهم وارتفعت مكانتهم، ازدادت تلك التأثيرات تعقيداً واتّساعاً.

وفضلاً عن عنصر المكان، ثمّة أهمّيّة كبيرة لعنصر الزمان أيضاً في دراسة آثار أفعال البشر، فلا يخفى تأثير فعل من الأفعال في الأجيال المستقبليّة، وإن خَفيَ على الإنسان طبيعة التأثير الذي يتركه وسعته وشدّته وحدوده الزمنيّة، فكثيراً ما يكتنف الجهل بعض الموارد من قبيل روح الإنسان.

ثمّ إنّ الإنسان، وبكلّ ما أوتي من تجارب واختبارات على يد العلماء، عاجز عن تشخيص مصلحة الأفعال ومفسدتها في جميع المجالات والأبعاد المذكورة، ولا يستطيع إلّا الله (جلّ وعلا) تشخيص المصالح والمفاسد ووضع الأوامر والنواهي الكفيلة بسعادة البشر وصياغتها بشكل قوانين فرديّة واجتماعيّة.

من هنا، لمّا سُئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن سبب تحريم الله للخمر والمَيتة والدّم ولحم الخنزير، قال: «**... وَلَكِنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَعَلِمَ (عَزَّ وَجَلَّ) مَا تَقُومُ بِهِ أَبْدَانُهُمْ، وَمَا يُصْلِحُهُمْ فَأَحَلَّهُ لَهُمْ وَأَبَاحَهُ لَهُمْ، وَعَلِمَ مَا يَضُرُّهُمْ فَنَهَاهُمْ عَنْه**»[1].

وقال الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في هذا الصدد أيضاً: «**إِنَّا وَجَدْنَا كُلَّ مَا أَحَلَّ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فَفِيهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ وَبَقَاؤُهُمْ، وَلَهُمْ إِلَيْهِ الْحَاجَةُ الَّتِي لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهَا، وَوَجَدْنَا الْمُحَرَّمَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا حَاجَةَ بِالْعِبَادِ إِلَيْهِ، وَوَجَدْنَاهُ مُفْسِداً دَاعِياً (إلى) الْفَنَاءِ وَالْهَلَاكِ**»[2].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج6، ص242.

(2) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج2، ص592.

ويمكن الاستدلال على لزوم القوانين الإلهيّة من زاوية البُعد الاجتماعيّ أيضاً بالقول: إنّ الإنسان موجود اجتماعيّ، ولأجل تلبية احتياجاته وأموره المختلفة، لا بدّ له من العيش في المجتمع وتقسيم أعماله بين أعضاء ذلك المجتمع؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ بناء مجتمع سليم بحاجة إلى استتباب الأمن وإرساء النظام في ربوعه، ولا يتسنّى ذلك إلّا من خلال وضع قوانين دقيقة كفيلة بتأمين المسؤوليّات والحقوق لجميع الأفراد. وحيث إنّ القوانين البشريّة مستقاة من الرّؤية المحدودة للإنسان ومستمدّة من المصالح الشخصيّة والفئويّة، فهي غير قادرة على تلبية متطلّبات جميع شرائح المجتمع وتوفير احتياجاته؛ وبالتالي، إشاعة الاستقرار والثّقة بين أفراد المجتمع، وإنّما القوانين الإلهيّة هي الوحيدة القادرة على ضمان تحقيق السلام والأمن والانضباط بشكل حقيقيّ وجادّ.

إلى هنا، نكون قد استدللنا على ضرورة وجود القوانين الإلهيّة؛ لكن يبقى السؤال: كيف يمكن التوصّل إلى هذه القوانين؟

لا بدّ من الالتفات إلى أنّه ليس لأيّ فرد من أفراد البشر وسيلة لمدّ جسور الارتباط مع الله -سبحانه وتعالى- وتلقّي أوامره ونواهيه، بل إنّ الباري (جلّ وعلا) بعث الأنبياء والمرسلين في سبيل مساعدة البشر على استكشاف المصالح والمفاسد، ومن أجل تلبية هذه المتطلّبات والاحتياجات.

وفي هذا السياق، أشار الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام إلى حاجة البشر ولطف الباري -سبحانه وتعالى- قائلاً: «**لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ وَقُوَاهُمْ يَكْمُلُونَ لِمَصَالِحِهِمْ، وَكَانَ الصَّانِعُ مُتَعَالِياً عَنْ أَنْ يُرَى، وَكَانَ ضَعْفُهُمْ وَعَجْزُهُمْ عَنْ إِدْرَاكِهِ ظَاهِراً، لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ رَسُولٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَعْصُومٍ، يُؤَدِّي إِلَيْهِمْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَأَدَبَهُ، وَيَقِفُهُمْ عَلَى مَا يَكُونُ بِهِ إِحْرَازُ مَنَافِعِهِمْ وَدَفْعُ مَضَارِّهِمْ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي خَلْقِهِمْ مَا يَعْرِفُونَ بِهِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ مَنَافِعِهِمْ وَمَضَارِّهِمْ**»[1].

(1) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرِّضا عليه السلام، مصدر سابق، ج2، ص99.

بدوره، شدّد الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام على أنّ سبب حاجة الإنسان إلى الأنبياء الإلهيّين هو ضرورة معرفة المصالح والمفاسد، وقال: «**ثَبَتَ أَنَّ لَهُ سُفَرَاءَ فِي خَلْقِه يُعَبِّرُونَ عَنْهُ إِلَى خَلْقِه وَعِبَادِه، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى مَصَالِحِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ، وَمَا بِهِ بَقَاؤُهُمْ وَ فِي تَرْكِه فَنَاؤُهُم**»[1].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص168؛ الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص249.

المفاهيم الرئيسة

- كلمة «النبيّ» إمّا أن تكون من «النبأ» بمعنى الخبر ، وإمّا من «النباوة» أي الارتفاع والشرف. ففي الصورة الأولى يكون معنى النبيّ المُخبِر أو المُخبَر أو حامل الخبر، وفي الصورة الثانية يكون معناه الرفيع ومعنى النبوّة الرفعة وعلوّ المرتبة.
- أمّا الرسول لغةً: فهو بمعنى المُرسَل، والإرسال يعني التوجيه، والمُرسَل يقال لمن أُرسل في أمرٍ ما، وقد يكون هذا الأمر إيصال رسالة أو أداء شيء آخر.
- الرسالة مقامٌ أرفعُ من النبوّة يهبه الله -سبحانه وتعالى- لعبد من عباده بعد مقام النبوّة.
- يقع على عاتق الرسل الإلهيّين وظيفة أعظم من الوظيفة المُلقاة على عاتق الأنبياء الإلهيّين؛ ولذا يقوم الرّسول بجميع وظائف النبيّ ويختصّ ببعض الوظائف والمسؤوليّات لنفسه دون أن يشاركه فيها أحد من الأنبياء.
- الأسئلة الأساسيّة التي ترتبط بمبدأ الوجود وغايته والطريق الموصل إلى الغاية، تعجز العلوم البشريّة عن الإجابة عنها، ولولا المعارف الدينيّة وتعاليم الأنبياء الإلهيّين لما تمكّن البشر بمفردهم -إعتمادًا على أفكارهم فقط- من خوض غمار تلك الأسئلة ومعرفة أجوبتها.
- ليس لأيّ فرد من أفراد البشر وسيلة لمدّ جسور الارتباط مع الله -سبحانه وتعالى- وتلقّي أوامره ونواهيه؛ بل إنّ الباري (جلّ وعلا) بعث الأنبياء والمرسلين في سبيل مساعدة البشر على استكشاف المصالح والمفاسد ومن أجل تلبية هذه المتطلّبات والاحتياجات.

الأسئلة

1. بيّن الفرق بين النبيّ والرّسول من وجهة نظر الكتاب والسنّة.
2. هل يمكن أن تقتصر مسؤوليّة النبيّ على شخصه ولا تعدوه إلى الآخرين؟ بيّن كيف ذلك؟
3. لماذا يحتاج الإنسان إلى القوانين الإلهيّة ولا يمكن الاكتفاء بالقوانين البشريّة؟ اذكر دليلين على ذلك.

الدرس الخامس عشر

سبل معرفة الأنبياء

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى سبل معرفة النبوّة.
2. يشرح المعجزة وأنّها ممكنة عقليّاً وعلميّاً.
3. يبيّن الفرق بين المعجزة وأعمال السحَرة والمرتاضين.

* تمهيد

بحثنا سابقاً ضرورة بعثة الأنبياء ودورهم البنّاء في توفير الاحتياجات الدنيويّة والاجتماعيّة. واتّضح من خلال ذلك أنّه لا يمكن تحقيق أهداف الخلقة إلّا بوجود المبعوثين الإلهيّين في أوساط الخلق. وفي هذا الدرس نروم الإجابة عن سؤالٍ مهمّ هو: ما السبيل إلى معرفة الأنبياء الإلهيّين؟

حينما ينهض شخص من بين الناس ويدّعي لنفسه النبوّة، يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده: ما الدليل على صدق هذه الدعوى؟ خصوصاً أنّ التاريخ يشهد على وجود أشخاص كذّابين زعموا أنّهم مبعوثون من الله بهدف كسب الجاه والحصول على بعض المصالح الدنيويّة، فتمكّنوا من خداع عدد من الناس وجمعهم حولهم؟

في مقام الجواب نقول: إنّ الله -سبحانه وتعالى- يبعث أنبياءه ورسله إلى الناس بآيات بيّنة وبراهين ساطعة، ولا يُلَبِّسُ عليهم أمرَهم؛ بل يجعلهم على بيّنة منه؛ ولذا قال -سبحانه وتعالى- بشأن النبيّ موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾[1].

(1) سورة الإسراء، الآية 101.

* سبل معرفة النبوّة

يمكن أن نطلق على تلك الآيات البيّنة التي يبعث الله بها أنبياءه اسم «سُبُل معرفة النبوّة»، ومن أهمّ هذه السُّبل، من وجهة نظر المتكلّمين، ما نذكره أدناه:

أ. تأكيد النبيّ السّابق على نبوّة النبيّ اللّاحق، وذلك نظير تصريح المسيح بنبوّة خاتم الأنبياء والمُرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وبشارته بمجيئه من بعده[1].

ب. وجود شواهد وقرآئن عدّة على صدق مدّعاه، وهي ما يمكن التوصّل إليه عن طريق سيرة حياته، ومضمون دعوته، والشخصيّات التي آمنت به، وأسلوبه في الدعوة.

ج. أن يأتي بمعجزة إلى جانب دعوى النبوّة، أي يقوم بعمل خارق يتحدّى فيه الآخرين من الإتيان بمثله، ويجب أن يكون هذا العمل الخارق متناسباً مع مدّعاه.

وعلى الرغم من أهمّيّة السبيلين الأوّل والثاني، وإيمان كثير من الناس بالأنبياء الإلهيّين اعتماداً عليهما، والكشف عن حقيقة دعوى الأنبياء بوساطتهما؛ لكنّهما غير متاحين للجميع، خلافاً للسبيل الثالث الذي كان في متناول أيدي الجميع، وقد استفاد منه الناس طيلة التاريخ لمعرفة الأنبياء الحقيقيّين، مثلما استفاد منه الأنبياء أنفسهم لإثبات دعواهم.

من هنا، سنشرع ببحث المُعجزة، ونترك البحث عن السبيلين الآخرين إلى كتاب آخر، إن شاء الله تعالى.

(1) انظر: سورة الصف، الآية 6.

* المُعجزة

1. تعريف المُعجزة

المُعجزة، بتفسير بسيط، تُطلَق على العمل الخارق للعادة الذي يعجز الشخص الاعتياديّ عن القيام به، ولا يتسنّى إلّا من خلال قوّة تفوق الطبيعة، وهي عمل يأتي به مدّعي النبوّة ضمن شروط محدّدة وخصوصيّات معيّنة لتكشف، بالدليل القاطع، عن صدق مدّعاه، وهذه الشّروط والخصوصيّات هي:

أ. ألّا يقدر على الإتيان بالمُعجزة وفقاً للقدرة البشريّة أيّ إنسان آخر، حتّى النوابغ منهم.

ب. أن يأتي بها صاحبها من باب التحدّي، وألّا يُغلب من قبل الآخرين.

ج. أن تقترن المُعجزة بدعوى النبوّة[1].

وعليه، فإنِ استطاع شخص الإتيان بأمور خارقة للعادة، وقهر الآخرين إلى درجة الاستسلام له، يتحقّق اليقين بارتباطه بالله والإمداد الغيبيّ.

2. إمكان المُعجزة عقليّاً وعلميّاً

ليست المُعجزة عملاً مخالفاً للعلم والعقل، ولإثبات هذه الحقيقة يمكن الرجوع إلى بعض المعاجز التي جاء بها عدد من الأنبياء الإلهيّين، وكمثال على ذلك سمعنا جميعاً بأنّ من جملة المعاجز التي جاء بها المسيح عليه السلام إحياء الموتى وعلاج الأمراض المستعصية (إبراء الأكمه والأبرص)، فهل ثمّة دليل علميّ وعقليّ على أنّ الإنسان الذي توقّفت جميع الأجهزة في بدنه عن العمل لا يستطيع العودة إلى الحياة مجدّداً؟ وهل ثمّة دليل علميّ وعقليّ على عدم العلاج أصلاً لمرض السرطان الذي عجز الإنسان عن علاجه؟

(1) الشيرازي، الشيخ ناصر، دروس في العقائد الإسلاميّة، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، 1427هـ ط3، ص149.

لا ريب في أنّ الإنسان، بما يمتلكه من قوّة لا يستطيع إحياء الموتى، ولا علاج بعض الحالات المرضيّة المستعصية، وإن جمع لذلك جميع الأطبّاء في العالم، واستخدم جميع تجاربه وخبراته ومعلوماته؛ ولكن في المقابل، ما المانع من أن يعيد إنسان ذو قوّة إلهيّة ووعي خاصّ مستمدّ من بحر العلم الإلهيّ اللّامتناهي الروحَ إلى بدن الميّت أو يشفي مريضاً يعاني من مرض مستعصٍ؟ فصحيح أنّ العلم البشريّ يصرّح بعجزه عن القيام بهذا العمل، غير أنّه لا ينفي إمكان ذلك ولا يذهب إلى استحالته.

والآن، فلنلتفت إلى هذا المثال: يقرّ الجميع أنّه يتعذّر على الإنسان السفر إلى سطح القمر دون الاستفادة من مركبة فضائيّة، ولكن ما الذي يمنع الإنسان من الصعود إليه أو إلى الكواكب الأخرى دون الاستفادة من تلك المركبة، وعبر قوّة تفوق قوّة البشر واستخدام مركبة غريبة لا تشبه ما توصّل إليه العلم البشريّ؟

نعم، لا ينبغي الخلط بين المعجزات والخرافات، فلطالما كان الإفراط والتفريط منشأ لتشويه الحقائق، وهو ما يصدق على موضوع المُعجزة أيضاً؛ ففي الوقت الذي يرفض أشباه المثقّفين وجود أيّ شكل من أشكال المعاجز، تسعى فئة أخرى إلى طمس معالم المعاجز العلميّة من خلال الأساطير والأوهام التي لا أساس لها من الصّحة.

3. الفرق بين المُعجزة وأعمال السَّحَرة والمرتاضين

لا تُعدّ المُعجزة آيةً بيّنةً لُمدّعي النبوّة إلّا إذا تميّزت من سائر الأمور الأخرى الخارقة للعادة بالخصوصيّات الآتية:

أ. **عدم إمكان تعلّمها:** تختلف المُعجزة عن الأمور الخارقة الأخرى في أنّ صاحب المُعجزة يأتي بها دون أيّ نوع من أنواع التعلّم السابق، في حين يُؤتى بالأمور الخارقة للعادة نتيجة سلسلة من التدريبات والتمارين. وعلى هذا الأساس، قال الله -سبحانه وتعالى- بشأن موسى بن عمران عليه السلام

إنّه سار بعد مرحلة الشباب متوجّهاً إلى مصر، وفي الطريق بُعث بالنبوّة والرسالة، فجاءه الخطاب أن ألقِ عصاك، وما إن ألقاها حتّى تحوّلت إلى ثعبان كبير خاف منه موسى عليه السلام نفسه، ثمّ جاءه خطاب آخر أن اسلك يدك في جيبك، ولمّا أخرجها شعّ منها نور ساطع يُذهل الأعين[1]. فيُستفاد من هذه القصّة أنّ النبيّ موسى عليه السلام لم يسبق له أن تدرّب على شيءٍ ممّا وقع؛ بل إنّه تفاجأ من بعض الأحداث التي وقعت.

بينما قال الله -سبحانه وتعالى- حول السّحَرة في عصر النبيّ سليمان عليه السلام: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ﴾[2].

ب. عدم إمكان معارضتها: لمّا كان منشأ المُعجزة هو القدرة الإلهيّة اللّامُتناهية، فليس لأحد معارضتها والإتيان بمثلها؛ وفي المقابل، لمّا كان مردّ السّحر وأعمال المرتاضين إلى القدرة البشريّة المحدودة، فمن الممكن معارضتها والإتيان بمثلها.

ج. عدم اقتصارها على أسلوب مُعَيّن: إنّ معجزات الأنبياء لا تقتصر على شكل محدّدة وأسلوب مُعيّن؛ بل هي متنوّعة مختلفة إلى درجة قد يتعذّر وجود قدر مشترك بينها؛ فأين إلقاء العصا وتحوّلها إلى ثعبان كبير من إدخال اليد في الجيب وخروجها بيضاء مشعّة؟ وأين هاتان المعجزتان من انفجار اثنتي عشرة عيناً من الحجر بعد ضربه بالعصا؟[3]، كما أنَّ هذه المعاجز الثلاث تختلف اختلافاً جذريّاً عن ضرب البحر بالعصا وانفلاقه إلى نصفين[4].

وورد في سيرة النبيّ عيسى عليه السلام أنّه كان يخلق من الطين طيراً ثمّ ينفخ فيه فتدبّ فيه الحياة بإذن الله -سبحانه وتعالى-، كما أنّه كان يمسح بيده على

(1) سورة القصص، الآيَتَيْن 31 - 32.
(2) سورة البقرة، الآية 102.
(3) السورة نفسها، الآية 60.
(4) سورة الشعراء، الآية 63.

وجوه المكفوفين وعلى أجساد المصابين بالبرص، فيبرؤون بإذن الله، مضافاً إلى أنّه كان يُحيي الموتى وينبئ بني إسرائيل بما يدّخرون في بيوتهم[1].

د. تباينها في الأغراض والأهـداف: يختلف أصحاب المعاجز عن غيرهم كالسحرة الذين يقومون بأعمال خارقة للعادة، من حيث الأهداف والقضايا الروحيّة أيضاً، فتنشد الطائفة الأولى تحقيق أهداف سامية، بينما ترمي الطائفة الثانية إلى تحقيق أهداف دنيويّة، فضلاً عن اختلافهم في الأمور الروحيّة أيضاً.

* الفرق بين المُعجزة والكرامة

ذكرنا أنّ القيام بعمل خارق بالتزامن مع دعوى النبوّة يُسمَّى «معجزة»، بينما لو صدر العمل الخارق للعادة عن عبد صالح لم يدّعِ النبوّة، يُسمّى حينئذٍ «كرامة»، والشاهد على ذلك أنّه يمكن أن يَصدر العمل الخارق عن بعض عباد الله الصالحين من غير الأنبياء، نحو نزول مائدة من السماء على السيّدة مريم عليها السلام، وانتقال عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين خلال لحظة واحدة، على يد أحد أصحاب النبيّ سليمان عليه السلام، أي آصف بن برخيا. فورد في القرآن الكريم بشأن السيّدة مريم عليها السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[2].

وقال تعالى بشأن عرش المَلكة بلقيس: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[3].

(1) سورة آل عمران، الآية 49.
(2) السورة نفسها، الآية 37.
(3) سورة النمل، الآية 40.

❋ تناسب المُعجزة مع الأوضاع السائدة

لو راجعنا معاجز الأنبياء الإلهيّين لوجدنا أنّ معجزة كلّ واحدة منهم متناسبة مع الأوضاع العلميّة والفنيّة السّائدة في عصره؛ فعلى سبيل المثال، كانت معجزة النبيّ موسى عليه السلام حول السّحر الذي غلب في ذلك العصر، ومعجزة النبيّ عيسى عليه السلام حول الطبّ وعلاج الأمراض المستعصية الشّائعة آنذاك، ومعجزة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم -وهو القرآن الكريم- في مجال الأدب والبلاغة التي كانت منتشرة في العصر الجاهليّ. وقد أجاب الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام عن سؤال حول السرّ في اختلاف معاجز الأنبياء، قائلاً: «**إِنَّ اللّهَ لمَّا بَعَثَ مُوسَى عليه السلام كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِه السِّحْرَ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللّه بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وُسْعِهِمْ مِثْلُهُ وَمَا أَبْطَلَ بِه سِحْرَهُمْ وَأَثْبَتَ بِه الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللّهَ بَعَثَ عِيسَى عليه السلام فِي وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيْه الزَّمَانَاتُ[1]، وَاحْتَاجَ النَاس إِلَى الطِّبِّ، فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللّه بِمَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ، وَبِمَا أَحْيَا لَهُمُ الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللّه وَأَثْبَتَ بِه الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ. وَإِنَّ اللّهَ بَعَثَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وآله وسلم فِي وَقْتٍ كَانَ الْغَالِبُ عَلَى أَهْلِ عَصْرِه الْخُطَبَ وَالْكَلَامَ -وَأَظُنُّهُ قَالَ: الشِّعْرَ- فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ مِنْ مَوَاعِظِه وَحِكَمِه مَا أَبْطَلَ بِه قَوْلَهُمْ، وَأَثْبَتَ بِه الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ**»[2].

يمكن أن نخلُص، من خلال التأمّل في هذا الحديث، إلى نقطتين: الأولى؛ أنّ ثمّة تناسباً وارتباطاً بين الآيات والبيّنات التي جاء بها الأنبياء وبين العلوم والفنون الغالبة في عصر كلّ واحد منهم. والثانية؛ أنّ الهدف من الإتيان بالبيّنة والمعجزة هو إتمام الحجّة على الناس ليعلموا أنّ النبيّ مبعوث من الله، ومن ثَمّ الإيمان بدينه والأخذ بأوامره الإلهيّة. وعلى هذا الأساس، لا يخفى مدى تأثير التناسب بين المعجزة والأوضاع السائدة في حياة الناس، في سرعة إيمانهم بالأنبياء والاعتراف بهم ذهنيّاً وقلبيّاً.

---

(1) «الزمانات» الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فيمنعها عن الحركة كالفالج واللقوة، ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص24؛ الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج2، ص80.

المفاهيم الرئيسة

- التاريخ يشهد على وجود أشخاص كذّابين زعموا أنّهم مبعوثون من الله بهدف كسب الجاه والحصول على بعض المصالح الدنيويّة، فتمكّنوا من خداع عدد من الناس وجمعهم حولهم.
- إنّ الله -سبحانه وتعالى- يبعث أنبياءه ورسله إلى الناس بآيات بيّنة وبراهين ساطعة، ولا يُلَبِّسُ عليهم أمرَهم؛ بل يجعلهم على بيّنة منه.
- من أهمِّ سبل معرفة النبوّة: تأكيد النبيّ السّابق على نبوّة النبيّ اللّاحق؛ وجود شواهد وقرآئن عدّة على صدق مدّعاه، وهي ما يمكن التوصّل إليه عن طريق سيرة حياته؛ أن يأتي بمعجزة إلى جانب دعوى النبوّة.
- المُعجزة، بتفسير بسيط، تُطلَق على العمل الخارق للعادة الذي يعجز الشخص الاعتياديّ عن القيام به، ولا يتسنّى إلّا من خلال قوّة تفوق الطبيعة. وهي عمل يأتي به مدّعي النبوّة ضمن شروط محدّدة.
- ليست المُعجزة عملاً مخالفاً للعلم والعقل.
- تختلف المُعجزة عن الأمور الخارقة الأخرى، في أنّ صاحب المُعجزة يأتي بها دون أيّ نوع من أنواع التعلّم السّابق، في حين يؤتى بالأمور الخارقة للعادة نتيجة سلسلة من التدريبات والتمارين.
- لو صدر العمل الخارق للعادة عن عبد صالح لم يدّعِ النبوّة، يُسمّى حينئذٍ «كرامة».
- لو راجعنا معاجز الأنبياء الإلهيّين لوجدنا أنّ معجزة كلّ واحدة منهم متناسبة مع الأوضاع العلميّة والفنيّة السّائدة في عصره.

الأسئلة

1. اشرح باختصار سبل معرفة الأنبياء، وبيّن بمَ تختلف المُعجزة عن السبل الأخرى؟

2. عرّف المُعجزة وبيّن هل يمكن إثباتها عقليّاً وعمليّاً؟

3. ما الفرق بين المُعجزة وأعمال السّحرة والمرتاضين؟ ولماذا لا يجوز أن يُطلَق على أعمال السحرة والمرتاضين بأنّها خارقة للعادة حقيقة؟

4. أوضح الفارق بين المُعجزة والكرامة. لماذا لا تدلّ الكرامة على النبوّة في حين أنّها خارقة للعادة؟

الدرس السادس عشر

صفات الأنبياء

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح أهمّيّة اتصاف الأنبياء بالعلم.
2. يعدّد مصدر علم الأنبياء.
3. يلخّص منشأ عصمة الأنبياء.

* تمهيد

جرى البحث في الدروسِ السَّابقة عن سبل تشخيص الأنبياء الصادقين من الكاذبين، والآن قد يُسأل: ما هي صفات الأنبياء؟ سنتابع الحديث في هذا الدرس عن تلك الصّفات ببحث موضوع علم الأنبياء وعصمتهم.

* العلم

بمقتضى المسؤوليّة الخطيرة التي تقع على عاتق الأنبياء الإلهيّين، لا بدّ لهم من الاتّصاف بصفات مناسبة لتلك المسؤوليّة الكبيرة، من قبيل العلم، والعصمة، والإعجاز. يُعدّ العلم أهمَّ خصائص الأنبياء الإلهيّين، ومن الصّفات الأساسيّة لهم؛ حيث تُشكّل العلوم السماويّة المائز الأساس بين هؤلاء الأنبياء وبين الناس الاعتياديّين. ولمّا كانت دائرة بحث علم الأنبياء واسعة جدّاً، وينطوي هذا البحث على أبعاد مختلفة ومتنوّعة، سنكتفي هنا بعدد من المحاور الأساسيّة فقط.

1. منزلة العلم لدى العقل والدِين

إنّ العقلاء يحترمون العلم، ولا يضعون العالم وغير العالم في خانة واحدة، ولا يتعاملون معه كتعاملهم مع الإنسان غير العالم، وقد بيّن القرآن الكريم هذا

الحكم العقليّ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

2. لُزوم اتّباع العالم

لا ريب في أنّ الاتّباع فرع العلم، والعقل يحكم بأنّه لا ينبغي اتّباع الشخص ولا الإصغاء إلى حديثه إلّا إن كان عالماً بما يقول ويفعل. وقد بيّن الباري -سبحانه وتعالى- هذه القاعدة العقليّة قائلاً: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].

ومن البديهيّ أنّ اتّباع الجاهلين ومسايرة الفاقدين للهداية الإلهيّة يأخذ بصاحبه إلى الضلال والغواية ولا يجديه نفعاً. قال القرآن الكريم في هذا الخصوص: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[3].

3. لزوم العلم الإلهيّ للأنبياء

لا يخفى أنّ تفويض المسؤوليّة إلى أيّ شخص لا بدّ من أن يكون متناسباً مع قابليّاته وإمكانيّاته؛ لذا يجب أن يتوفّر لدى الأنبياء جميع مستلزمات المهامّ التي أناطها الله بهم والمسؤوليّات التي أوكلها إليهم، ومن ثَمَّ أحال الناس على الرجوع إليهم والأخذ منهم. فبما أنّ الله -سبحانه وتعالى- جعل الأنبياء في مقام هداية الخلق، وألزم الناس باتّباعهم من أجل الوصول إلى الصراط القويم، فينبغي أن يكون هؤلاء الأخيار المنتجبين هداةً وعالمين بطريق الهداية. ولمّا كان الأنبياء مأمورين ببيان كتاب الله (جلّ وعلا) ورفع الاختلافات الدينيّة والدّنيويّة، وجب أن يكون لديهم علم الكتاب وغير مختلفين في ما بينهم؛ وإلّا أصبح نصب الأنبياء الإلهيّين في هذه المقامات وإرجاع الناس إليهم عبثاً ولغواً.

(1) سورة الزمر، الآية 9.
(2) سورة يونس، الآية 35.
(3) سورة الجاثية، الآيتان 18 - 19.

وكما أشرنا في الدّروس المتقدّمة، وفي موضوع الحاجة إلى الأنبياء الإلهيّين والحكمة من البعثة تحديداً، فإنّه لا يتيسّر لأفراد البشر الاعتياديّين بلوغ العلوم والمعارف الإلهيّة وكذلك الاطّلاع على الأوامر والنواهي الصادرة عنه -سبحانه وتعالى-، فلا يتسنّى التوصّل إلى هذه الأهداف إلّا بالاستعانة بالإمداد الإلهيّ المتمثّل بطريق الأنبياء العظام والحجج الإلهيّين؛ ومن هنا فإنّ الباري -سبحانه وتعالى- يزوّد هؤلاء الرجال الأفذاذ بالعلوم التي يحتاجونها عن طريق الوحي، ليتاح لهم هداية الناس وإرشادهم إلى جادّة الصواب، وقد بيّن الباري -سبحانه وتعالى- هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ... * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ...﴾[1].

والآية الشريفة الآنفة تُشير إلى نقاط، أهمّها:

أ. أنَّ الأنبياء الإلهيّين قد اجتباهم الله -سبحانه وتعالى-.

ب. أنَّهم قد حصلوا على الهداية الإلهيّة إلى الصراط المُستقيم، وأوتوا الكتاب والحكمة.

ج. أنَّ الناس مكلّفون بالاستفادة من هدي الأنبياء والاقتداء بهم.

وفي هذا السياق، شدّد الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام على لزوم إعطاء العلم للأنبياء، مضافاً إلى ضرورة كون ما يُعطى لهم فوق علم أهل زمانهم، وممّا لا يُعطى لسواهم؛ ليُميّزهم من الجميع ولا يحتارون بعده بأيّ جواب، فقال: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالأئمّة عليهم السلام يُوَفِّقُهُمُ اللَّهُ وَيُؤْتِيهِمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِه وَحِكَمِه مَا لَا يُؤْتِيه غَيْرَهُمْ؛ فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ فَوْقَ عِلْمِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ... إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اخْتَارَهُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لِأُمُورِ عِبَادِه شَرَحَ صَدْرَهُ لِذَلِكَ، وَأَوْدَعَ قَلْبَهُ يَنَابِيعَ الْحِكْمَةِ، وَأَلْهَمَهُ الْعِلْمَ إِلْهَاماً؛ فَلَمْ يَعْيَ بَعْدَهُ بِجَوَابٍ وَلَا يُحَيَّرْ فِيه عَنِ الصَّوَابِ**»[2].

(1) سورة الأنعام، الآيات 87 - 90.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص202؛ النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص222.

4. مصدر علوم الأنبياء

يمثّل الوحي مصدراً لعلوم الأنبياء الإلهيّين؛ ولذا لا دور للتعليم والتربية والبناء الثقافيّ للمجتمع في بلورة علومهم وتكوين منظومتهم العلميّة والثقافيّة؛ من هذا المُنطلق، يُسمّى علم الأنبياء والرُسل في الثّقافة الدينيّة بـ«العلم الوهبيّ». قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) مَكَّنَ أَنْبِيَاءَهُ مِنْ خَزَائِنِ لُطْفِه وَكَرَمِه وَرَحْمَتِه وَعَلَّمَهُمْ مِنْ مَخْزُونِ عِلْمِه**»[1].

نعم، بعض علوم الأنبياء مأخوذة من الحجج الإلهيّين السابقين، ولكن مع ذلك فإنّ المصدر الأساس لهذه الإفاضة العلميّة هو الباري -تبارك وتعالى- أيضاً؛ لأنّ منشأ علوم الأنبياء السابقين هو الوحي الإلهيّ. من هنا، أشار الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام خلال بيان استمرار الحجج الإلهيّة في قصّة النبيّ آدم عليه السلام إلى الأمر الإلهيّ القاضي بنقل علوم النبوّة التي بحوزته إلى الحجّة اللّاحق، قائلاً: «**فَلَمَّا انْقَضَتْ نُبُوَّةُ آدَمَ عليه السلام وَاسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ، أَوْحَى اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَيْه أَنْ يَا آدَمُ! قَد انْقَضَتْ نُبُوَّتُكَ، وَاسْتَكْمَلْتَ أَيَّامَكَ، فَاجْعَلِ الْعِلْمَ الَّذي عِنْدَكَ وَالْإِيمَانَ وَالِاسْمَ الْأَكْبَرَ وَمِيرَاثَ الْعِلْمِ وَآثَارَ عِلْمِ النُّبُوَّةِ فِي الْعَقِبِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ عِنْدَ هِبَةِ اللَّه، فَإِنِّي لَنْ أَقْطَعَ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ وَالِاسْمَ الْأَكْبَرَ وَآثَارَ النُّبُوَّةِ مِنَ الْعَقِبِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ أَدَعَ الْأَرْضَ إِلَّا وَفِيهَا عَالِمٌ يُعْرَفُ بِهِ دِينِي وَيُعْرَفُ بِهِ طَاعَتِي**»[2].

في السّياق ذاته، أكّد الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو وارث جميع علوم الأنبياء والرسل الإلهيّين السّابقين، قائلاً: «**إِنَّ مُحَمَّدَاً وَرِثَ عِلْمَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ**»[3].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج11، ص37.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص114؛ العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص310.

(3) الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص121؛ الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص224.

5. مراتب علوم الأنبياء

لا تتساوى العلوم التي وهبها الله -سبحانه وتعالى- لأنبيائه ورسله، فلكلّ واحد منهم درجة ومرتبة مختلفة عن درجات الآخرين ومراتبهم، ولا يمتلك أحد من الأنبياء والمرسلين سوى خاتم النبيِّين ﷺ جميع العلوم الوهبيّة؛ ولذا قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصف علم رسول الله ﷺ: «**عَلِمَ النَّبِيّ عِلْمَ جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَعِلْمَ مَا كَانَ وَعِلْمَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**»[1].

بينما أشار الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام عند بيان حدود علم النبيّ موسى والخضر عليهما السلام إلى محدوديّة هذا العلم قائلاً: «**إِنَّ مُوسَى وَالْخَضِرَ عليهما السلام أُعْطِيَا عِلْمَ مَا كَانَ وَلَمْ يُعْطَيَا عِلْمَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةِ**»[2].

* العصمة

ومن الصفات الأخرى للأنبياء العصمة. ولقد كان موضوع العصمة مَثاراً للبحث والجدل بين العلماء والمفكّرين والمُتديّنين عموماً منذ قديم الأيّام، ولا يسعنا هنا، إلّا الإشارة إلى بعض البحوث التمهيديّة في هذا الإطار.

1. تعريف العصمة

معنى «العصمة» لغةً، المنع والحفظ والإمساك[3]، والمقصود منها هو صيانة الأنبياء والمرسلين عن الوقوع في المعصية، ومنعهم من ارتكاب الخطأ والوقوع فيه؛ من هنا عرّف الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام المعصوم بقوله: «**الْمَعْصُومُ هُوَ الْمُمْتَنِعُ بِالله مِنْ جَمِيعِ مَحَارِمِ الله، وَقَالَ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-:** ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4]»[5].

(1) الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص127؛ الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص222.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص261؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص129.
(3) الزبيدي، تاج العروس، مصدر سابق، ج17، ص481-482.
(4) سورة آل عمران، الآية 101.
(5) الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص132.

2. حدود عصمة الأنبياء

لو سُئل: ما حدود عصمة الأنبياء، وفي أيّ شيءٍ هم معصومون؟ فينبغي القول: إنّهم بحكم العقل معصومون في كلّ ما يتّصل بتكليفهم الإلهيّ، الأعمّ من حياتهم الشخصيّة وتلقّي الوحي وحفظه وإبلاغه وبيانه والعمل به، فلا يصدر عنهم الخطأ والزلل صغيراً كان أم كبيراً في أيّ من المجالات المذكورة؛ ومن هنا، شدّد الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام على هذه العقيدة الضروريّة بقوله: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُذْنِبُونَ؛ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مُطَهَّرُونَ، وَلَا يُذْنِبُونَ وَلَا يَزِيغُونَ وَلَا يَرْتَكِبُونَ ذَنْباً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً**»[1].

3. لزوم الإيمان بعصمة الأنبياء

لا ريب في أنّه يجب على النبيّ كسب ثقة الناس قبل أيّ شيءٍ آخر، بحيث لا يحتملون في أقواله الكذب أو الخطأ، وإلّا تزعزعت صورته في أذهانهم، وفقد مقام القيادة؛ إذ لو كان الأنبياء غير معصومين لأعرض عنهم ذوو الأعذار بحجّة أنّهم يُخطئون، ولرفض الباحثون عن الحقيقة الإقرار بدعوتهم والإيمان بهم بسبب عدم إمكان الركون إليها، ولا أقلّ فإنّهم لا يتلقّون تلك الدّعوة برحابة صدر وبحرارة كبيرة. وهذا الدليل الذي يمكن تسميته بـ«دليل الوثوق» يعدّ من أهمّ الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء.

وقد أشار الباري -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم، إلى عصمة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من حيث كونه قدوة وأسوة، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2].

(1) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1403هـ - 1362ش، لا.ط، ص399.

(2) سورة الأحزاب، الآية 21.

فكيف يمكن اتّخاذ الشخص أسوة كاملةً إن كان مُتَّهَماً بالشرك واقتراف الذّنوب والمعاصي، أو كان مخطئاً طيلة حياته؟ وكيف يأمر الله -سبحانه وتعالى- باتّخاذ مثل هذا الشخص أسوة إلهيّة؟

4. منشأ عصمة الأنبياء

إن قيل: ما هو منشأ عصمة الأنبياء والمُرسلين؟ فالجواب الإجماليّ عن ذلك هو أنّ لدى المعصوم ملكة قويّة تمنعه من ارتكاب المعاصي حتّى في أحلك الظّروف، ومردّها إلى الاطلاع التامّ والدّائم على قبح المعصية، والإرادة القويّة على التحكّم بالأهواء النفسيّة. ومنه يتّضح أنّ العصمة تعود إلى النبيّ نفسه قبل كلّ شيء، ولكن قد تُنسب فاعليّة تلك الملكة إلى الله -سبحانه وتعالى- أيضاً كونها تتحقّق بعناية خاصّة منه، وإلّا فإنّ الباري (عزّ وجلّ) لا يمنع الإنسان المعصوم من ارتكاب المعصية على نحو الجبر، وبسلبه الاختيار على الفعل. هذا وتُنسب العصمة إلى الله -سبحانه وتعالى- بمعنى آخر أيضاً، وهو أنّه الضامن لعصمة الأنبياء.

المفاهيم الرئيسة

- يُعدّ العلم أهمَّ خصائص الأنبياء الإلهيّين، ومن الصّفات الأساسيّة لهم؛ حيث تُشكّل العلوم السماويّة المائز الأساس بين هؤلاء الأنبياء والناس الاعتياديّين.
- إنّ العقل يحكم بأنّه لا ينبغي اتّباع الشخص ولا الإصغاء إلى حديثه إلّا إن كان عالماً بما يقول ويفعل، وقد بيّن الباري -سبحانه وتعالى- هذه القاعدة العقليّة قائلاً: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.
- بما أنّ الله -سبحانه وتعالى- جعل الأنبياء في مقام هداية الخلق، وألزم الناس باتّباعهم من أجل الوصول إلى الصراط القويم، فينبغي أن يكون هؤلاء الأخيار المنتجبين هداةً وعالمين بطريق الهداية.
- يمثّل الوحي مصدراً لعلوم الأنبياء الإلهيّين. من هذا المُنطلق، يُسمّى علم الأنبياء والرُّسل في الثقافة الدينيّة بـ«العلم الوهبيّ».
- لا تتساوى العلوم التي وهبها الله -سبحانه وتعالى- لأنبيائه ورسله، فلكلّ واحد منهم درجة ومرتبة مختلفة عن درجات الآخرين ومراتبهم، ولا يمتلك أحد من الأنبياء والمرسلين سوى خاتم النبيِّين ﷺ جميع العلوم الوهبيّة.
- معنى «العصمة» لغةً، المنع والحفظ والإمساك، والمقصود منها هو صيانة الأنبياء والمرسلين عن الوقوع في المعصية، ومنعهم من ارتكاب الخطإ والوقوع فيه.
- منشأ عصمة الأنبياء والمُرسلين هو أنّ لدى المعصوم ملكة قويّة تمنعه من ارتكاب المعاصي.

الأسئلة

1. ما المُراد من لزوم العلم الإلهيّ للأنبياء؟
2. ما هو مصدر علوم الأنبياء الإلهيّين؟ وهل يستفيدون من علوم الأنبياء السّابقين لهم؟
3. ما معنى العصمة في اللّغة وفي روايات أهل البيت عليهم السلام؟ وما هي النسبة بينهما.
4. اشرح حدود عصمة الأنبياء.
5. لماذا يجب اتّصاف الأنبياء الإلهيّين بالعصمة؟

الدرس السابع عشر

إثبات نبوّة نبيّ الإسلام(1)

دلائل نبوّة نبيّ الإسلام

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف معجزة الرسول الأكرم ﷺ الخالدة.
2. يذكر أهمَّ وجوه إعجاز القرآن الكريم.
3. يقرأ الإعجاز القرآنيّ من حيث الانسجام الداخليّ وعدم التناقض.

* تمهيد

تعرّفنا سابقاً، في بحث «سُبُل معرفة الأنبياء»، إلى الطّرق الكفيلة بمعرفة النبيّ وكيفيّة تمييزه من دعاة النبوّة الكذّابين. وسنسعى هنا، إلى تطبيق تلك السبل على النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

* معجزة القرآن الكريم

مع وجود معجزات كثيرة لنبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بحسب الروايات والوثائق التاريخيّة، غير أنّ معجزته الخالدة هي القرآن الكريم. وسنبحث في هذا الدرس الإعجاز القرآنيّ ووجوه الإعجاز في هذا الكتاب السّماويّ.

هذا، ويعدّ القرآن الكريم وثيقةً خالدة دالّة على صواب دعوى النبوّة من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ولا ريب في أنّ هذا الكتاب السّماويّ أفضل من سائر المعجزات من الأنبياء الإلهيّين؛ لأنّه مُرتبطٌ بروح النبيّ وأفكاره من جهة، وأبديّ وسرمديّ من جهة أخرى. مضافاً إلى أنّه، منذ أن نزل إلى يومنا هذا، وهو يتحدّى الجميع ويدعوهم إلى الإتيان بمثله وهم عاجزون عن ذلك، وقد ورد هذا التحدّي بصورة صريحة في مواضع متعدّدة من القرآن، منها: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]،[2].

(1) سورة الإسراء، الآية 88، وانظر كذلك: سورة هود، الآيتَيْن 13 - 14؛ سورة البقرة، الآية 21.

(2) انظر: الشيخ الشيرازيّ، دروس في العقيدة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص155.

* وجوه الإعجاز القرآنيّ

ذكر علماء الإسلام وجوهاً كثيرة للإعجاز القرآنيّ، نشير هنا إلى أهمّها[1]:

1. الإعجاز القرآنيّ من حيث الفصاحة والبلاغة

الوجه الأوّل من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو فصاحته وبلاغته التي لا تُدانى، بمعنى أنّ الله -سبحانه وتعالى- قد اختار لبيان مقاصده -في أيّ مقام- أفصح الألفاظ وأجمل التراكيب التي تُوصل المعاني إلى المخاطَب بأحسن وجهٍ ممكن. وممّا لا ريب فيه أنّ اختيار مثل هذه الألفاظ والتراكيب المتناسبة مع معانٍ رفيعة ودقيقة ليس بمقدور شخص، إلّا إن كان له إشراف تامّ على جميع خصائص الألفاظ ودقائق المعاني والعلاقات المُتبادلة بينها؛ ليتسنّى له اختيار أفضلها، بعد أخذه بنظر الاعتبار، جميع أبعادها ورعاية ما يقتضيه المقام ومقتضى الحال. ولا غرو أنّ هذا الإشراف العلميّ والإحاطة التامّة لا يتيسَّرانِ لأحد دون الوحي والإلهام الغيبيّ[2].

ولمّا كان العرب، في عصر الرسالة، عباقرة في فنّ الخطابة وأرباباً في اللّغة والبيان، اكتشفوا، بقريحتهم الفطريّة، أنّ كلام النبيّ القرآنيّ ﷺ ليس من جنس كلام البشر؛ وهذا ما دعا كثيراً منهم إلى الإيمان برسالة نبيّ الإسلام ﷺ بعد الاستماع إلى الكلام الإلهيّ. فعلى سبيل المثال، طلب الوليد بن المُغيرة من رسول الله ﷺ أن يتلو عليه من الآيات القرآنيّة، فتلا عليه آيات من سورة «فصّلت»، ولمّا بلغ إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وسمعه، اقشعرّ جلده وقامت كلّ شعرة في رأسه ولحيته، ثمّ قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش، ولمّا سألوه عن سبب اعتزاله في بيته ردّ قائلاً: سمعت كلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود لا يقوله بشر[3].

(1) من يرغب بمزيد من المطالعة والمعلومات في هذا المجال، بوسعه الرجوع إلى الكتب والمصادر المذكورة في هذا البحث.

(2) انظر: اليزدي، الشيخ محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلاميّة، دار الرسول الأكرم، 1429هـ- 2008م، ط8، ص249-250.

(3) انظر: الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، مصدر سابق، ص41.

2. الإعجاز القرآنيّ من حيث الإنباء بالغيب

الوجه الثاني من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو إنباؤه بالغيب؛ حيث ورد في القرآن الكريم ما يقرب من ثلاثين نبأً غيبيّاً تحقّق على أرض الواقع.

وعلى هذا الأساس، تحدّث القرآن عن سلسلة من الأحداث التي لم يدلّ، قبل ذلك عليها أدنى شاهد؛ بل ربَّما كانت توجد قرائن وشواهد على خلافها. فعلى سبيل المثال، من جملة ما أنبأ القرآن عن الغيب فيه، يمكن الإشارة إلى نبأ غلبة الروم على الفُرس في سورة الروم الذي أنبأ به القرآن الكريم قبل وقوعه بسنين[1]. وكذلك نبأ انتصار المسلمين على المُشركين في غزوة بدر؛ حيث تحقّقت الغلبة للمسلمين بعد مقتل 70 مقاتلاً وأسر 70 آخرين من جيش المشركين[2].

3. الإعجاز القرآنيّ من حيث التّقنين

الوجه الآخر من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو القوانين التي جاء بها؛ حيث نرى أنّ شخصاً أُمّيّاً -على حدّ وصف القرآن نفسه- جاء بقوانين مختلفة في القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة متطابقة تطابقاً تامّاً مع الغاية من خلق الإنسان ومصالحه. فمثلاً، حرّم القرآن النظام الربويّ الذي يعدّ نظاماً ظالماً للبشر، والشاهد على ذلك ما يراه الناس من مفاسد في العصر الحاليّ نتيجة ما يكتنزه بعضهم على حساب بعضهم الآخر ونهب الأثرياء لحقوق الفقراء. كما أنّ أحكام الإسلام في مجال النهوض بنظام الأسرة، بدءاً من أحكام النكاح وانتهاءً بتحريم الزنا وسائر العلاقات غير الشّرعيّة، لهي من أرقى القوانين في العالم، ويمكن لمس أهمّيّة هذه القوانين وإدراك الجانب الإعجازيّ فيها، من خلال ملاحظة انهيار نظام الأسرة في الغرب وأزمة الأخلاق الجنسيّة التي يعاني منها النظام الغربيّ المُتداعي.

(1) انظر: سورة الرّوم، الآيات 2 - 5.
(2) سورة الأنفال، الآية 7.

كما أنّ الإسلام حرّم تعاطي الخمر ولعب القمار، ودعا إلى الابتعاد عن النّجاسات والقذارات، وهذا يصبّ في مصلحة الفرد والمجتمع، وكذا الحال في القوانين الأخرى. وهذا يكشف عن أنّ النبيّ ﷺ قد أخذ هذه القوانين المُنسجمة مع جميع الظّروف الزمانيّة والمكانيّة ومتناسبة مع الحضارات الإنسانيّة المختلفة من مصدر العلم والمعرفة، وإلّا لما اتّسمت بهذا القدر من الانسجام والتوافق.

4. الإعجاز القرآنيّ من حيث العلوم والقوانين الطبيعيّة

صحيح أنّ القرآن الكريم ليس كتاب علوم طبيعيّة أو طبّ أو علم نفس أو علوم رياضيّة؛ وإنّما هو كتاب هداية وتهذيب للإنسان، ولا يتوانى في بذل الغالي والنفيس في سبيل ذلك، لكنّه أشار في معرض بلوغ هذا الهدف إلى بعض القضايا في العلوم الطبيعيّة وأسرار الخلقة وعجائب الكون، خصوصاً في مباحث التوحيد؛ حيث أماط اللّثام عن أسرارٍ في عالم الخلقة وكشف النّقاب عن أمور لم تكن معروفة لدى علماء ذلك العصر في تلك البيئة.

وهذا البيان القرآنيّ يُشكّل مجموعة من القضايا يُطلَق عليها «المعجزات العلميّة في القرآن» وسنشير ها هنا إلى عدد من هذه المعجزات:

- **القرآن وقانون الجاذبيّة:** كشف القرآن الكريم عن قانون الجاذبيّة قبل أكثر من ألف سنة وقبل اكتشاف نيوتن له، فقال: ﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1].

ورد في حديث عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام تعليقاً على هذه الآية الشريفة: «**أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها؟** فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: **ثَمَّ عَمَدٌ وَلَكِنْ لَا تَرَوْنَهَا**»[2].

(1) سورة الرعد، الآية 2.

(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج2، ص203.

فهل ثمّة تعبير دالّ على قوّة الجاذبيّة لعموم الناس في اللّغة العربيّة أوضح من العَمَد غير المرئيّة؟

- **اكتشاف حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس:** المتعارف أنّ أوّل شخص اكتشف حركة الأرض حول نفسها هو العالم الإيطالي غاليليو الذي عاش قبل قرابة أربعة قرون، وكان العلماء قبل ذلك لا يجرؤون على مخالفة هيئة بطليموس وفرضيّتها القائلة: إنّ الأرض تُمثّل مركز العالم وجميع الكواكب الأخرى تدور حولها.

ولكن حينما نراجع القرآن الكريم نجد أنّه تحدّث عن حركة الأرض بصورة واضحة، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1].

تناولت الآية المتقدّمة الحديث عن حركة الجبال بصراحة وإن كنّا نظنّ أنّها ساكنة وغير متحرّكة، وتشبيه حركتها بحركة السّحاب يُشير إلى سرعة الحركة ومرونتها وهدوئها، والتعبير بحركة الجبال بدلاً من حركة الأرض إنّما هو لبيان عظمة هذا الموضوع؛ لأنّه لا يخفى أنّ الجبال لا تتحرّك وحدها دون حركة الأرض؛ بل إنّ حركتها هي حركة الأرض عينها.

والآن تخيّلوا الموقف، في الوقت الذي أكّدت جميع الأوساط العلميّة والناس الاعتياديّين -أيضاً- في ذلك العصر على نظريّة سكون الأرض وحركة الشمس وجميع الكواكب السماويّة حولها، ألا يُعدّ القول بحركة الأرض بهذه الصراحة إعجازاً عمليّاً؟ خاصّة وأنّ من جاء بهذا الكلام شخص لم يدرس على يد أحد مطلقاً، وإنّما بُعث من بيئة فاقدة للنّظام التعليميّ أساساً وتعدّ من أكثر مناطق العالم تخلّفاً من حيث العلم والثقافة[2].

(1) سورة النمل، الآية 88.

(2) الشيخ الشيرازي، دروس في العقيدة الإسلامية، مصدر سابق، ص173.

5. الإعجاز القرآنيّ من حيث المعارف الإلهيّة

المقصود بالمعارف الإلهيّة عدد من البحوث التي طرحها القرآن الكريم حول التوحيد والكون والإنسان والنبيّ ومجالات أخرى، وهي بحوث عميقة ودقيقة تهتمّ بأبرز أسئلة البشر التي أثارت إعجاب المفكّرين في العالم.

كانت الحجاز في ذلك العصر من أشدّ مناطق العالم تخلّفاً باعتراف المؤرّخين، حتّى وُصف سكّان العصر الجاهلي بالمتوحّشين أو شبه المتوحّشين؛ حيث كانوا يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويعتبرون الله كواحد من الناس، ولم يكن فيهم متعلّمون إلّا أشخاص يعدّون على الأصابع في مكّة فقط.

نعم، في مثل هذه البيئة نهض شخص لم يتعلّم على يد أستاذ، ولم يدخل مدرسة ولا أيّ مكان للتعليم، وجاء بكتاب يحتوي على علوم ساطعة ومعارف نورانيّة في جميع المجالات المعرفيّة وفي أرقى المستويات، إلى درجة أنّ العلماء والمفكرين وبعد أربعة عشر قرناً لا زالوا مشغولين بتفسيره، وفي كلّ يوم يكتشفون حقيقة جديدة من حقائقه.

ولو أنّ عالماً مُنصفاً قارن بين مسألة التوحيد في القرآن الكريم في أبعادها المختلفة فقط، وبين التثليث الذي يقول به المسيحيّون، لأدرك مدى البون الشّاسع بين المعارف التوحيديّة المطروحة في القرآن، وبين ما تذهب إليه المسيحيّة اليوم، فالتثليث لا يفهمه المسيحيّون أنفسهم؛ لأنّهم يعتبرون أنفسهم موحّدين من جهة وقائلين بالتثليث من جهة ثانية، زاعمين عدم التنافي بين التوحيد والتثليث، في حين أنّ الإسلام نادى منذ انطلاقه بنداء: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»[1]، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[2].

(1) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ص483.

(2) سورة الإخلاص، الآية 1.

6. الإعجاز القرآنيّ من حيث المبادئ الأخلاقيّة

ينبغي أن تكون القوانين الأخلاقيّة بحيث تأخذ بيد الإنسان إلى السعادة في الدارين، بعبارة أخرى: لا بدّ من أن تحيي لديه الفضائل الأخلاقيّة والسجايا الإنسانيّة؛ وبالتالي، تجعله بصورة إنسان كامل، والإنسان الكامل هو من بلغ الرّشد والكمال في الجوانب الماديّة والمعنويّة معاً.

ثمّ إنّ الأخلاق الإسلاميّة تدعو إلى الاستفادة من الطيّبات في الحياة المادِّيّة، وفي الوقت ذاته لا تغفل عن الجوانب المعنويّة، فتنشّئ الإنسان في هذين المجالين معاً. ولا يخفى أنّ التعاليم الدينيّة لا تعتبر الإنسان مخلوقاً يهتمّ بالأمور الماديِّة فحسب، بحيث لا يكون همّه إلّا اللَّذّات الدنيويّة، ولا مخلوقاً لأجل الأمور المعنويّة الصّرفة بحيث يترك الأمور الدنيويّة نهائيّاً؛ بل لا بدّ له من الجمع بين الجانبين المادّيّ والمعنويّ ورعايتهما معاً. ومن هذا المُنطلق، نهى القرآن الكريم الإنسان عن الاعتزال والإقلاع عن الدنيا تماماً، ودعاه إلى الجدّ والعمل والمثابرة من جهة، والقيام بأعمال الخير والإحسان في سبيل الله لا في سبيل الحصول على المنافع الماديّة، فصار شعار المسلمين هو: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾[1].

7. الإعجاز القرآنيّ من حيث الانسجام الداخليّ وعدم التناقض

إنّ الإنسان موجود تكامليّ، ينتقل من مرحلة النّقص إلى مرحلة الكمال بصورة تدريجيّة، فما إن تخالجه فكرة جديدة أو يدور في خَلَده أمر مستحدث حتّى تتبادر إليه سلبيّاته ونقائصه، ومن ثمّ يحاول تتميمه وترميمه واختيار الأمر الأكثر كمالاً.

(1) سورة البقرة، الآية 201.

في هذا السياق، قصّ نبيُّ الإسلام ﷺ والقرآن الكريم على الناس على مدى 23 عاماً، وفي ظروفٍ وأوضاع مُتباينة؛ لكنّه لم يَحِدْ عن المسار الثابت له، فكان ما قاله لهم في الأيّام الأخيرة ما ذكره لهم نفسه في الأيّام الأولى. نعم، لو ألّف شخص كتاباً خلال أمد قصير وضمن ظروف متكافئة لأمكنه تلافي وجود تناقض فيه؛ بيد أنّ الرسول الأعظم ﷺ استطاع الإتيان بكتاب متّسق وليس فيه أدنى التباس أو تناقض خلال فترة طويلة وظروفٍ متباينة قضاها بين مكّة والمدينة، تخلّلتها الحروب والنزاعات، إلى جانب مسؤوليّاته الأخرى.

وإن دلّ هذا على شيءٍ فإنّما يدلّ على الإسناد الربّانيّ لمن جاء بهذا الكتاب وصيانته من الزّلل والخطأ بوساطة قوّة خارقة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإعجاز بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

8. الإعجاز القرآنيّ من حيث بيان القصص وتاريخ الأنبياء[2]

إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخيّاً، غير أنّه حكى قصص الأقوام السالفة لأخذ العبرة منها، ولمّا أراد شرح سيرة حياة بعض الأنبياء الإلهيّين نحو نوح وإبراهيم ولوط وداوود وسليمان عليهم السلام، تحدّث عنهم بما يليق بشأنهم ومقامهم من أنّهم أنبياء الله -سبحانه وتعالى-، وبما يتطابق مع المبادئ العلميّة والحقائق التاريخيّة؛ بينما نُسبت إلى رجال الله والأنبياء الإلهيّين في الكتب الدينيّة القديمة، ومنها التّوراة والإنجيل المحرّفان، أعمال قبيحة تقشعرّ لها الأبدان ويترفّع عن سماعها الإنسان من قبيل الخداع والكذب والسرقة وغيرها[3].

(1) سورة النساء، الآية 82.

(2) الشيخ السبحاني، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، مصدر سابق، ص62.

(3) انظر: التوراة، سفر التكوين، الفصل التاسع عشر، الجمل 32-37، الكتاب الأوّل للملوك؛ إنجيل متّى، الفصل 17؛ إنجيل يوحنا، الفصل الثاني.

ويستفاد من هذه المقارنة بين القرآن والكتب الدينيّة القديمة أنّ القرآن لم يدوَّن من تلك الكتب أو من أقوال الآخرين؛ بل لا مصدر لقصص الأنبياء في القرآن سوى الوحي الإلهيّ.

- مع وجود معجزات كثيرة لنبيّ الإسلام ﷺ بحسب الروايات والوثائق التاريخيّة، غير أنّ معجزته الخالدة هي القرآن الكريم.
- من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو فصاحته وبلاغته التي لا تُدانى، بمعنى أنّ الله -سبحانه وتعالى- قد اختار لبيان مقاصده -في أيّ مقام- أفصح الألفاظ وأجمل التراكيب التي تُوصل المعاني إلى المخاطب بأحسن وجهٍ ممكن.
- الوجه الثاني من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو إنباؤه بالغيب؛ حيث ورد في القرآن الكريم زهاء ثلاثين نبأً غيبيّاً تحقَّقت على أرض الواقع.
- الوجه الآخر من وجوه الإعجاز القرآنيّ هو القوانين التي جاء بها؛ حيث نرى أنّ شخصاً أُمّيّاً -على حدّ وصف القرآن نفسه- جاء بقوانين مختلفة في القضايا الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة متطابقة تطابقاً تامّاً مع الغاية من خلق الإنسان ومصالحه.
- صحيح أنّ القرآن الكريم ليس كتاب علوم طبيعيّة أو طبّ...؛ وإنّما هو كتاب هداية وتهذيب للإنسان، لكنّه أشار في معرض بلوغ هذا الهدف إلى بعض القضايا في العلوم الطبيعيّة وأسرار الخِلقة وعجائب الكون.
- في أشدّ المناطق تخلُّفاً نهض شخص لم يتعلّم وجاء بكتاب يحتوي على علوم ساطعة ومعارف نورانيّة في جميع المجالات المعرفيّة وفي أرقى المستويات، إلى درجة أنّ العلماء والمفكرين وبعد أربعة عشر قرناً لا زالوا مشغولين بتفسيره.

الأسئلة

1. اذكر إحدى آيات التحدّي في القرآن الكريم.
2. اشرح الإعجاز القرآنيّ في مجال التقنين.
3. اذكر أمثلة من الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم وبيّن كيفيّة دلالة هذه الشواهد على صدق مدّعي النبوّة.
4. كيف يدلّ عدم التّهافت في المضامين القرآنيّة على الإعجاز؟
5. كيف يستفاد من بيان القصص القرآنيّ وتاريخ الأنبياء، على الإعجاز؟

الدرس الثامن عشر



إثبات نبوّة نبيّ الإسلام (2)

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعدّد القرائن والشواهد الدالّة على نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.
2. يشرح معنى «النبيّ الأمّيّ».
3. يتعرّف إلى بشارة الأنبياء السابقين الدالّة على نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.



* تمهيد

تطرّقنا في البحوث السابقة إلى بحث القرآن الكريم باعتباره المُعجزة الخالدة الوحيدة في تاريخ الأنبياء.

وفي هذا الدرس سنتناول دراسة القرائن والشواهد كدليل آخر من دلائل نبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك بشارة الأنبياء السابقين بنبوّته.

وذكرنا أنّ ثمّة طريقاً آخر غير المُطالبة بالمعجزة للوقوف على صدق مدّعي النبوّة، وهو التحقّق من ذلك عن طريق جمع القرائن والشواهد الدالّة على صحّة مدّعاه. وفي هذا الدرس، سنبيّن بعض تلك القرائن والشّواهد المتعلّقة بإثبات نبوّة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

* السجايا الأخلاقيّة والسيرة الاجتماعيّة لنبيّ الإسلام

كفى النبيَّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال أنّ أهل مكّة كانوا يلقّبونه بـ«الصادق الأمين»؛ حيث يمكن استكشاف منزلته الأخلاقيّة والاجتماعيّة من قصّة الحجر الأسود واتّفاقهم على أنّه الشخص المناسب لوضعه في موضعه. مضافاً إلى قصّة مشاركته في «حلف الفضول» التي تعدّ من مفاخر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في تلك البلاد الفاقدة للحضارة والمليئة بالوحشيّة والقبليّة والتعصّب الطائفيّ.

* المقتضيات الزمانيّة والمكانيّة للدّعوة

كان سكان شبه الجزيرة العربيّة، قبل الإسلام وبشهادة التاريخ والآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام يعيشون أوضاعاً ثقافيّة واجتماعيّة وأخلاقيّة مأساويّة، حتّى أُطلق على ذلك العصر «العصر الجاهليّ». وأمّا بعد بزوغ فجر الإسلام وبعثة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فقد انتقلوا من تلك الأوضاع المأساويّة إلى حضارة عظيمة غطّت أجزاء واسعة من العالم آنذاك.

وقد أشار الباري (سبحانه وتعالى) إلى أوضاع المجتمع الجاهليّ قبل البعثة النبويّة، وما طرأ عليه بعدها بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾[1].

والنّعمة التي وردت في هذه الآية والتي كانت سبباً للألفة بين القلوب وإنقاذ الناس من النار هي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لذا قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**فَبِرَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم أُنْقِذُوا**»[2].

وفي إحدى خطبه، وصف أمير المؤمنين عليه السلام المجتمع العربيّ قبل البعثة من الناحية العقديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة، بالشّكل التالي ليبيّن عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ اللهَ بَعثَ محمّدًا ... وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ**»[3].

على هذا الأساس، يتّضح قدر تعاليم الدِّين الإسلاميّ في مواجهة الانحطاط والفساد المستشري قبل الإيمان بحامل رسالة التوحيد والسلام والسعادة من

(1) سورة آل عمران، الآية 103.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص266؛ العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص194.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة 26، ص68.

خلال مراجعة صفحة أخرى من تاريخ الإسلام. فمن ترعرع وعاش أربعين عاماً في بيئة مليئة بالجهل وعبادة الأصنام، وفي محيط طغت عليه ثقافة الشرك والخُرافات، أنّى له المُناداة بالتوحيد الخالص ورفع راية الحرب ضدّ جميع مظاهر الشرك؟ وكيف برزت من بيئة الجهل هذه أسمى المظاهر العلميّة؟ وما هو الارتباط بين هذا الدِّين الذي رفع شعار المُساواة بين البشر والقضاء على التمييز العرقيّ والطبقيّ وإقامة القسط والعدل في جميع الأبعاد الفرديّة والاجتماعيّة وبين الأوضاع السائدة في ذلك العصر؟ وهل يمكن التصديق بظهور مثل هذا الشخص الفريد دون تأييد إلهيّ من ما وراء الطبيعة؟

* أُمّيّة النبيّ ﷺ

أكّد القرآن الكريم على أنّ رسول الله ﷺ أُمّيّ، وأنّه نبيّ بُعث إلى الأُمّيّين: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾[1].

«أُمٌّ» في اللّغة العربية تعني الأصلُ، فأُمّ كلّ شيء: أَصْلُه وعمادُه، وأُمُّ القُرَى: مكّةُ زيدَت شَرفاً؛ لأنَّها توسَّطت الأرض؛ سُمِّيت بذلك لأنّها أَصلُ الأرض، ومنها دُحيتْ. وَأَمَّتْ أُمومَةً: صارَتْ أُمّاً. والأُمّيُّ والأُمّانُ بضمِّهما: مَنْ لا يكْتُبُ، أو مَن على خِلْقَة الأُمَّة لم يتعلّم الكتابَ وهو باقٍ على جِبلَّته[2]. وعليه، فالمعنى الشائعُ للأُمِّيّ هو من لا يعرفُ القراءة والكتابة، أو فقلْ: هو غير المتعلِّم.

وفُسّر هذا المعنى لكلمة الأُمّيّ بطريقة أخرى عند توصيف النبيّ ﷺ في الآية الشريفة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[3].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 158.

(2) الزبيدي، تاج العروس، مصدر سابق، ج16، ص28-30.

(3) سورة العنكبوت، الآية 48.

ويُلاحظ أنّ هذه الآية لا تنفي قدرة الرسول الكريم ﷺ على القراءة والكتابة؛ وإنّما نفت مبادرته إلى تعلّم هذه الفنون ووقوع هذين الفعلين منه، فلم يُؤْثَر عن النبيّ ﷺ -بشهادة التاريخ ومن عاشره سنوات مديدة- أنّه قرأ وكتب قبل البعثة ونزول الآيات القرآنيّة أبداً؛ لئلّا يُتّهم بقراءة الكُتب السماويّة الأخرى وكتابات الآخرين والاقتباس منها، وإلّا لبلغ المعاندون والأعداء المتربّصون به أهدافهم، وعمدوا إلى تكذيبه وإبطال نبوّته، وإلى التشكيك بكون القرآن الكريم كتاباً سماويّاً، والزعم أنّ الآيات القرآنيّة ليست من كلام الله؛ لذا ذهب بعض علماء الإسلام إلى أنّ هذه الصفة للنبيّ الكريم ﷺ تدخل في عداد وجوه الإعجاز القرآنيّ[1].

وفي هذا السياق، فسّر الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام خلال حواره مع رأس الجالوت -من علماء اليهود- الكلام الإلهيّ، وأخبار الغيب، وباقي الآيات التي جاء بها الرسول ﷺ في ضوء السيرة النبويّة قبل البعثة، وفي كونه غير متعلّم، فقال: «**مِنْ آيَاته أَنَّهُ كَانَ يَتيمَاً فَقيراً رَاعياً أَجيراً، لَمْ يَتَعَلَّمْ كتَاباً وَلَمْ يَخْتَلفْ إِلَى مُعَلِّم، ثُمَّ جَاءَ بِالْقُرْآن الَّذي فيْه قصَصُ الْأَنْبيَاء عليهم السلام وَأَخْبَارُهُمْ حَرْفاً حَرْفاً، وَأَخْبَارُ مَنْ مَضَى وَمَنْ بَقيَ إِلَى يَوْم الْقيَامَة، ثُمَّ كَانَ يُخْبرُهُمْ بِأَسْرَارِهِمْ وَمَا يَعْمَلُونَ في بُيُوتهِمْ، وَجَاءَ بِآيَاتٍ كَثيرَةٍ لَا تُحْصَى**»[2].

وفضلاً عن الأحاديث التي أكّدت على المعنى المتقدّم للأُمّيّ، فإنّ ثمّة روايات أخرى ذكرت له معانيَ مغايرةً؛ لكنّ هذه المعاني -كما أشرنا سابقاً- لا تتنافى مع المعاني المذكورة سابقاً[3].

(1) لاحظ: الشيخ اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص251-252.

(2) الشيخ الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص429؛ الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج1، ص167.

(3) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج1، ص124-126؛ الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص53.

* بشارة الأنبياء السّابقين بنبوّة الرسول الكريم ﷺ

إنّ الدِّين عند الله -سبحانه وتعالى- واحد، وهو الإسلام الذي يُشكّل النّقطة المُشتركة والمتّحدة بين الأنبياء الإلهيّين والذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين. ثمّ إنّ الشهادة بوحدانيّة الله ورسالة خاتم الأنبياء ﷺ تعدّ من الضروريّات الأوّليّة والذاتيّة للدّين الإسلاميّ، قال رسول الله ﷺ في هذا الخصوص: «**أَوْحَى اللهُ -سبحانه وتعالى- إِلَى عِيسَى... أَخْبِرْهُمْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِيَ النبيّ الْأُمِّيِّ**»[1].

ومن البديهيّ أنّ إيمان أمم الأنبياء السّابقين بنبوّة نبيّنا الكريم ﷺ يستلزم الإشارة إلى هذه العقيدة في كتب الأنبياء السالفين والوعد بظهوره من بعدهم، وقد بيّن القرآن الكريم ورود اسم النبيّ ﷺ وعلاماته في التوراة والإنجيل بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[2].

وروي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال حول أسماء الرسول ﷺ في الكتب السماويّة السّابقة: «**إِنَّ اسْمَ النَّبِيِّ ﷺ فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ الْمَاحِي، وَفِي تَوْرَاةِ مُوسَى الْحَادُّ، وَفِي إِنْجِيلِ عِيسَى أَحْمَدُ، وَفِي الْفُرْقَانِ مُحَمَّدٌ.** قيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ الْمَاحِي؟ قَالَ: **الْمَاحِي صُورَةَ الْأَصْنَامِ وَمَاحِي الْأَوْثَانِ وَالْأَزْلَامِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ دُونَ الرَّحْمَنِ.** وَقِيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ الْحَادِّ؟ قَالَ: **يُحَادُّ مَنْ حَادَّ اللهَ وَدِينَهُ قَرِيباً كَانَ أَوْ بَعِيداً.** قيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ أَحْمَدَ؟ قَالَ: **حَسُنَ ثَنَاءُ الله (عَزَّ وَجَلَّ) عَلَيْهِ فِي الْكُتُبِ بِمَا حُمِدَ مِنْ أَفْعَالِه.** قيلَ: فَمَا تَأْوِيلُ مُحَمَّد؟ قَالَ: **إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَجَمِيعَ أُمَمِهِمْ يَحْمَدُونَهُ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ**»[3].

(1) قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، قصص الأنبياء، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، مؤسّسة الهادي، إيران - قم، 1418 - 1376ش، ط1، ص271.

(2) سورة الأعراف، الآية 157.

(3) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج4، ص177-178.

وتوجد آية أخرى من كتاب الله المجيد تدلّ على أنّ علماء أهل الكتاب يعرفون الرسول معرفة دقيقة وواضحة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

هذا، وقد كان الأنبياء طيلة التاريخ يدعون الناس في زمانهم إلى الإيمان بمجيء الرسل من بعدهم ويعِدونَهم بتحقّق هذا الوعد الإلهيّ، لا سيَّما رسول الله ﷺ، وقد أشير إلى هذا الموضوع في الكتب الدينيّة بمفردة «البشارة»؛ ولذا قال القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[2].

وقال النبيّ الأكرم ﷺ بشأن البشارة بنبوّته: «**أَيُّهَا الناس! بِي وَاللهِ بُشِّرَ الْأَوّلونَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ**»[3].

وفضلاً عن الآيات المذكورة آنفاً، فقد أُشير إلى موضوع نبوّة النبيّ الكريم ﷺ في الكتب السماويّة السّابقة والبشارة به في آيات قرآنيّة أخرى متعدّدة[4]، وهذا الأمر يكشف عن أهمّيّة هذه العقيدة في مدرسة الأنبياء عليهم السلام.

إنّ أقدم الكتب المنسوبة إلى الأنبياء السابقين في العصر الراهن كتب العهدين (الشاملة للتوراة والإنجيل)، وعلى الرغم من أنّ هذه الكتب لم تكن في مأمن من التحريف، عمدَ بعضُ المحرّفين إلى حذف كثير من البشائر الواضحة الدالّة على نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ وخلفائه من بعده، أو غيّرت دلالتها الصّريحة على ذلك؛ حفاظاً على مصالحهم وحرصاً على مناصبهم الظّاهريّة، لا زالت بعض البشائر موجودة في هذه الكتب، وسنشير إلى موردين منها:

(1) سورة البقرة، الآية 146.

(2) سورة الصف، الآية 6.

(3) انظر: الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص60.

(4) انظر: سورة البقرة، الآيَتَيْن 89 و101؛ سورة آل عمران، الآيات 81-82 و187؛ سورة الأنعام، الآية 20؛ سورة الشعراء، الآيَتَيْن 196-197.

كانت وصيّة النبيّ موسى عليه السلام لبني إسرائيل قبل موته، حسبما ورد في سفر التثنية في التوراة، كما يأتي: «**جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ**»[1].

المقصود من مجيء الربّ إلى سيناء هو التوراة، وإشراقه من سعير الإنجيل، وتلؤلؤه من جبل فاران القرآن؛ ذلك أنّ سيناء محلّ بعثة النبيّ موسى عليه السلام، وسعير الواقعة في جنوب فلسطين محلّ بعثة النبيّ عيسى عليه السلام، وفاران الواقعة في مكّة محلّ بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأُشيرَ إلى نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم باللّغة العبريّة في إنجيل يوحنّا باسم «فارقْليط»[2]، التي تعني باللّغة العربيّة «أحمد». وجرى الحديث في بعض الأناجيل المُترجمة إلى العربيّة عن ظهور فارقْليط ودوام دينه.

كما وردت كثير من التّصريحات بنبوّة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في إنجيل برنابا كذلك، منها ما ذُكر في قصّة طرد النبيّ آدم وحوّاء من الجنّة: «**فاحتجبَ اللهُ وطردَهُما الملاكُ ميخائيلُ منَ الفردَوسِ، فلمّا التفتَ آدمُ رَأى مَكتوباً فَوقَ البابِ: لا إِلَه إِلّا اللهُ، مُحمّدٌ رَسولُ الله**»[3].

لقد كانت البشائر الدقيقة المنقولة في الكتب السماويّة واضحة إلى درجة أنّ بعض علماء الأديان الأخرى شخّصوا فيه علامات النبوّة في سنّ الطفولة والصبَا، وأعربوا عن إيمانهم به منذ ذلك الحين، ومن الأمثلة على ذلك، والتي تثبت أنّ المسيح عليه السلام قد هيّأ المسيحيّين لاستقبال ظهور النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، يمكن الإشارة إلى قصّة الراهب بحيرى مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خلال أوّل أسفاره مع عمّه أبي

(1) الكتاب المقدّس، العهد القديم، التوراة، سفر التثنية، الأصحاح 33؛ نقلاً عن: العسكري، الإمام العلاّمة أبي أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد، التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه، مطبعة الظاهر، 1326هـ- 1908م، لا.ط، ج4، ص17-20؛ ص114-115.

(2) انظر: العلاّمة العسكري، التصحيف والتحريف، ج4، ص114-124.

(3) إنجيل برنابا، الفصل 41؛ الآيتان 33 - 34.

طالب ضمن قافلة تجاريّة، وهو ابن ثمانية أعوام[1]، وكذلك قصّة لقائه بالرّاهب المسيحيّ في أحد أسفاره التجاريّة إلى الشّام في سنّ الخامسة والعشرين[2].

ومن النقاط الواضحة في بحث البِشارة هي أنّه لو كانت البِشارة لغرض الهداية فلا يمكن أن تكون مُبهمة ومعقّدة؛ ولذا وردت البشارات في النّصوص الأساسيّة بصورة صريحة وواضحة جدّاً غير قابلة للتّأويل.

لقد أطلق القرآن الكريم موضوع بشائر الأنبياء في بيئة مليئة بالأحقاد والعداوات، ولو كان هذا الادّعاء كاذباً وباطلاً ولم يُعثر على آثار بشائرهم في الكتب الدينيّة القديمة، لما هدأ بال أعداء الإسلام للحظة واحدة ولَوَأَدوا الدِّين الإسلاميّ في مهده. من هنا، لم تكن مخالفة علماء اليهود والنصارى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من منطلق عدم انطباق البشائر عليه؛ وإنّما كانت نابعة من العلم بحقيقته والوثوق بصواب دعوته[3].

(1) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1405هـ - 1363ش، لا.ط، ج1، ص182-188.

(2) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وإتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص190-191.

(3) انظر: سورة البقرة، الآيات 89، 101، 147؛ سورة آل عمران، الآية 187؛ سورة النمل، الآية 15؛ سورة الصف، الآية 6.

- ثمّة طريق آخر غير المُطالبة بالمعجزة للوقوف على صواب قول مدّعي النبوّة، وهو التحقّق من ذلك عن طريق جمع القرائن والشواهد الدالّة على صحّة مدّعاه.
- كفى النبيّ محمّداً ﷺ في هذا المجال، أنّ أهل مكّة كانوا يلقّبونه بـ«الصادق الأمين».
- كان سكان شبه الجزيرة العربيّة قبل الإسلام، يعيشون أوضاعاً ثقافيّة واجتماعيّة وأخلاقيّة مأساويّة، حتّى أُطلِق على ذلك العصر «العصر الجاهليّ». وأمّا بعد بزوغ فجر الإسلام، فقد انتقلوا من تلك الأوضاع المأساويّة إلى حضارة عظيمة غطّت أجزاء واسعة من العالم .
- لم يُؤْثَر عن النبيّ ﷺ أنّه قرأ وكتب قبل البعثة؛ لئلّا يُتّهم بقراءة الكُتب السماويّة الأخرى وكتابات الآخرين والاقتباس منها، وإلّا لبلغ المعاندون والأعداء المتربّصون به أهدافهم، وعمدوا إلى تكذيبه وإبطال نبوّته، والتّشكيك بكون القرآن الكريم كتاباً سماويّاً.
- إنّ الدِّين عند الله -سبحانه وتعالى- واحد، وهو الإسلام الذي يُشكّل النّقطة المُشتركة والمتّحدة بين الأنبياء الإلهيّين والذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين.
- كان الأنبياء طيلة التاريخ يدعون الناس في زمانهم إلى الإيمان بمجيء الرسل من بعدهم ويعِدونَهم بتحقّق هذا الوعد الإلهيّ، لا سيَّما رسول الله ﷺ.

الأسئلة

1. كيف يمكن إثبات صدق دعوى نبوّة نبيّ الإسلام ﷺ من خلال سجاياه الأخلاقيّة وسيرته الاجتماعيّة؟

2. اشرح معنى كون النبيّ ﷺ أُمّيّاً. كيف تستدلُّ بأُمّيّة النبيّ على صدق مدَّعاه؟

3. اذكر اثنتين من بشائر الأنبياء السابقين بالرسول الكريم ﷺ من التوراة والإنجيل، ثمّ قارنهما بالآيات القرآنيّة في هذا الخصوص.

4. ما هي أسماء النبيّ ﷺ في الكتب السماويّة القديمة، حسب رواية الإمام الباقر عليه السلام؟

الدرس التاسع عشر



الخاتميّة في النبوَّة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبيّن أنّ ختم النبوّة من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ.
2. يَرُدَّ على الإشكالات حول دلالة القرآن الكريم على ختم النبوّة.
3. يشرح السرّ في ختم النبوّة.



* تمهيد

تعرّفنا إلى الآن، على أهمّ مباحث النبوّة؛ حيث عرضنا صورة إجماليّة عن مفهوم النبوّة والرّسالة، وبيّنّا شروطهما ومسؤوليَّاتهما، مضافاً إلى الشّواهد والأدلّة المُستخدمة لإثبات صواب ادّعاء النبيّ ﷺ.

وفي القسم الآخر من مباحث النبوّة، تطرّقنا إلى النبوّة الخاصّة وإثبات نبوّة الرسول الكريم ﷺ. ومن الأبحاث المهمّة في هذا المجال، إثبات خاتميّة النبيّ الأكرم ﷺ، وهو ما سنبحثه في هذا الدرس.

* ختم النبوّة من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ

تفيد الآيات والروايات المتواترة الواردة في كتب جميع الفرق الإسلاميّة، أنّ الاعتقاد بكون الرسول الكريم ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، يعدّ من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ[1]. وهو بمعنى أنّ جميع المسلمين يؤمنون أنّه لا نبيّ بعده، واتّفقت كلمتهم على أنّه لا وحي إلى أحد بعده[2].

---

(1) ضروريّات الدِّين هي الأمور الواضحة في الدِّين بحيث أنّه ما من أحد يؤمن بذلك الدِّين إلّا وعدّ تلك الأمور من أجزائه، (المجلسي، حقّ اليقين، ص515-516؛ اللاهيجي، گوهر مراد (جوهر المراد)، ص399.

(2) انظر: مغنيّة، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، لبنان - بيروت، دار العلم للملايين، 1981م، ط3، ج6، ص225.

1. ختم النبوّة في القرآن الكريم

ثمّة تسع آيات في القرآن الكريم دلّت على خاتميّة نبوّة الرسول الأكرم ﷺ[1]، وسنشير هنا إلى واحدة من تلكم الآيات، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[2].

وأمّا حَوْلَ معنى «الختم» في اللّغة العربيّة، فيقال: ختمَ الشيء يَخْتمُه خَتْماً أي بلغَ آخرَه. وخاتمُ كلِّ شيءٍ وخاتمَته: عاقبته وآخرُه، والخاتَم والخاتِم مشتقٌّ من الفعلِ «خَتَمَ» وهو الذي خَتَمَ النبوّة بمَجيئه[3]؛ ولذا يعبَّر عن النبيّ ﷺ بـ«خاتَم النبيّينَ».

هذا وقد ذكروا إشكالين على دلالة هذه الآية على خاتميّة النبيّ الكريم ﷺ:

الإشكال الأوّل: على فرض أنّ معنى الخاتم هو المعنى المعروف المتقدّم ذكره، لكنّ هذه الآية تفيد أنّ النبيّ محمّداً ﷺ هو الخاتم لسلسلة الأنبياء، لا خاتم الرُّسل أيضاً.

الإشكال الثاني: كلمة «الخاتم» تعني ما يُلبس في الأصبع للزّينة، وربّما كان هذا المعنى هو المُراد في هذه الآية؛ وعندئذٍ يكون معنى «خاتم النبيّين» زينة الأنبياء لا آخرهم.

الردّ على الإشكال الأوّل: إنّ كلّ نبيّ حائز على مقام الرسالة يمتلك مقام النبوّة أيضاً، فبانتهاء سلسلة الأنبياء تنتهي سلسلة الرسل أيضاً[4]. وقد أشرنا في الدروس الماضية إلى الفرق بين الرسول والنبيّ.

(1) الآيات الثماني الأخرى هي: سورة فصّلت، الآيتَيْن 41 - 42؛ سورة الأنعام، الآيتَيْن 20 - 115؛ سورة سبأ، الآية 28؛ سورة الأعراف، الآية 158؛ سورة القلم، الآية 52؛ سورة الأنبياء، الآية 107.

(2) سورة الأحزاب، الآية 40.

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص164؛ الزبيدي، تاج العروس، مصدر سابق، ج16، ص191؛ ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة، مصدر سابق، ج2، ص246.

(4) أنظر: الشيخ اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص269.

الردّ على الإشكال الثاني: إنّ ما ذكره اللغويّون حول معنى «خاتَم» على وزن «حاتَم» هو بلوغ آخر الشيء ونهايته، وكذلك بمعنى ما يُختم به على الأوراق والكتب؛ فمن المتعارف منذ القدم وضع مادّة لاصقة على فتحة الرسالة أو الكتاب وختمه، إن أريد عدم اطّلاع الآخرين عليه، وكذلك البيت أو المتجر المراد إقفاله وعدم فتحه من قبل الآخرين، ويُطلَق على هذا المُهر «الختم»؛ ولذا عبّر بعض اللغويّين عن ذلك بقوله: «ما يُوضَع على الطِّينة... والخِتامُ: الطِّينُ الذي يُخْتَم به على الكتاب»[1]. وما ذلك كلّه إلّا لأنّ هذا اللفظ مأخوذ من مادّة «خَتَمَ» بمعنى بلوغ النهاية، ولمّا كان هذا العمل (الختم بالمُهر) يحصل في النهاية والخاتمة أُطلق عليه لفظ «الختم».

ومن هنا، تُطلق هذه الكلمة على الخاتم الذي يُلبس في اليد للزّينة؛ لأنّه يُنقش عليه المُهر ومن ثمّ تُختم به الكتب والرسائل عادةً؛ ولذا عادةً ما يدور الكلام، عند الحديث عن أحوال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأئمّة الهدى عليهم السلام والشخصيّات الأخرى، حول النقوش التي تُزيّن خواتمهم.

وبهذا يتبيّن أنّ أصل الخاتم الذي يُلبس في اليد للزّينة في عصرنا الحاليّ، هو الختم بمعنى الانتهاء من العمل؛ حيث كان يُطلَق سابقاً على الخواتم التي تُمهر بها الكتب.

هذا وقد استعملت مادّة «خَتَمَ» في القرآن الكريم في ثمانية موارد، جميعها بمعنى الإنهاء والطبع على القلب، نحو: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾[2]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾[3].

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص163.
(2) سورة يس، الآية 65.
(3) سورة البقرة، الآية 7.

ومنه يتّضح أنّ أولئك الذين شكّكوا في دلالة الآية على خاتميّة نبيّ الإسلام ﷺ وكونه آخر الأنبياء، لم يفهموا معنى هذه الكلمة أو تغافلوا عن معناها الصحيح، وإلّا فمعنى عبارة «خاتم النبيّين» واضحة الدلالة على الخاتميّة.

2. ختم النبوّة في الروايات

وردت في الكتب الحديثيّة لأهل السنّة روايات كثيرة حول موضوع خاتميّة النبيّ الأكرم ﷺ[1]، فبلغت إلى حدّ التواتر حسبما ادّعى ابن كثير في تفسيره[2]، كما أنّ الروايات التي نقلها الشيعة في كتبهم الحديثيّة بلغت التّواتر أيضاً. ويمكن الإشارة إلى بعض هذه الروايات:

أ. لمّا خرج النبيّ ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك، جعل فيها أمير المؤمنين عليه السلام ليخلفه في أمور المسلمين، وحينما شاهد الحزن في عينيه نتيجة الحرمان من المشاركة في الجهاد قال له: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّه لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[3].

ب. قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ ذِكْرُهُ خَتَمَ بِنَبِيِّكُمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ أَبَدَاً، وَخَتَمَ بِكِتَابِكُمُ الْكُتُبَ فَلَا كِتَابَ بَعْدَهُ أَبَداً**»[4].

* السرّ في ختم النبوّة

يعود السرّ في ختم النبوّة إلى سببين رئيسيّين هما عالميّة الدّعوة النبويّة وخلود الدِّين الإسلاميّ، وسنقدّم شرحاً مختصراً لكلّ واحد من هذين الرّكنين الأساسيّين من أركان الخاتميّة:

---

(1) انظر: ابن كثير، إسماعيلبن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، 1412هـ - 1992م، لا.ط، ج6، ص381-384.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج6، ص381.

(3) انظر: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص78؛ الشيخ المفيد، الإرشاد، مصدر سابق، ج1، ص156.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص269.

1- عالميّة الدعوة النبويّة

إنّ عالميّة الدّعوة النبويّة وعدم اختصاصها بقوم أو بمنطقة خاصَّة تعدّ من المبادئ الواضحة لدين النبيّ الأكرم ﷺ، فحتّى أولئك الذين لا يؤمنون بهذا الدِّين يعلمون جيّداً أنّ الدّعوة الإسلاميّة عامّة وشاملة للبشريّة قاطبة، وأنّها غير محدودة بمنطقة جغرافيّة محدّدة.

وخير دليل -بل وأقوى الأدلّة- لإثبات هذا المدّعى، هو القرآن الكريم الذي بان صوابه وثبتت صحّته في الدّروس المتقدّمة. فلو ألقينا نظرة إجماليّة على هذا الكتاب الإلهيّ المقدّس، لأدركنا بكلّ وضوح أنّ دعوته كانت عامّة وشاملة، ولا تختصّ بقوم أو عرق أو لغة معيّنة.

ولذا، نرى أنّ القرآن خاطب عموم الناس بخطابات من قبيل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[1]، و﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾[2]، وأكّد على أنّ هدايته شاملة لجميع ﴿ٱلنَّاسِ﴾[3]، و﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[4]. وذكر في مواطن عدّة وآيات كثيرة، أنّ رسالة النبيّ الأكرم ﷺ جاءت لـ﴿لِلنَّاسِ﴾[5] كافّة ولـ﴿لِلْعَـٰلَمِينَ﴾[6]: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[7].

حيث إنّ دخول الألف واللآم على كلمة «عالمين» في هذه الآية يُفيد العموم بحسب قواعد اللّغة العربيّة، فـ«العالَمين» تعني جميع سكّان العالم؛ ولذا، فالقرآن نذيرٌ للنّاس كافّة، في كلّ زمان ومكان حتّى يوم القيامة، ولا يختصّ بزمانٍ أو مكانٍ معيّن.

---

(1) انظر: سورة البقرة، الآية 21؛ سورة النساء، الآيتَيْن 1، 174؛ سورة فاطر، الآية 15.

(2) انظر: سورة الأعراف، الآيات 26، 27، 28، 31، 35؛ سورة يس، الآية 60.

(3) انظر: سورة البقرة، الآيتَيْن 185 و187؛ سورة آل عمران، الآية 138؛ سورة إبراهيم، الآيتَيْن 1 و52؛ سورة الجاثية، الآية 20؛ سورة الزمر، الآية 41؛ سورة النحل، الآية 44؛ سورة الكهف، الآية 54؛ سورة الحشر، الآية 21.

(4) انظر: سورة الأنعام، الآية 90؛ سورة يوسف، الآية 104؛ سورة التكوير، الآية 27؛ سورة القلم، الآية 52.

(5) انظر: سورة النساء، الآية 79؛ سورة الحجّ، الآية 49؛ سورة سبأ، الآية 28.

(6) انظر: سورة الأنبياء، الآية 107؛ سورة الفرقان، الآية 1.

(7) سورة الفرقان، الآية 1.

وفي آية قرآنيّة أخرى، جرى التأكيد على شمول الدعوة النبويّة لكلّ من اطّلع عليها. وفي بعض الآيات خُوطب أتباع سائر الدّيانات الأخرى وعوتبوا تحت عنوان «أهل الكتاب»[1]، وأُثبتت لهم الرسالة النبويّة، واعتُبر الهدف من نزول القرآن الكريم على النبيّ ﷺ انتصار الإسلام وظهوره على الأديان الأخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[2].

هذا مضافاً إلى وجود شواهد تاريخيّة متعدّدة دالّة على أنّ النبيّ ﷺ أرسل كتباً إلى ملوك الدول كقيصر الروم، وكسرى إيران، وملوك مصر والحبشة والشّام، ورؤساء القبائل العربيّة المختلفة، وبعث لهم الرُّسل، ودعاهم جميعاً إلى اعتناق هذا الدِّين المقدّس، وحذّرهم من تبعات الإصرار على الكفر ومغبّة عدم الدخول في الإسلام. ولولا هذا البُعد العالميّ للدِّين الإسلاميّ لما تمّت مثل هذه الدعوة العامّة، ولكان أمام الأقوام والأمم الأخرى عذرٌ لرفض الانضواء تحت راية الإسلام.

في ضوء هذه الأدلّة، لا يبقى أيّ مجال للشكّ في عموم الدّعوة النبويّة وعالميّة الدِّين الإسلاميّ المقدّس.

2- خلود الدِّين الإسلاميّ

إنّ الدِّين الإسلاميّ يحمل لواء هداية الناس إلى يوم القيامة؛ لأنّه دين خالد، وهذا الخلود رهن ببعدين أساسيّين:

أ. خلود القرآن الكريم: يختلف الكتاب السماوي للدِّين الإسلاميّ عن الكتب والنّصوص الدينيّة الأخرى في كونه كتاباً خالداً، وقد قال القرآن الكريم في هذا الصّدد:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3].

(1) انظر: سورة آل عمران، الآيات 65، 70، 71، 98، 99، 110؛ سورة المائدة، الآيتَيْن 15 و19.
(2) انظر: سورة التوبة، الآية 33؛ سورة الفتح، الآية 38؛ سورة الصفّ، الآية 9.
(3) سورة فصّلت، الآيتان 41 - 42.

ويُستفاد من هذه الآية الشريفة أنّ القرآن الكريم لن يفقد صحّته واعتباره مدى الدّهر، وقد صرّحت بعض الروايات بهذه الحقيقة أيضاً، ومنها ما رُوي من أنّ زرارة سأل الإمام أبا عبد الله الصّادق عليه السلام عن الحلال والحرام، فقال: «**حَلَالُ مُحَمَّد حَلَالٌ أَبَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وحَرَامُهُ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَكُونُ غَيْرُهُ وَلَا يَجِيءُ غَيْرُهُ**»[1].

ب. نظام الإمامة والولاية: على الرغم من انقطاع حبل النبوّة بعد نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم، إلّا أنّ الشريعة الإسلاميّة لا زالت حيّة ونضرة وفاعلة وستبقى كذلك إلى يوم القيامة. ولمزيد من الإيضاح نقول: إنّ بعثة الأنبياء الإلهيّين جاءت لأهداف معيّنة، لم تنتهِ بموت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولذا لا تنتهي حاجة البشر إلى بلوغ النتائج التي بُعث من أجلها الأنبياء.

فتلاوة الآيات الإلهيّة، وتعليم الكتاب والحكمة، ونشر المعرفة الإلهيّة، وإعلام الناس بالأوامر والنّواهي الإلهيّة، وإتمام الحجّة الإلهيّة، والتبشير والإنذار، وبيان الحقّ ورفع الاختلافات الدينيّة، ورفع مقام الإنسان من مرتبة الحيوانيّة إلى أرفع الكمالات الإنسانيّة، وإقامة القسط والعدل، وغيرها من أهداف بعثة الأنبياء، لا تقتصر على حياة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا ريب في أنّ عدم الاكتراث بهذه الأهـداف، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحول دون حصول البشريّة على نتائج بعثة الأنبياء، وتتجلّى ضرورة بلوغ تلك الأهداف في وجوب الإمامة بعد عصر النبوّة؛ ولذا، تُعدّ الإمامة التي يؤمن بها الشّيعة امتداداً لرسالة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بغية تحقيق جميع أهداف الأنبياء. على أنّ الفارق الوحيد بين الإمام والنبيّ يتجسّد في انقطاع الوحي التشريعيّ الذي يُعدّ من أهمّ معالم النبوّة عند وفاة النبيّ، فيما تبقى المقامات الأخرى لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم متجلّية في الأئمّة من بعده.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص58.

وحديث المنزلة المأثور عن رسول الله ﷺ والذي نقلناه قبل قليل، يكشف عن هذه الحقيقة بشأن أمير المؤمنين عليه السلام فضلاً عن بيان موضوع الخاتميّة؛ حيث إنّه يشير إلى التناظر بين منزلة النبيّ وأمير المؤمنين واقتصار الاختلاف على مقامهما في الوحي والنبوّة التشريعيّة. وهذا الكلام يعني أنّ خاتمة الشّرائع برمّتها قد أُوحِيت من الله -سبحانه وتعالى- إلى النبيّ الأكرم ﷺ ولم يوحَ إلى الأئمّة أيّ شريعة جديدة في نظام الإمامة؛ ولهذا السبب، سيبقى حلال الله والنبيّ محمّد ﷺ حلالاً وحرامهما حراماً إلى يوم القيامة[1]. وعندئذ يكون الواجب الأساسيّ للأئمّة المعصومين هو تبيين شريعة خاتم النبيّين ﷺ وتطبيقها على المجتمع المسلم.

(1) انظر: الصدوق، عيون أخبار الرِّضا عليه السلام، مصدر سابق، ج2، ص20-21.

المفاهيم الرئيسة

- تفيد الآيات والروايات المتواترة الواردة في كتب جميع الفرق الإسلاميّة، أنّ الاعتقاد بكون الرسول الكريم ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، يعدّ من ضروريّات الدِّين الإسلاميّ.
- ثمّة تسع آيات في القرآن الكريم دلّت على خاتميّة نبوّة الرسول الأكرم ﷺ.
- إنّ كلّ نبيّ حائز على مقام الرسالة يمتلك مقام النبوّة أيضاً، فبانتهاء سلسلة الأنبياء تنتهي سلسلة الرُّسل أيضاً.
- وردت في الكتب الحديثيّة لأهل السنّة روايات كثيرة حول موضوع خاتميّة النبيّ الأكرم ﷺ، فبلغت إلى حدّ التواتر.
- إنّ عالميّة الدّعوة النبويّة وعدم اختصاصها بقوم أو منطقة خاصّة، تعدّ من المبادئ الواضحة لدين النبيّ الأكرم ﷺ، فحتّى أولئك الذين لا يؤمنون بهذا الدِّين يعلمون جيّداً أنّ الدّعوة الإسلاميّة عامّة وشاملة للبشريّة قاطبة.
- إنّ الدِّين الإسلاميّ يحمل لواء هداية الناس إلى يوم القيامة؛ لأنّه دين خالد، وهذا الخلود رهن ببعدين أساسيّين:

  أ. خلود القرآن الكريم، ب. نظام الإمامة والولاية.
- تُعدّ الإمامة التي يؤمن بها الشّيعة امتداداً لرسالة النبيّ الكريم ﷺ بغية تحقيق جميع أهداف الأنبياء. إلّا أنّ الفارق الوحيد بين الإمام والنبيّ يتجسّد في انقطاع الوحي التشريعيّ.

الأسئلة

1. ما معنى الضرورة في الدِّين؟ ولماذا كان ختم النبوّة من الضروريّات الإسلاميّة؟
2. أثبِت ختم النبوّة من وجهة نظر القرآن الكريم والروايات.
3. أثبِت أنّ الدِّين الإسلاميّ دينٌ عالميٌّ، مع ذكر شواهد من القرآن في التاريخ.
4. ما هي عوامل خلود الدِّين الإسلاميّ؟ اذكر جواباً وافياً ومبسوطاً.
5. كيف أُديرَ ملفُّ قيادة المجتمع الإسلاميّ، بعد وفاة رسول الله ﷺ في ضوء موضوع الخاتميّة؟

الباب الخامس

الإمامة

الدرس العشرون

الإمامة مفهومها والحاجة إليها

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف معنى الإمامة، لغةً واصطلاحاً.
2. يقرأ أهمّيّة بحث الإمامة من ناحية الحاجة إلى خليفة للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.
3. يشرح أهمّيّة بحث الإمامة من ناحية ابتناء المنظومة العقديَّة عليها.

* تمهيد

في مستهلّ بحث الإمامة، لا بدّ من التعرّف على مفهوم الإمامة، وبيان ضرورة بحث هذا الأصل العقديّ؛ ذلك أنّ بعض المُغرضين يحاولون إثارة شبهة مفادها أنّ بحث الإمامة لا يعدو كونه موضوعاً تاريخيّاً، ولم تعد له فائدة في عصرنا الرّاهن. هذا الدرس سيبيّن لنا أهمّيّة موضوع الإمامة في الفكر الإسلاميّ.

هذا، ويُعدّ الإيمان بالإمامة وقيادة الأئمّة المعصومين المنصوبين من الله -سبحانه وتعالى- بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من الأصول المهمّة في الإسلام، وقد شهد التاريخ نشوب أوّل خلاف بين أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته حول مسألة الإمامة، ثمّ حظيت هذه المسألة باهتمام شديد من علماء الإسلام[1]. من هنا، تناول علماء الإماميّة بحث موضوع الإمامة بصورة موسّعة في مؤلّفاتهم التفسيريّة والروائيّة والتاريخيّة ورسائلهم الكلاميّة والعرفانيّة[2].

(1) انظر كتاب: أبو عباس الناشئ الأكبر، عبدالله بن محمد، مسائل الإمامة، تحقيق وتقديم: يوسف فان إس، الناشر: بيروت، 1971م، دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن. وأبو العباس عبد الله بن محمد (ت293هـ - 906م)، ويُلقَّب بالناشئ الأكبر، وعُرِفَ كذلك بابن شرشير أو ابن شوشير، وهو كاتب وأديب وشاعر ولغوي عاش في العصر العباسيّ الأوَّل.

(2) لاحظ: الرفاعي، عبد الجبار، معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام، وزارة الإرشاد الإسلامي، لا.ت، لا.ط، ج5، ص133؛ ج10، ص69.

في بداية الحديث، ينبغي بحث مفهوم الإمامة وشرح معناها باعتبارها من أهمّ الأصول العقديّة، ومن ثمّ دراسة ضرورتها وأهمِّيَّتها للمسلمين والمجتمع الإسلاميّ.

* مفهوم الإمامة

تعني الإمامة لغةً، التقدّم على الآخرين، والإمام هو «كُلُّ مَنْ ائتَمَّ بِهِ قَوْمٌ كَانُوا عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم أو كَانُوا ضَالِّيْنَ»[1].

وأمّا اصطلاحاً -في اصطلاح المتكلّمين المسلمين- فالإمامة هي القيادة الدّينيّة والسياسيّة للناس بعد النبيّ الأكرم ﷺ؛ لذا قالوا في تعريفها:

«هِيَ رِئَاسَةٌ عَامَّةٌ فِي أَمرِ الدِّينِ والدُّنيَا خِلافَةً عَنِ النَبِيِّ ﷺ»[2].

وعرّفها العلماء من الشيعة والسنّة بهذه العبارة أو بعبارة قريبة منها غالباً[3].

وقد جرى التعبير عن موضوع الإمامة في القرآن الكريم بتعابير مختلفة، فورد لفظ «إمام» أو «أئمّة» في اثنتي عشرة آية، وأريد منه المعنى اللّغويّ المعروف، أي المقتدى والمؤتمّ به[4].

* ضرورة بحث الإمامة

تُعتبر الإمامة من الأصول والمبادئ العقديّة الأساسيّة، فيجب على كلّ مسلم البحث في هذا الموضوع، ويمكن إثبات ضرورة البحث حول الإمامة بالطرق الآتية:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص24، مادّة «أمم».

(2) التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية، باكستان، 1401هـ - 1981م، ط1،ج5، ص232.

(3) انظر: القاضي الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف (شرح علي بن محمد الجرجاني)- مع حاشيتين إحداهُما لعبد الحكيم السيالكوتي، والثانية للمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري، لا.ن، لا.م، 1325هـ - 1907م، ط1، ج8، ص376، هذا، ويجدر التنبيه مرة أخرى إلى أنّ هذا هو التعريف الكلاميّ للإمامة. وللحكماء الشيعة في مدرسة الحكمة المتعالية تحقيقات مهمّة حول مفهوم الإمامة، يمكن لمن أراد الاطلاع عليها مراجعة تفسير الميزان للعلّامة الطباطبائيّ رَحِمَهُ اللهُ (الإعداد).

(4) هذه الآيات هي: سورة البقرة، الآية 124؛ سورة التوبة، الآية 12؛ سورة الحجر، الآية 79؛ سورة الإسراء، الآية 71؛ سورة الأنبياء، الآية 73؛ سورة السجدة، الآية 24؛ سورة الفرقان، الآية 74؛ سورة هود، الآية 17؛ سورة القصص، الآيتَيْن 5 و14؛ سورة الأحقاف، الآية 12؛ سورة يس، الآية 12.

1. الأهمّيّة بلحاظ الحاجة إلى خليفة للنبيّ

لا ريب في تبادر هذا السؤال إلى ذهن الباحث عن الحقيقة: ألم يحدّد الله -سبحانه وتعالى- شخصاً لقيادة المجتمع بعد وفاة رسول الله ﷺ؟ وإن كان الأمر كذلك، فمن هو هذا الشخص؟ فعلى الأقلّ ثمّة احتمال بوجود شخص تجب طاعته على الناس بحكم الأمر الإلهيّ، لكونه مفسّراً للقرآن ومبيّناً للأحكام وقائداً لهم في الدنيا والآخرة. ومع وجود مثل هذا الاحتمال، يحكم العقل أنّ الإنسان مكلّف بالتحريّ عن الحقيقة والبحث عمّا يأمر الله به. وفي هذه الحالة لا يكون الإنسان معذوراً لو قصّر في هذا التكليف وثبت وجود مثل هذا الشخص واقعاً[1].

2. الأهمّيّة من ناحية المنظومة العقديّة

لقد جرى الكلام في القرآن الكريم وأحاديث المعصومين عليهم السلام عن موضوع الإمامة بطريقة تكشف عن أهمّيّتها الكبيرة ومكانتها الرفيعة في منظومة العقائد الدينيّة، ومن ذلك قوله -سبحانه وتعالى- في محكم كتابه الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

فطبقاً لهذه الآية، أُمر بإطاعة أولي الأمر إلى جانب الله ورسوله، وحُكم بوجوبها، ومن المسلّم به أنّه لا يمكن إطاعة وليّ الأمر دون معرفته. ومن الواضح أنّ المراد من «أولي الأمر» في هذه الآية الشريفة، هو من ينطبق عليه عنوان صاحب الولاية والذي تجب على الأمّة طاعته في المرتبة التي تتلو إطاعة النبيّ ﷺ.

ومن هذا المُنطلق، تجب معرفة الإمام من باب المقدّمة لطاعته، ولا يُعذر أيّ شخص في ترك معرفة إمامه والبحث في هذا الموضوع مطلقاً[3].

(1) انظر: الصافي الكلبايكاني، نظام امامت ورهبرى (نظام الإمامة والقيادة)، ص1.
(2) سورة النساء، الآية 59.
(3) انظر: الصافي الكلبايكاني، نظام امامت ورهبرى (نظام الإمامة والقيادة)، ص1.

وفي ما يرتبط بأهمِّيَّة الإمامة ومنزلتها بين سائر الأصول العقديّة الأخرى، قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في تفسير الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1]، فكما جاء في الرواية: «**رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم الْمُنْذِرُ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ مِنَّا هَادٍ يَهْدِيهِمْ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّ الله**»[2].

على هذا الأساس، لا ريب في استمرار الإمامة وتواصلها باعتبارها النظام الهادي للمجتمع بعد النبوّة، وهذا بدوره يكشف عن أهمّيّتها الكبيرة في استمرار أصل الرسالة.

ومن هنا، شدّد الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام خلال وصفه للإمامة الإلهيّة على أنّ الدِّين لا يكتمل أساساً دون الإمامة، فقال: «**أَمْرُ الإِمَامَةِ مِنْ تَمَامِ الدِّينِ... فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللهَ (عزَّ وَجَلَّ) لَمْ يُكْمِلْ دِينَهُ فَقَدْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ، وَمَنْ رَدَّ كِتَابَ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِهِ**»[3].

نعم، بلّغ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ما تحتاجه الأمّة الإسلاميّة من أحكام في عصره؛ لكن توجد مسائل وأحكام لم يكن قد حان وقت العمل بها آنذاك؛ ولذا أودعها لدى وصيّه ليبيّنها للناس في الوقت المناسب[4]؛ لذا نرى أنّ كثيراً من المعارف والحقائق الدينيّة الواردة في القرآن والسنّة ذُكرت بصورة عامّة ومجملة، ووظيفة الإمام شرحها وتوضيحها عن طريق العلم الذي وصلَ إليه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إلى هنا، اتّضح أنّ الإمامة من الأصول الأساسيّة للدِّين، ومن المتعذّر معرفة الدِّين معرفة تامّة دون معرفة الإمام؛ ولهذا، أشارت بعض الروايات النبويّة إلى أهمّيّة معرفة الإمام بصورة مباشرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخصوص: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[5].

(1) سورة الرعد، الآية 7.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص191.
(3) المصدر نفسه، ص198.
(4) انظر: مرتضى العسكري، نقش ائمه در احياء دين (دور الأئمّة في إحياء الدين)، ج2، ص25.
(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص397؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص259.

3. النتائج العمليّة للاعتقاد بالإمامة

يمكن إدراك أهمّيّة الإمامة من خلال النتائج العمليّة للاعتقاد بها؛ حيث إنّ الإيمان بالإمام المعصوم يحول دون تسلّل المُنحرفين والمُغرضين وغير المؤهّلين إلى الحكومة، ويمنع انحراف القيادة عن السيرة النبويّة والسنّة المحمّديّة، وبخلاف ذلك فإنّ المجتمع الإسلاميّ يواجه مشاكل عويصة من قبيل الابتداع في الدِّين وتصدّي الأفراد غير الصالحين للسُّلْطة والانحراف عن مسار القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة.

وما التاريخ الإسلاميّ بعد وفاة النبيّ الكريم ﷺ إلّا خير دليل على هذا المُدّعى، فيبيّن بوضوح كيف انحرف المجتمع الإسلاميّ عن المسار الصحيح، وكيف آلَ الحكم وقيادة الأمّة الإسلاميّة إلى بني أميّة وبني العباس، فتسلّط على رقاب المسلمين حكّام لا يتوانون عن ارتكاب كلّ أشكال الظُّلم والجَور مثل يزيد بن معاوية والمنصور الدوانيقيّ[1].

لم تنخر هذه الانحرافات جسد الأمّة الإسلاميّة ولم يُبْتَلَ المسلمون بهذا الفساد الكبير إلّا بعد سلب الخلافة من أهلها الحقيقيّين الذين أوصى بهم نبيّ الإسلام ﷺ، وتولّي غير المؤهّلين لدفّة الحكم، والعمل بأنواع البدع والانحرافات باسم الدِّين والسنّة[2].

ومن هذا المُنطلق، لا بدّ للمُسلم من دراسة موضوع الإمامة بتجرّد وبمنتهى الجِدّيّة وبعيداً عن كلّ أشكال التعصّب والتقليد، والتعرّف بصورة مستدلّة إلى المذهب الحقّ والوقوف إلى جانبه.

(1) انظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط4،ج1، ص279؛ ج4، ص225؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، لجنة من الأدباء، لبنان - بيروت، مطابع معتوق إخوان، لا.ت، لا.ط، ص137 و223؛ ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الامامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات شريف الرضي، 1413هـ - 1371ش، ط1، ص223.

(2) انظر كتاب: شرف الدّين، السيد عبد الحسين، النصّ والاجتهاد، ط1، دار القارئ، 1429هـ- 2008م؛ السيد مرتضى العسكريّ، نقش ائمه در احياء دين (دور الأئمّة في إحياء الدين)، فارسي.

- يُعَدُّ الإيمان بالإمامة وقيادة الأئمّة المعصومين المنصوبين من الله -سبحانه وتعالى- بعد النبيّ الأكرم ﷺ من الأصول المهمّة في الإسلام.
- الإمامة اصطلاحاً، هي القيادة الدينيّة والسياسيّة بعد النبيّ الأكرم ﷺ؛ لذا قالوا في تعريفها: «هِيَ رِئَاسَةٌ عَامَّةٌ فِي أَمرِ الدِّينِ والدُّنيَا خِلافَةً عَنِ النَبِيِّ ﷺ» .
- فطبقاً للآية الكريمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ أُمر بإطاعة أولي الأمر إلى جانب الله ورسوله، وحُكم بوجوبها، ومن المسلّم به أنّه لا يمكن إطاعة وليّ الأمر دون معرفته.
- لا ريب في استمرار الإمامة وتواصلها باعتبارها النظام الهادي للمجتمع بعد النبوّة، وهذا بدوره يكشف عن أهمّيّتها في استمرار أصل الرسالة.
- بلّغ النبيّ الكريم ﷺ ما تحتاجه الأمّة الإسلاميّة من أحكام في عصره؛ لكن توجد مسائل وأحكام لم يكن قد حان وقت العمل بها آنذاك؛ ولذا أودعها لدى وصيّه ليبيّنها للناس في الوقت المناسب.
- يمكن إدراك أهمّيّة الإمامة من خلال النتائج العمليّة للاعتقاد بها؛ حيث إنّ الإيمان بالإمام المعصوم يحول دون تسلّل المُنحرفين والمُغرضين وغير المؤهّلين إلى الحكومة.
- لم تنخر هذه الانحرافات جسد الأمّة الإسلاميّة ولم يُبْتَلَ المسلمون بهذا الفساد الكبير إلّا بعد سلب الخلافة من أهلها الحقيقيّين الذين أوصى بهم نبيّ الإسلام ﷺ.

الأسئلة

1. بيّن ما معنى كلمة «الإمامة» في اللّغة العربيّة، وأثبت أنّ هذا المعنى هو المراد في القرآن الكريم أيضاً.

2. لو قال شخص بعدم ضرورة بحث الإمامة، كيف تستدلّ على لزوم بحثها بدليل عقليّ وآخر نقليّ؟

3. أثبت بدليل عمليّ ضرورة بحث موضوع الإمامة.

الدرس الحادي والعشرون

أدلّة حاجة الأمّة إلى الإمام

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعدّد دور الإمام في تبيين أحكام الله للناس.
2. يتعرّف دور الإمام في رفع الاختلاف بين النّاس.
3. يشرح دور الإمام في تحقيق الدين وإقامة الحدود الإلهيّة.

* تمهيد

على الرغم من ترتّب هذا البحث على معرفة الإمام وخصائصه، لكن بما أنّه غالباً ما يتبادر إلى الأذهان السؤال عن الحاجة إلى وجود الإمام في بداية بحث الإمامة؛ فلا بدّ لنا من التطرّق إلى أهمّ الأدلّة في هذا المجال بصورة مختصرة:

* تبيين الدِّين

يُعدّ الدِّين الإسلاميّ آخر الأديان الإلهيّة وأكملها والكفيل بتلبية الاحتياجات المادّيّة والمعنويّة للبشر إلى يوم القيامة؛ ولذا، أكّد القرآن الكريم على أنّه: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾[1]، و﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾[2]، والحاوي لجميع الحقائق وسبل إسعاد البشريّة. وفي الوقت الذي تمّ بيان بعض الحقائق في هذا الكتاب السماويّ بصورة واضحة ودون لبس، ورد جلّها بصورة مختصرة وإجماليّة؛ وهذا يفيد بأنّ الناس وحدهم ودون معلّم إلهيّ غير قادرين على الاستفادة من القرآن استفادة تامّة.

(1) سورة آل عمران، الآية 138.
(2) سورة إبراهيم، الآية 52.

ومن هنا، نادى القرآن الكريم بصوتٍ عالٍ، أنّ البشر بحاجة إلى «مُبيِّن» ليتمكنوا من الاستفادة من القرآن؛ ولهذا السبب كان رسول الله ﷺ يبيّن للنّاس ما يختلفون فيه من الأمور الدينيّة والمسائل المختلفة، لا سيَّما في فهم القرآن الكريم. قال (جلّ وعلا) في هذا الخصوص: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ثمّ أشار بصورة عامّة إلى دور النبيّ ﷺ والآخرين من العلماء الربّانيّين في التبيين المطلوب، فقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

فأوضحت الآية الشريفة الأخيرة بصراحة أنّ علم تفسير الآيات القرآنيّة موجود في صدور أشخاص معيّنين. ويُستفاد من ذلك أنّ الله -سبحانه وتعالى- يؤكّد على وجود عالم واعٍ في كلّ عصر لتبيين الحقائق الواردة في القرآن الكريم بصورة مُجملة، ومن البديهيّ لزوم أن يكون هذا العالم متسلّحاً بالعلم الإلهيّ؛ ليكون بمقدوره بيان جميع الوجوه الخفيّة للقرآن.

ولا يخفى أنّ هذه الموارد المُجملة في القرآن الكريم، بما فيها المعارف العقديّة والأخلاقيّة والسياسيّة والاقتصاديّة وغيرها، كثيرة وواسعة جدّاً، ما يعني بقاء كثير من الوجوه الدينيّة مجهولة وخفيّة عند عدم وجود المُبيِّن الإلهيّ، وسنشير هنا إلى مثال واحد على هذه الحقيقة الناصعة.

أجمع المسلمون على أنّ الصلاة أهمّ العبادات وأنّها عمود الدِّين، وفي الوقت نفسه لم يرد في القرآن الكريم بشأن كيفيّة أدائها إلّا النزر اليسير، بحيث لا يمكن معرفة خصوصيّات هذه العبادة المهمّة بالرجوع إلى هذا الكتاب السماويّ فقط، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، اتّفق جميع المسلمين على كثير من خصوصيّات الصلاة، نحو عدد الصلوات اليوميّة وعدد ركعاتها؛ وعندئذٍ لنا أن نتساءل: ما هو

(1) سورة النحل، الآية 44.

(2) سورة العنكبوت، الآية 49.

منشأ هذا الاتفاق؟ والجواب أنّ النبيّ الأكرم ﷺ نفسه بيّن أجزاء الصلاة وأركانها، وقال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»[1].

وعلى غرار ذلك، ينبغي وجود أشخاص بعد النبيّ الأكرم ﷺ أيضاً ليبيّنوا للنّاس أحكام الله في الموارد التي لم يبيّنها النبيّ ﷺ، فمن الطبيعيّ أنّ النبيّ ﷺ لم تسنح له الفرصة لبيان جميع المعارف الدّينيّة والقرآنيّة للأُمّة الإسلاميّة، كما أنّ التّحريف طال كثيراً من الموضوعات حتّى جوانب من الصلاة التي حرص النبيّ ﷺ على شرح أغلب أبعادها إبّان حياته؛ وذلك بسبب الغفلة أو الجهل، وهذا ما صرّح به كثير من علماء أهل السنّة أيضاً[2].

❋ رفع اختلاف الأمّة والحفاظ على الوحدة

من جملة وظائف النبيّ الكريم ﷺ، رفع الاختلاف بين مكوّنات الأمّة الإسلاميّة والحفاظ على وحدتها ورصّ صفوفها حول حبل الحقائق الإلهيّة. وعلى هذا، فإنّ القرآن الكريم قد أكّد على ضرورة مرافقة الرسول للكتاب لإيضاح الحقائق ورفع الخلافات بين المسلمين: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

من هنا، ذهب القرآن الكريم إلى أنّ من أهمّ وظائف المؤمنين -والذي يُمثّل شرط اكتمال الإيمان أيضاً- الرجوع إلى النبيّ ﷺ في موارد الاختلاف والقبول بحكمه من أعماق القلب ودون أيّ حرج، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[4].

(1) ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن علي، عوالي اللئالي، تقديم: السيد شهاب الدين النجفي المرعشي، تحقيق: الحاج آقا مجتبى العراقي، لا.ن، لا.م، 1403هـ - 1983م، ط1، ج3، ص85.

(2) انظر: البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.م، 1401هـ - 1981م، لا.ط، ج1، ص91.

(3) سورة النحل، الآية 64.

(4) سورة النساء، الآية 65.

وفي حالة عدم وجود خليفة إلهيّ في المجتمع الإسلاميّ بعد النبيّ ﷺ، لا يجد الناس من يرجعون إليه في موارد الاختلاف؛ ولذا، لا بدّ من وجود أفراد حاملين لعلم النبيّ ﷺ وقادرين على رفع الاختلافات التي تدبّ بين المسلمين وتشخيص المسار الصحيح من المزالق والانحرافات[1].

* مَنْع الانحراف في الدِّين

لا ريب في أنّ تراث النبيّ الأكرم ﷺ يتعرّض، بمرور الزمن وفي الظروف الطبيعيّة، إلى التغيير والتحريف؛ ذلك أنّ وساوس الشيطان ومساعي المنافقين الرامية إلى قلب الحقائق الدينيّة متواصلة دائماً ومُتوائمة مع الأهواء النفسيّة للإنسان.

على أنّ هذه الانحرافات تارةً تحصل في سياق تحريف النصوص الدينيّة، إمّا بالزيادة أو الحذف أو تغيير النصوص الدينيّة، وتارةً تتحقّق عن طريق تأسيس مدارس ومذاهب مُزيّفة؛ بُغية منع الإنسان من بلوغ الدِّين الحقّ والإيمان به.

وفي ضوء ذلك، لا تقام الحجّة الإلهيّة على الأجيال اللّاحقة، ولا يتحقّق الهدف من الرسالة الدينيّة في حال فقد الإمام.

* تحقيق الدّين وإقامة الحدود الإلهيّة

يُشكّل الدين الإلهيّ منهج حياة الإنسان، والهدف الرئيس للأنبياء يرمي إلى تحقيق هذا المنهج على صعيد الحياة الفرديّة والاجتماعيّة. ثمّ إنّ المدارس البشريّة غالباً ما تكتفي ببيان المعارف النظريّة والعمليّة فقط، وتخوّل الآخرين تطبيق أفكارها وتنفيذ أوامرها؛ في حين أنّ القادة الإلهيّين لا يأخذون على عاتقهم مسؤوليّة بيان البرامج التي يُعلنون عنها وحسب؛ بل يجعلون تنفيذ الأوامر السماويّة في صدر رسائلهم وأعمالهم.

(1) انظر: العلامة الحلّي، كشف المراد، مصدر سابق، ص362-363؛ المجلسيّ، حقّ اليقين، ج1، ص37.

ويُمكن مُلاحظة هذه النقطة بوضوح في سيرة نبيّ الإسلام ﷺ؛ فمنذ الأيّام الأولى للبعثة وبالتزامن مع نشر المعارف الدينيّة الغرّاء كان النبيّ الكريم ﷺ بصدد تنشئة أُناس مؤمنين وتشكيل مجتمع مؤمن؛ وبالتالي، أثمرت تلك المساعي الطيّبة وتمخّضت عن تشكيل المُجتمع الإسلاميّ المنشود في المدينة على يديه المباركتين.

وتشير الوثائق والمستندات التاريخيّة إلى أنّ النبيّ ﷺ كان حتّى آخر ساعات عمره الشريف حريصاً أشدّ الحرص على المجتمع الإسلاميّ من بعده، فأوصى بجملة من الوصايا للحيلولة دون ضعفه أو انهياره.

وبهذا يمكن القول: إنّ الإصرار على تطبيق الأحكام الإلهيّة ومواصلة النّهج العمليّ للنبيّ الأكرم ﷺ من جملة أهداف الرسالة النبويّة التي يجب استمرارها بعد وفاته أيضاً، ولا شكّ في أنّ ذلك لا يتحقّق إلّا في ظلّ استمرار نهج الحكومة النبويّة في سياق نظام الإمامة والولاية.

المفاهيم الرئيسة

- يُعدّ الدِّين الإسلاميّ آخر الأديان الإلهيّة وأكملها والكفيل بتلبية الاحتياجات الماديّة والمعنويّة للبشر إلى يوم القيامة؛ ولذا أكّد القرآن الكريم على أنّه ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى﴾، و﴿بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾.
- يؤكّد الله -تعالى- على وجود عالم واعٍ في كلّ عصر لتبيين الحقائق الواردة في القرآن الكريم بصورة مُجملة، ومن البديهيّ لزوم أن يكون هذا العالم متسلّحاً بالعلم الإلهيّ ليكون بمقدوره بيان جميع الوجوه الخفيّة للقرآن.
- في حالة عدم وجود خليفة إلهيّ في المجتمع الإسلاميّ بعد النبيّ ﷺ، لا يجد الناس من يرجعون إليه في موارد الاختلاف؛ لذا لا بدّ من وجود أفراد حاملين لعلم النبيّ ﷺ وقادرين على رفع الاختلافات التي تدبّ بين المسلمين.
- لا تُقام الحجّة الإلهيّة على الأجيال اللّاحقة، ولا يتحقّق الهدف من الرسالة الدينيّة في حال فقد الإمام.
- إنّ القادة الإلهيّين لا يأخذون على عاتقهم مسؤوليّة بيان البرامج التي يُعلنون عنها وحسب؛ بل يجعلون تنفيذ الأوامر السماويّة في صدر رسائلهم وأعمالهم.
- إنّ الإصرار على تطبيق الأحكام الإلهيّة ومواصلة النهج العمليّ للنبيّ الأكرم ﷺ من جملة أهداف الرسالة النبويّة التي يجب استمرارها بعد وفاته أيضاً، ولا شكّ في أنّ ذلك لا يتحقّق إلّا في ظلّ استمرار نهج الحكومة النبويّة في سياق نظام الإمامة والولاية.

الأسئلة

1. أَثْبِت عن طرق الآيات القرآنيّة أنّ المسؤوليّة الأساسيّة للنبيّ الأكرم ﷺ في تبيين المعارف السماويّة لا تتحقّق بعده إلّا عن طريق إمامة أوصيائه.
2. كيف تتحقّق وحدة الأمّة الإسلاميّة وعلى يد مَن؟ وما دور الإمام في هذا الخصوص؟
3. كيف يمكن الاستدلال على لزوم الإمامة عن طريق ضرورة تحقّق الدِّين؟

الدرس الثاني والعشرون



نصب الإمام وخصائصه

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى الدليل العقليّ الدالّ على تعذّر اختيار الأمّة للإمام.
2. يشرح أهمّيّة اتصاف الإمام بالعصمة.
3. يبيّن ضرورة اتصاف الإمام بأفضل الصفات والكمالات.



❋ تمهيد

بعدما ثبت أنّ الإمامة أمرٌ ضروريّ، ولا بدّ منه لهداية الأمّة، فأمام هذه الأُمّة أحد خيارين: إمّا أن تختار هي واحداً من أفرادها للاضطّلاع بمهمّة الإمام، وإمّا أن تخضع للإرادة الإلهيّة التي تختار لها الشخص المُناسب للنهوض بأعباء الإمامة. وفي ما يأتي جملة من الأدلّة التي تثبت أنّ الأمّة قاصرة عن اختيار القائد الصالح والإمام الحقيقيّ، وأنّ ذلك خارج عن دائرة قدرتها، وأنّه لا يتيسّر إلّا بالاختيار الإلهيّ فقط:

❋ الدليل العقليّ على تعذّر اختيار الأمّة للإمام

لو تأمّل أيّ عاقل في ماهيّة الاختيار ومن يقوم بعمليّة الاختيار ومن يقع عليه الاختيار، لأدرك بما لا يدعُ مجالاً للشكّ بأنّ اختيار الناس للإمام الإلهيّ أمر متعذّر وغير ممكن، والأدلّة على ذلك هي:

1 - كلُّ اختيار يقوم به البشر يتطلّب مزيداً من العلم والوعي، ويختلف عمق هذا الوعي وسعته بما يتناسب مع أهمّيّة موضوع الاختيار. وفي ضوء مفهوم الإمام ودوره في تبيين الكلام الإلهيّ في القرآن وحلّ اختلافات الأمّة وهداية أفرادها، يجب أن يمتلك من يقوم بعمليّة الاختيار

هـذه علمـاً واسـعاً جدّاً؛ ليتسـنّى له اختيـار الشـخص اللّائق والمؤهّـل القادر علـى تحمّـل مسـؤوليّات الإمامة، والمعصـوم من الخطأ والزلـل عند أداء هذه الرسـالة الخطيـرة، ولا يخفـى أنّ أيّ شـخص لا يمتلـك مثـل هـذه الإحاطـة العلميّـة الواسـعة؛ بـل حتّـى لـو اجتمع جميـع أفراد البشـر وجمعـوا علومهم وعقولهـم، فليـس بوسـعهم تشـخيص مثـل هـذا الشـخص واختيـاره مـن بين الجمـوع البشـريّة الهائلـة، ولا ينبغي أن ننسـى أنّ كثيراً من الأشـخاص يبقون بعيديـن عـن الأضـواء وعـن أعيـن الآخريـن؛ بـل إنّ أوصـاف النـاس غالبـاً مـا تبقـى مجهولـة ومسـتورة عـن الآخرين.

2 - إنّ عملية اختيار الإمام الصادرة عن فرد أو جماعة لا تخضع عمليّاً -وللأسف- لعامل العلم بمؤهّلاته فحسب، وإنّما قد يُصار إلى عدم اختيار الشخص المناسب، حتّى مع العلم بمؤهّلاته واختيار شخص آخر لأسباب وعوامل أخرى من قبيل الأغراض الشخصيّة أو السياسيّة أو ما شاكل.

* الدليل الدينيّ على نفي اختيار الأُمّة للإمام

تُستشفّ هذه الحقيقة في أمر اختيار الإمام من آيات القرآن الكريم وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً؛ حيث رفع الله -سبحانه وتعالى- مسؤوليّة اختيار الإمام عن كاهل الناس، وهذا ما بيّنه الأئمّة الميامين من أهل البيت عليهم السلام في أحاديثهم عن المقام السامي للإمامة الإلهيّة اعتماداً على الكلام الإلهيّ، وفي ما يلي أمثلة على ذلك:

1. آيات القرآن الكريم

شدّد الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم على أنّ أمر الإمامة في غاية الأهمّيّة، وأنّ نصْبَ الإمام من اختصاصه وحده؛ ولذا لم يختر النبيّ إبراهيم عليه السلام لمقام الإمامة إلّا بعد سلسلة من الاختبارات والابتلاءات الشاقّة،

فقال في هذا الصّدد: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾[1].

إنّ الإمامة بمفهومها الواسع تعني القيادة والولاية في جميع الشؤون الظاهريّة والباطنيّة للنّاس. ويلاحَظ أنّ القرآن الكريم يرى أنّ هذا المقام يحتاج إلى نَصْبٍ إلهيّ كما هو الحال في منصب النبوّة؛ ولذا أكّد (جلّ وعلا) في آيتين مُنفصلتين على أنّه نَصّب النبيّ آدم عليه السلام والنبيّ داوود عليه السلام خليفَتَيْن في الأرض، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3].

وقد حذّر الله -سبحانه وتعالى- عباده المؤمنين من مخالفة ما يختاره لهم، فإذا قضى أمراً وحكم بشيءٍ هو أو رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بإذن منه، سبحانه، فليس لهم حينئذ إلّا الطّاعة والاستسلام لأمره؛ إذ ليس لهم الخيار مع اختياره: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[5].

وفي هذا السياق، أكّد الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام على أنّ اختيار الإمام يُمثّل أحد مصاديق الأمر الإلهيّ في الآيات الشريفة المُتقدّمة، وقال بشأن الغاصبين للخلافة والإمامة: «**رَغِبُوا عَنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ وَاخْتِيَارِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَى اخْتِيَارِهِم**»[6].

(1) سورة البقرة، الآية 124.
(2) السورة نفسها، الآية 30.
(3) سورة ص، الآية 26.
(4) سورة القصص، الآية 68.
(5) سورة الأحزاب، الآية 36.
(6) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص201؛ الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرّضا عليه السلام، مصدر سابق، ج1، ص220.

2. روايات أهل البيت عليهم السلام

ورد تأكيد شديد في سنّة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وفي الروايات المأثورة عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام -أيضاً- على ضرورة نَصْبِ الإمام من الله -سبحانه وتعالى-، وسنأتي لاحقاً على ذكر بعض الروايات النبويّة في هذا الخصوص، أمّا الآن فَنُسلّط الضوء على فقرات جميلة ودقيقة من حديث للإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في هذا المجال، وتتجلّى أهمّيّة هذه الفقرات في أنّها مشتملة على استدلال عقليّ أيضاً لهذا الموضوع.

رُوي أنّه لما دخل الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام إلى مَرْو، كَثُر الكلام والاختلاف بين الناس حول أمر الإمامة، فكان كلّ شخص يروم إثبات رأيه في الموضوع وبيان حدود منزلة الإمام وشأنه من وجهة نظره. وعندئذ دخل أحد أصحاب الإمام عليه السلام وأعلَمَه خوض الناس في هذا المجال، فتبسّم الإمام عليه السلام وقال كلاماً جامعاً حول فضل الإمام وصفاته، منه: «**مَنْ ذَا الَّذي يَبْلُغُ مَعْرِفَةَ الْإِمَام أَوْ يُمْكِنُهُ اخْتِيَارُهُ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ضَلَّت الْعُقُولُ، وَتَاهَت الْحُلُومُ، وَحَارَت الْأَلْبَابُ، وَخَسَأَت الْعُيُونُ، وَتَصَاغَرَت الْعُظَمَاءُ، وَتَحَيَّرَت الْحُكَمَاءُ، وَتَقَاصَرَت الْحُلَمَاءُ، وَحَصرَت الْخُطَبَاءُ، وَجَهلَت الْأَلبَّاءُ، وَكَلَّت الشُّعَرَاءُ، وَعَجزَت الْأُدَبَاءُ، وَعَييَت الْبُلَغَاءُ، عَنْ وَصْفِ شَأْنٍ مِنْ شَأْنه أَوْ فَضيلَة مِنْ فَضَائله، وَأَقَرَّتْ بِالْعَجْزِ وَالتَّقْصير.**

وَكَيْفَ يُوصَفُ بِكُلِّه، أَوْ يُنْعَتُ بِكُنْهه، أَوْ يُفْهَمُ شَيْءٌ مِنْ أَمْره، أَوْ يُوجَدُ مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَيُغْني غِنَاهُ؟ لَا، كَيْفَ وَأَنَّى وَهُوَ بِحَيْثُ النَّجْمُ مِنْ يَد الْمُتَنَاولينَ، وَوَصْفِ الْوَاصفينَ، فَأَيْنَ الِاخْتِيَارُ مِنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ الْعُقُولُ عَنْ هَذَا؟ وَأَيْنَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذَا؟»[1].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص201؛ الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرِّضا عليه السلام، مصدر سابق، ص219.

نرى أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى المقام الرّفيع والمنزلة السّامية للإمام مقارنة بسائر الناس، مشدّداً على عدم إمكان معرفة الإمام وإدراك هذا المقام دون الاطّلاع الكافي على خصوصيّاته وخصاله المُتميّزة؛ فعقول البشر عاجزة عن إدراكه ومعرفة كنهه.

والخُلاصة أنّه يمكن إثبات عجز البشر عن معرفة الإمام واختياره بالطريق العقليّ، مثلما دلّت الروايات الإسلاميّة على تعذّر ذلك أيضاً؛ولذا، لا سبيل إلى معرفة حجّة الله على الأرض إلّا عن طريق الوحي الإلهيّ، فالله -سبحانه وتعالى- يختار بعلمه اللّامتناهي الشخصيّة الأنسب لتحمّل أعباء قيادة الأُمّة، ومن ثمّ يَنْصُبُه إماماً لها في الوقت المناسب، ويعرّفهم عليه على لسان نبيّه.

❋ خصائص الإمام

ثَمَّ خصائص عدّة للإمام والخليفة الحقيقيّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأهمّها ثلاث خصائص:

1. العصمة

العصمةُ لغةً، تعني المنعَ والوقاية والحفظ[1]، والمعصوم يُطلق في الأبحاث الكلاميّة على من يُحفظ من نقصين هما المعصية والخطأ[2]. ويجب في الإمام أن يكون معصوماً من المعصية والخطأ للأسباب الآتية:

أ- إنّ الإمام خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في معظم شؤونه كتبيين الدِّين وإزالة الاختلافات بين الناس؛ لذا، لا بدّ من أن يكون معصوماً كالنبيّ ليتمكّن من القيام بمسؤوليّاته على النّحو الأكمل. فكما أنّ النبيّ معصوم من اقتراف الذّنوب والوقوع في الخطأ، وهذه العصمة هي التي تكسبه

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص404، مادّة «عصم».
(2) مطهري، مجموعه آثار شهيد مطهري (موسوعة آثار الشهيد مطهّري)، ج2، ص158.

ثقة الناس وقبول كلامه باعتباره وحياً إلهيّاً، كذلك يجب أن يتحلّى الإمام بهذه الصّفة؛ كي يكون مقبولاً بين الناس في تبيين الأحكام الإلهيّة وليتّبعوه ويسيروا على هديه[1].

ب- إنّ العصمة من خصائص الإمام التي صرّح بها الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم، فقد أشرنا سابقاً إلى الآية 124 من سورة البقرة الواردة بخصوص ارتقاء النبيّ إبراهيم عليه السلام إلى مقام الإمامة، ثمّ سأل إبراهيم عليه السلام ربّه أن يعطي هذا المقام إلى ذرّيته، لكنّ الله (جلّ وعلا) ردّ عليه بالقول: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

وقد استدلّ علماء الشيعة بهذه الآية على أنّ الشخص المعصوم من الخطأ فقط يستطيع أن يصبح إماماً؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- نفى أن ينال عهدُ الإمامة الظّالمَ، وغير المعصوم -أي الظّالم لنفسه أو لغيره- لا يستحقّ مثل هذا المقام الرّفيع. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الآية الشريفة المُتقدّمة مُطلقة، فلم يُقيَّد الظّالمون بوقتٍ محدّد؛ فلا بدّ من حمل عدم الظّلم على جميع الأوقات. وعليه، لا يصبح العاصي إماماً وإن تاب[3].

2. العلم الإلهيّ

من الخصائص الأُخرى للإمام، لزوم امتلاك العلم الإلهيّ، فحيث يقع على عاتق الإمام وظيفة كوظيفة النبيّ ترتكز على هداية الناس في الأمور العَقديّة والأخلاقيّة والأعمال الفرديّة والاجتماعيّة، فلا بدّ من أن يكون كالنبيّ في مجال الهداية أيضاً، أي متزوّداً بعلم لا يشوبه شكّ ولا يعتريه الجهل. ومن ناحية أخرى، كما أنّ النبيّ مجهَّز من الله -سبحانه وتعالى- بالقدرة على الإدارة اللّازمة لمحاربة الظالمين

(1) مطهري، مجموعه آثار شهيد مطهري (موسوعة آثار الشهيد مطهّري)، ج4، ص741.
(2) سورة البقرة، الآية 124.
(3) انظر: العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، الألفين، مكتبة الألفين، الكويت، 1405هـ - 1985م، لا.ط، ص61.

والمستكبرين، كذلك ينبغي أن يجهَّز الإمام بمثل هذه القدرة الكفيلة بمواجهة الأعداء أيضاً.

ويمكن مشاهدة مثل هذا الأمر في قصّة بلوغ النبيّ يوسف عليه السلام الحكم في مصر؛ حيث نقل عنه -سبحانه وتعالى- قوله للعزيز في مجال التصدّي للمشاكل الاقتصاديّة في عصره: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[1].

فيُمكن أن يُستفاد من هذه الآية للاستدلال على لزوم العلم للإمام، ويُستفاد من كلمة «حفيظ» أنّ من شروط الإمام القدرة على التدبير والتي تشتمل على كمالات متنوّعة نحو الأمانة أيضاً.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الله -سبحانه وتعالى- يُفيض على بعض عباده علماً خاصّاً يعبَّر عنه بـ«العلم الوهبيّ»، وعلم الإمام من جنس هذه العلوم التي لا يمكن مقارنتها بالعلوم الظاهريّة الأخرى، بسبب سعتها وإحاطتها واشتمالها على الظّرائف والدّقائق المعرفيّة، حسبما أفادت الروايات.

3. الأفضليّة

لمّا كان يقع على عاتق الإمام وظيفة خطيرة متمثّلة بهداية البشر وقيادة الأمّة، ينبغي له أن يكون أفضل من سائر الأفراد في جميع الفضائل والكمالات؛ لذا فإنّ الإمام خيرة عصره، ولا يمكن مقارنته مع أيّ إنسان آخر في زمانه؛ بل وفي كلّ عصر ومصر.

وعلى هذا الأساس، قال الإمام أبو الحسن الرِّضا عليه السلام في حديث جامع لفضائل الإمام ومرتبة الإمامة: «**الْإِمَامُ وَاحِدُ دَهْرِه، لَا يُدَانِيه أَحَدٌ، وَلَا يُعَادِلُهُ عَالِمٌ، وَلَا يُوجَدُ مِنْهُ بَدَلٌ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، مَخْصُوصٌ بِالْفَضْلِ كُلِّه مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا اكْتِسَابٍ؛ بَلِ اخْتِصَاصٌ مِنَ الْمُفْضِلِ الْوَهَّابِ**»[2].

(1) سورة يوسف، الآية 55.

(2) الكلينيّ، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص201؛ ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص439؛ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج1، ص219.

وقال النبيّ الكريم ﷺ يوم الغدير في وصف الإمام عليّ عليه السلام: «**مَعَاشِرَ الناس! فَضِّلُوا عَلِيّاً فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الناس بَعْدِي مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**»[1].

وحيث إنّ الأئمّة هم أوصياء الأنبياء الإلهيّين وخلفاؤهم من بعدهم، فينبغي أن تتوفّر فيهم الخصائص الأخلاقيّة التي ذكرها الله -سبحانه وتعالى- للأنبياء -أيضاً- وفي ما يأتي نبذة عن تلك الفضائل:

أ. الصبر واليقين: قال الباري -سبحانه وتعالى- في هذا المجال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2].

يُعدُّ الصّبر في سبيل الله معياراً لبلوغ مقام الإمامة، فنرى أنّ الله -سبحانه وتعالى- بيّن في هذه الآية سبب موهبة الإمامة، وذكر أنّ الملاك في ذلك صبرهم في جنب الله، وبالجملة فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين، مكشوفاً له عالم الملكوت، متحقّقاً بكلمات من الله سبحانه[3].

ب. العبوديّة لله -سبحانه وتعالى-: أكّد الباري (عزَّ وجلَّ) على أنّ العبوديّة لله من جملة صفات الأئمّة، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[4].

فالأئمّة الإلهيُّون كانوا أشخاصاً صالحين وموحِّدين ومتعبّدين حتّى قبل بلوغهم مقام النبوّة والإمامة، وفي ضوء ذلك منحهم الله مواهب أخرى[5].

ج. التواضع: ورد في بعض الروايات أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يمشي في الأسواق وهو والٍ، يُرشد الضالّ ويُعين الضعيف، ويمرّ بالبيّاع والبقّال،

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص60.
(2) سورة السجدة، الآية 24.
(3) انظر: الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1417هـ ط5، ج1، ص272-273.
(4) سورة الأنبياء، الآية 73.
(5) انظر: الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج10، ص206.

فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ثُمّ يقول: «**نَزلتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْتَّوَاضُعِ منَ الولَاةِ، وَأَهْلِ الْقُدْرَةِ مِنْ سَائِرِ الناس**»[2].

على أنّ فضائل الأئمّة الإلهيّين ومكارم أخلاقهم أوسع من أن يستوعبها هذا البحث المُختصر، ويجب الإشارة إلى فضائل أخرى كالشجاعة والإدارة وغيرِهما، فبوسع الراغبين بمعرفة المزيد الرجوع إلى المصادر ذات الصلة في هذا المجال[3].

(1) سورة القصص، الآية 83.

(2) ابن عساكر، عليبن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415هـ لا.ط، ج42، ص489؛ الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـق - 1995م، ط1، ج7، ص420.

(3) انظر: الريشهري، دانشنامه قرآن وحديث (دراسة في القرآن والحديث)، ج10، مبحث أهل البيت عليهم السلام.

المفاهيم الرئيسة

- أمام هذه الأُمّة أحد خيارين: إمّا أن تختار هي واحداً من أفرادها للاضطّلاع بمهمّة الإمام، وإمّا أن تخضع للإرادة الإلهيّة التي تختار لها الشخص المُناسب للنهوض بأعباء الإمامة.
- في ضوء مفهوم الإمام ودوره، يجب أن يمتلك من يقوم بعمليّة الاختيار هذه علماً واسعاً جدّاً؛ ليتسنّى له اختيار الشخص اللائق والمؤهّل القادر على تحمّل مسؤوليّات الإمامة.
- إنّ عمليّة اختيار الإمام الصادرة عن فردٍ أو جماعة لا تخضع عمليّاً -وللأسف- لعامل العلم بمؤهّلاته فحسب، وإنّما قد يصار إلى عدم اختيار الشخص المناسب لأسباب وعوامل أخرى من قبيل الأغراض الشخصيّة أو السياسيّة أو ما شاكل.
- شدّد الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم على أنّ أمر الإمامة في غاية الأهمّيّة، وأنّ نصْبَ الإمام من اختصاصه وحده.
- إنّ الإمامة بمفهومها الواسع تعني القيادة والولاية في جميع الشؤون الظّاهريّة والباطنيّة للنّاس. ويلاحَظ أنّ القرآن الكريم يرى أنّ هذا المقام يحتاج إلى نَصْبٍ إلهيّ كما هو الحال في منصب النبوّة.
- ورد تأكيد شديد في سنّة النبيّ الكريم ﷺ والروايات المأثورة عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام -أيضاً- على ضرورة نَصْبِ الإمام من الله -سبحانه وتعالى-.
- ثَمَّةَ خصائص عدّة للإمام والخليفة الحقيقيّ لرسول الله ﷺ، وأهمّها ثلاث خصائص:1 - العصمة، 2 - العلم الإلهيّ، 3 - الأفضليّة.

الأسئلة

1. اذكر دليلاً عقليّاً على لزوم نَصْبِ الإمام من الله -سبحانه وتعالى-.
2. كيف يمكن أن تستدلّ، عن طريق القرآن الكريم، على نَصْبِ الله -سبحانه وتعالى- للإمام؟
3. ما معنى العصمة؟ وما الدليل على لزوم كون الإمام معصوماً؟
4. ما المقصود بالأفضليّة في موضوع الإمامة؟ ولماذا يجب أن يكون الإمام أفضل من سائر الناس الآخرين من هذه الناحية؟

الدرس الثالث والعشرون

سُبُل معرفة الإمام

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى طريق النصّ والكرامة في معرفة الإمام.
2. يذكر المزايا الشخصيّة في طرق معرفة الإمام.
3. يشرح كيفيّة تطبيق الروايات التي تحدّثت عن أنّ الخلفاء «**اثنا عشر**» عند السّنة والشيعة.

* تمهيد

إنّ بيان المعارف والأحكام الإسلاميّة، والدّفاع عن الأصول والفروع الإسلاميّة -كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك- يُعَدَّانِ من الأهداف الأساسيّة للإمامة، ومن الواضح أنّ تحقّق هذَيْنِ الهدفَيْن بالشكل المطلوب لا يتيسّر دون اتّصاف الإمام بالعلم الكامل بالمعارف والأحكام الإسلاميّة والعصمة العلميّة والعمليّة.

ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ العصمة والعلم الكامل بالشّريعة من الصفات الباطنيّة بحيث لا يتسنّى لأغلب الناس تشخيصها والكشف عنها بالطرق المتعارفة[1]؛ ولهذا السبب يتبادر إلى الأذهان السؤال الآتي: ما السبيل إلى معرفة الإمام؟ وأنّى للناس في كلّ عصر ومصر التعرّف إلى إمام زمانهم؟

هُناك ثلاثة طرق أساسيّة يُستفاد منها لمعرفة الإمام، هي:

* النصّ

بحثنا سابقاً موضوع النصْب الإلهيّ للإمام، وأشرنا إلى أنّ تعيين الإمام أمر إلهيّ وليس بأيدي الناس، حسب الأدلّة المُستفادة من القرآن والروايات. والآن نريد إيضاح تلك الأدلّة والبراهين الكاشفة عن معرفة الإمام، ومنها النصّ.

(1) انظر: العلّامة الحلّي، كشف المراد، مصدر سابق، ص366.

وبما أنّه لا طائل من النَّصب الإلهيّ للإمام إن لم يقترن بالإعلان والتّبليغ، ويُعدّ حينئذٍ لغواً، فعندما يَنصب الله شخصاً إماماً للناس، فسوف يُعلمهُم به، ولا سبيل إلى الإعلان عن ذلك سوى بالنصّ الشّرعيّ (الكتاب والسنّة). ومن ناحية أخرى، لا يُصار إلى قبول وجود نصّ شرعيّ على الإمام إلّا على فرض النصب الإلهيّ؛ إذ لا مصدر للشريعة سوى الإرادة الإلهيّة، والرسول الإلهيّ لا يتحدّث من تلقاء نفسه.

هذا، وقد حظيَ موضوع النصّ على الإمامة باهتمام الأئمَّة من أهل البيت عليهم السلام والشيعة عموماً مُنذ اليوم الأوّل لحدوث نزاع بين المسلمين حول خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1].

وصحيح أنّ الإمام عليّاً عليه السلام على الرّغم من أنّه لم يكن حاضراً في واقعة السّقيفة ليحتجّ على الآخرين ومن خالفوه بالنّصوص النبويّة، إلّا أنّه لم يترك فرصة طيلة حياته إلّا وبيّن فيها حقّه بالإمامة استنادًا إلى الأحاديث النبويّة في باب الإمامة، ومن ذلك احتجاجه على الشورى المكوّنة من ستّة أشخاص بحديث الغدير وحديث المنزلة وأدلّة أخرى لإثبات استحقاقه الإمامة وأنّه أولى منهم بها[2].

ويتّضح ممّا تقدّم أنّ موضوع النصّ الإلهيّ حول الإمامة كان يمثّل أبرز معالم الفكر الشيعيّ منذ مطلع تاريخ التشيّع، وقد احتذى متكلّمو الإماميّة بإرشادات الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام وتوجيهاتهم في هذا المجال[3].

(1) انظر: الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص461-465.

(2) انظر: ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران - قم، 1404هـ ودار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1378هـ - 1959م، ط1،ج6، ص331.

(3) رباني گلپايگاني، امامت در بينش اسلامى (الإمامة في الرؤية الإسلامية)، الفصل الأخير.

❋ الكرامة

تُعتبر الكرامة من جملة السبل الكفيلة بإثبات الإمامة. والكرامة تماثل المعجزة في مدلولها، فهي تعني الفعل الخارق للعادة بالتزامن مع ادّعاء مَنْصبٍ إلهيّ[1]؛ ولذا فهي تشتمل على خصوصيّات فيها دليل واضح على صدق مُدّعٍ من يأتي بها، وهذه الخصوصيّات باختصار هي:

1. ألّا يَقدر على الإتيان بالمُعجزة وفقاً للقدرة البشريّة أيّ إنسان آخر حتّى النوابغ أيضاً.
2. أن يأتي بها صاحبها من باب التحدّي، وألّا يُغلب من قبل الآخرين.
3. أن تقترن المُعجزة بدعوى المنصب الإلهيّ[2].

وعليه، فلو استطاع شخصٌ القيام بمثل هذا الأمر الخارق للعادة، مع ادّعاء منصبٍ إلهيّ، وتحدّى الآخرين أن يستطيعوا مواجهته فعجزوا جميعاً عن ذلك، يُقطع بأنّه مُرسَل من الله، أو منصوبٌ من عنده.

والشيعة يؤمنون أنّ الله -سبحانه وتعالى- أجرى على أيدي الأئمّة الميامين عليهم السلام أموراً خارقة للعادة إكراماً لهم باعتبارهم أقرب الأولياء الإلهيّين[3]. فلا غرو في أنّ الله المنّان وهب هؤلاء الأولياء قُدرة خارقة تُتيح لهم القيام بأعمال خارجة عن إطار السنن الطبيعيّة والأمور الاعتياديّة والمتعارفة بين الناس متى ما لزم ذلك، وغالباً ما تكون هذه الكرامات لإثبات إمامتهم وأنّهم الأحقّ بها من غيرهم.

(1) الكرامة نظير المعجزة في واقعها، إلا أنّه قد اصطلح على الفعل الخارق للعادة الصادر عن النبيّ بالمعجزة، وعلى الفعل الخارق للعادة الصادر عن أولياء الله تعالى -غير الأنبياء- بالكرامة. (الإعداد)

(2) الشيخ الشيرازيّ، دروس في العقائد الإسلاميّة، مصدر سابق، ص149.

(3) انظر: الشيخ الأميني، عبد الحسين، الغدير، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، 1397هـ - 1977م، ط4، ج3، ص402.

❋ الفضائل والمناقب

من السبل الأخرى لمعرفة الإمام، دراسة خصائصه الفرديّة والاجتماعيّة وبحث المزايا الشخصيّة في حياته. ذكرنا سابقاً خصائص الإمام ولزوم تحلّيه بالعصمة والعلم والفضائل الأخلاقيّة، وتدلّ هذه الأوصاف على أنّ الإمامة ليست من حقّ المتميّزين بالخصوصيّات المذكورة فحسب؛ بل هي استحقاق لمن لا يدانيهم أحد من معاصريهم.

ومن هذا المُنطلق، عمد علماء التشيّع، منذ العصور الأولى، إلى إبراز مناقب الأئمّة الأطهار عليهم السلام وذكر فضائلهم التي لا تعدّ، وعمدوا إلى مقارنتها بسواهم من دعاة الإمامة؛ وذلك من أجل إثبات صحّة مدّعاهم وصواب رأيهم، وما أُلّفت الكتب في فضائل الأئمّة ومناقبهم الكثيرة طيلة التاريخ إلّا بهدف إثبات إمامتهم غالباً.

❋ الأوصياء الاثنا عشر في نصوص الفريقين

كما قسّمنا البحث في النبوّة إلى قسمين: النبوّة العامّة والنبوّة الخاصّة، فإنّنا سنقسّم البحث في الإمامة إلى الإمامة العامّة والإمامة الخاصّة أيضًا، وما تقدّم يدخل في سياق البحث في الإمامة العامّة، ونريد من الآن التعريف بالأئمّة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، وهو ما يندرج سياق البحث في الإمامة الخاصّة. ونبدأ هذا البحث بالتعريف العامّ بخلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من حيث العدد.

1. اثنا عشر خليفة في روايات أهل السنّة

ورد في روايات أهل السنّة أنّ خلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر خليفةً، لكنّ هذه الروايات على كثرتها لم تذكر أسماء الخلفاء وصفاتهم الدقيقة؛ بل اكتفت بالإشارة إلى عددهم والأوضاع السائدة إبّان حكمهم، ومن هذه الروايات:

أخرج كتب صحاح أهل السنَّة وغيرها من مصادر الشيعة رواية عن جابر بن سمرة، عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزاً إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً**».

وأكمل الراوي، قائلاً: ثمّ قالَ رسولُ الله ﷺ كلمةً لم أفهمها، فقُلت لأبي: ما قالَ؟ فقالَ: قالَ: «**كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ**»[1].

وقد أخرج المتّقي الهنديّ هذه الرّواية بصيغ مختلفة تبعاً لما ورد في مصادر أهل السنّة؛ لكنّها جميعاً تشترك في عبارة «اثني عشر خليفة» و«كلُّهم من قريش»، وإن ورد في بعضها بدل كلمة «عزيزاً» كلمات من قبيل: منيعاً، قائماً، مستقيماً، صالحاً، ظاهراً، وأمثالها[2].

المُشكلة التي واجهها الشرّاح من أهل السنّة هي تطبيق هؤلاء الخلفاء الاثني عشر على من اعتلى منصب الخلافة بعد رسول الله ﷺ، فذُكرت احتمالات كثيرة على مدى قرون من الزمن جميعها غير مُقنعة. وفي هذا السياق، جمع أحد الباحثين المعاصرين من أهل السنّة أقوال علماء المذهب السنّيّ الرامية إلى حلّ هذه الإشكاليّة، ثمّ ناقش جميع النظريّات المطروحة وخلص إلى القول:

«إنّ الحديث لا شكّ في صحّته، وإنّ بعض العلماء يَعدُّ المهدي المبشّر من هؤلاء الاثني عشر... ولكن الرّاجح -كما سبق- أنّ الاثني عشر خليفة قد انتهوا بنهاية خلافة هشام بن عبد الملك الأمويّ، ولا شكّ في أنّ الدّين كان قائماً ظاهراً في أيّامهم»[3].

بيد أنّ هذا الحلّ لا يجدي في حلّ المُشكلة أيضاً؛ ذلك أنّ هشام بن عبد الملك هو الخليفة الأمويّ العاشر، وقد سبقه إلى الحكم تسعة خلفاء أمويّين، وإن أضافوا إلى هؤلاء الأفراد الخلفاء الرّاشدين أيضاً يصل العدد إلى ثلاثة عشر خليفة.

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، مصدر سابق، ج9، ص81؛ مسلم النيسابوري، مسلمبن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج3، ص1452.

(2) المتقي الهندي، علاء الدين عليّ المتقيّ بن حسام الدين، كنز العمالفي سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني - تصحيح وفهرسة الشيخ صفوة السقا، مؤسّسة الرسالة، لبنان - بيروت، 1409هـ - 1989م، لا.ط، ج12، ص32-34.

(3) البستوي، عبد العليم عبد العظيم، المهدي المنتظر عليه السلام في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، المكتبة المكية - مكة المكرمة - السعودية / دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1420 - 1999م، ط1، ص332-337.

وكيفما أرادوا الحساب لا يستقيم العدد «اثنا عشر» الوارد في الحديث الآنف إلّا بأئمَّة الشيعة عليهم السلام، فكلّهم من قريش ومن بني هاشم ومن أهل بيت النبوّة. من هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصّدد: «**بِنَا يُسْتَعْطَى الْهُدَى وَيُسْتَجْلَى الْعَمَى. إِنَّ الأئمّة مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ**»[1].

2. اثنا عشر إماماً في روايات الشيعة

الأئمّة من أهل البيت، من وجهة نظر الشيعة، هم: الإمام عليّ، والإمام الحسن، والإمام الحسين، والتسعة المعصومون من ذرِّيّة الإمام الحسين، الذين أوّلهم الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام، وآخرهم إمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف. وقد شَهد القرآن الكريم على عصمة هؤلاء الأئمّة الميامين، وأنّهم الحاملون للعلم الإلهيّ، والمبيّنون للقرآن الكريم، وأنّ الإمام أمير المؤمنين، والأئمّة المعصومين الأحد عشر من ولده عليهم السلام نَصَبَهُم الله -سبحانه وتعالى-، ونصّ على أن يكونوا واحداً تلو الآخر، أوصياء وخلفاء الله في الأرض وحججه على عباده بعد نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم. والإمام في الأرض حالياً هو نجل الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، أي الحجّة بن الحسن، صاحب العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف.

لقد أُشيرَ إلى عدد الأئمّة في روايات متواترة عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والعترة الطاهرة عليهم السلام وصرّح بعضها بأسمائهم أو بأسماء بعضهم. وسيأتي زيادة بيان، إن شاء الله.

والخلاصة أنّ المصادر الشيعيّة والسنّيّة دلّت على أنّ خلفاء نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر خليفةً. وعلى هذا الأساس، سيتبيّن في مباحث الإمامة الخاصّة التي سنبحثها بالتفصيل من الآن فصاعداً، أيّ الآراء بوسعه تقديم مصاديق منطقيّة تنطبق على الخلفاء الاثني عشر المذكورين، وإثبات ذلك بالأدلّة القطعيّة والشّواهد الواضحة.

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص201، الخطبة 144.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ بيان المعارف والأحكام الإسلاميّة والدّفاع عن الأصول والفروع الإسلاميّة يُعدّ من الأهداف الأساسيّة للإمامة.
- حظي موضوع النصّ على الإمامة باهتمام الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام والشيعة عموماً مُنذ اليوم الأوّل لحدوث نزاع بين المسلمين حول خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.
- بما أنّه لا طائل من النصب الإلهيّ للإمام إن لم يقترن بالإعلان والتبليغ، ويُعدّ حينئذ لغواً، فعندما يَنصب الله شخصاً إماماً للناس سوف يُعلمهُم به، ولا سبيل إلى الإعلان عن ذلك سوى بالنصّ الشرعيّ (الكتاب والسنّة).
- تُعتبر الكرامة من جملة السبل الكفيلة بإثبات الإمامة، والكرامة تماثل المعجزة في مدلولها.
- الشيعة يؤمنون بأنَّ الله -سبحانه وتعالى- أجرى على أيدي الأئمّة الميامين عليهم السلام أموراً خارقة للعادة إكراماً لهم باعتبارهم أقرب الأولياء الإلهيّين.
- من السبل الأخرى لمعرفة الإمام، دراسة خصائصه الفرديّة والاجتماعيّة وبحث المزايا الشخصيّة في حياته.
- ورد في روايات أهل السنّة أنّ خلفاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم اثنا عشر خليفةً.
- لقد أُشيرَ إلى عدد الأئمّة في روايات متواترة عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والعترة الطاهرة عليهم السلام وصرّح بعضها بأسمائهم أو بأسماء بعضهم.

الأسئلة

1. وضّح الصلة بين النصب وبين النصّ في موضوع الإمامة.
2. أثْبِت أنّ النصّ الشرعيّ ضروريّ لمعرفة الإمام.
3. كيف يمكن استكشاف وجود الإمام عن طريق المعجزة؟ وما الفرق بين المُعجزة في الإمامة والنبوّة؟
4. اذكر توجيهين من توجيهات علماء أهل السنّة حول روايات الخلفاء الاثني عشر، ثمّ ناقشهما.

الدرس الرابع والعشرون

أهل البيت عليهم السلام
في القرآن الكريم والسنّة الشريفة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف مصداق أهل البيت في القرآن الكريم والسنّة.
2. يبيّن فضائل أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم.
3. يتعرّف فضائل أهل البيت عليهم السلام في السنّة والأدعية والزيارات.

* تمهيد

تعرّفنا في الدرس السّابق إلى مصاديق الأئمّة بصورة عامّة عن طريق عدد خلفاء النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وثبت طبقاً للأدلّة من الفريقين، الشيعة والسنّة، أنّ عددهم محصور في دائرة اثني عشر شخصاً. أمّا، في هذا الدرس، فسنحاول التعرّف على مصاديق الإمامة والخلافة عن طريق مصطلح «أهل البيت».

إنّ «أهل البيت» -وفقاً للروايات المُستفيضة المُتّفق عليها بين الشيعة والسنّة- مصطلح ورد في الكتاب والسنّة، ولا يُراد منه المعنى اللغويّ فقط؛ بل المُراد منه النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين، وفاطمة الزهراء، والإمام الحسن، والإمام الحسين، والأئمّة التسعة المعصومون من ذريّة الحسين عليه السلام، فيقتصر المصطلح المذكور على المعصومين الأربعة عشر.

* مصداق أهل البيت عليهم السلام في القرآن والسنّة

ذُكر مصطلح «أهل البيت» في القرآن الكريم في آية التطهير، وفي القصّة المعروفة بـ«واقعة الكساء»، وقد ورد أكثر من حديث في بيان هذه القصّة، منها:

ما ورد في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام -في حديث-: «..﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾، فكان

عليّ والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت الكساء في بيت أُمِّ سلَمة، ثمَّ قال: **اللهمَّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي**، فقالت أُمُّ سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: **إنّك إلى خير، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي...**»[1].

وفي ذخائر العقبى لأحمد بن عبد الله الطبريّ عن أُمِّ سلمة «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة: **ائتني بزوجك وابنيك**، فجاءت بهم وأكفأ عليهم كساء فَدَكيّاً ثمّ وضع يده عليهم، ثمّ قال: **اللهمّ إنّ هؤلاء آل محمّد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمّد إنّك حميد مجيد**. قالت أُمُّ سلمة: فرفعتُ الكساء لأدخل معهم، فجذبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: **إنّك على خير**»[2].

وفي مسند أحمد بن حنبل عن أُمِّ سلمة، قالت: «كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي، فأتت فاطمة فقال: ادعي زوجك وابنيك، فجاء عليّ وفاطمة والحسن والحسين، وكان تحته كساء خيبريّ، فأنزل اللّه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3].

فأخذ فضل الكساء وكساهم به، ثمّ أخرج يده فألوى بها إلى السماء وقال: «**هؤلاء أهل بيتي**»، فأدخلت رأسي البيت وقلت: وأنا معهم يا رسول اللّه قال: «**إنّك إلى خير**»[4].

ولا يمكن القدحُ في سند حديث الكساء مطلَقاً؛ إذ أخرجه كبار المُحدّثين بطُرقٍ مختلفة في كتبهم المُعتبرة، إلى درجة أنّه يمكن ادّعاء التواتر بشأنه. ثمّ إنّ

(1) الشيخ الكليني، لكافي، مصدر سابق، ج1، ص287.

(2) الطبري، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى، مكتبة القدسي، مصر - القاهرة، 1356هـ، لا.ط، ص21.

(3) سورة الأحزاب، الآية 33.

(4) انظر: أحمد بن حنبل، المسند (مسند أحمد)، دار صادر، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج1، ص331، ج3، ص259-285، ج4، ص107، ج6، ص292، 304، 323. وأخرجه رزين العبدريّ في «الجمع بين الصحاح الستّة»، من موطّأ مالك وصحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وصحيح الترمذيّ والنسخة الكبيرة من صحيح النسائيّ. راجع: ابن البطريق، يحيى بن الحسن، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1407هـ ط1، ص33.

هذه الرواية بلغت من الشهرة حدّاً كبيراً في المجتمع الإسلاميّ، بحيث أُطلق على يوم وقوعها «يوم الكساء»، ولُقّب المعصومون الخمسة الذين شملتهم الرحمة الإلهيّة في ذلك اليوم بـ«أصحاب الكساء»[1].

وفضلاً عن أمير المؤمنين الإمام عليّ والإمام الحسن والإمام الحسين عليهم السلام، يدخل سائر الأئمّة التسعة الميامين عليهم السلام في عداد أهل البيت، فيكون عنوان «أهل البيت» الوارد في آية التّطهير شاملاً للجميع؛ لذا قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الخصوص: «**وَقَوْلُهُ:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ **يَعْني الأئمّة عليهم السلام وَوَلَايَتَهُم، مَنْ دَخَلَ فِيهَا دَخَلَ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم**»[2].

وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «**دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَوَقَدْ نَزَلَتْ هَذه الآيَةُ:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، **فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: يَا عَلِيُّ! هَذه الآيَةُ نَزَلَتْ فيكَ وَفي سِبْطَيَّ وَالأئمّة منْ وُلْدكَ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! وَكَم الأئمّة بَعْدَكَ؟ قَالَ: أَنْتَ يَا عَلِيُّ، ثُمّ ابْنَاكَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَبَعْدَ الْحُسَيْنِ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّد جَعْفَرٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ جَعْفَر مُوسَى ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُوسَى عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّد عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَالْحُجَّةُ منْ وُلْد الْحَسَن، هَكَذَا وَجَدْتُ أَسَامِيَهُمْ مَكْتُوبَةً عَلَى سَاق الْعَرْش، فَسَأَلْتُ اللهَ -سبحانه وتعالى- عَنْ ذَلكَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! هُمُ الأئمّة بَعْدَكَ مُطَهَّرُونَ مَعْصُومُون وَأَعْدَاؤُهُمْ مَلْعُونُونَ**»[3].

(1) انظر: أحمد بن حنبل، المسند، مصدر سابق، ج3، ص259؛ ج4، ص107؛ ج6، ص292؛ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، ج7، ص130؛ البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الفكر، لبنان - بيروت، لا.ط، ج2، ص152؛ النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1411هـ - 1991م، ط1، ج5، ص108؛ المتّقي الهنديّ، كنز العمّال، مصدر سابق، ج13، ص603 و649. وللاطلاع على الأسناد لحديث الكساء من طرق أهل السنّة والشيعة.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص423.

(3) الخزاز القمي، علي بن محمد، كفاية الأثر، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ لا.ط، ص155؛ الحرّ العامليّ، الشيخ محمد بن الحسن، الجواهر السنية، لا.ن، لا.م، 1384هـ - 1964م، لا.ط، ص558.

وعلاوةً على هذه الرّواية، شدّد الأئمّة الآخرون من بعد الإمام الحسين عليه السلام في الروايات المأثورة عنهم، على أنّهم هم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مشمولون بآية التّطهير، منها ما رُوي عن الإمام جعفر الصّادق عليه السلام أنّه قال: «**نَحْنُ شَجَرَةُ الْعِلْم، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، وَفي دَارِنَا مَهْبِطُ جَبْرَئِيلَ، وَنَحْنُ خُزَّانُ عِلْمِ اللهِ، وَنَحْنُ مَعَادِنُ وَحْيِ اللهِ، مَنْ تَبِعَنَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنَّا هَلَكَ**»[1].

* فضائل أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم

يمكن مُلاحظة فضائل أهل البيت عليهم السلام بصورة واضحة في الآيات القرآنيّة، وهذه المضامين القرآنيّة من الوضوح بحيث تحدّث عنها مفسّرو أهل السنّة بصراحة أيضاً، وسنُشير أدناه إلى بعض هذه الشواهد القرآنيّة.

1. آية التّطهير

تعلّقت إرادة الله -سبحانه وتعالى- في آية التّطهير بتطهير أهل البيت عليهم السلام من كلّ أشكال الرّجس، وتسطير فضيلة العصمة في صدر قائمة الفضائل الأخرى الكثيرة. وهذه الفضيلة -كما أشرنا سابقاً- مُختصّة بالأنوار الإلهيّة المُطهَّرة الأربعة عشر فقط، وغير شاملة لغيرهم من المنتسبين إلى نسب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

2. آيات سورة الإنسان

اتّفق المفسّرون من الشيعة والسنّة على أنّ الآيات 5 - 22 من سورة الإنسان نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام[2]. من هنا، قيل: إنّ سورة «هل أتى» نزلت بشأن أمير المؤمنين، ومن آيات هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا

(1) الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص307.

(2) انظر: تفسير الآيات 5 - 22 من سورة الإنسان في: الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق؛ القندوزي، الشيخ سليمان بن إبراهيم الحنفي، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق السيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران - قم، 1416هـ ط1، القيرواني، رسالة إبن أبي زيد، المكتبة الثقافية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج1، ص248.

كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

لا ريب في أنّ الإيثار يُعَدُّ كمالاً أرفع من الجود والسّخاء من بين الفضائل ومكارم الأخلاق المُختلفة؛ ذلك أنّ الجود والسّخاء يعني أنْ يهب الإنسان الشيء الفائض عن حاجته إلى المُحتاج، خلافاً للإيثار الذي يعني إنفاق ما يحتاجه الإنسان في سبيل الله. ويمكن مشاهدة مثال واضح على إيثار أهل البيت عليهم السلام في شأن نزول سورة «هل أتى».

أمّا قصّة هذا الإيثار فهي أنّ أمير المؤمنين وزوجته فاطمة وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام آثروا على أنفسهم وأعطوا إفطارهم المكوّن من قرص شعير فقط إلى مسكين ويتيم وأسير في ثلاث ليالٍ مُتتالية، وأفطروا على الماء فقط. وقد كانت درجة الإخلاص في هذا الإيثار عالية جدّاً بحيث أنزل الله -سبحانه وتعالى- في حقّ هذه الأسرة الطاهرة سورة قرآنيّة امتدح فيها تضحيتهم وإيثارهم بتعابير رائعة.

ويُستفاد من هذه الآيات أنّ أهل البيت عليهم السلام أشخاص محسنون وَفَوْا بعهودهم مع الله -سبحانه وتعالى-، وبلغوا مرتبة الخوف منه (جلّ وعلا)، وأحرزوا مقام الصّبر، وكانت نتيجة هذا الإيثار الخالص والخوف من الله والصّبر على المصائب حصولهم على أفضل النّعم والعطايا الإلهيّة يوم القيامة.

❋ فضائل أهل البيت في السنّة

يُمكن استكشاف فضائل أهل البيت عليهم السلام من الروايات المُستفيضة الواردة عن طريق الشيعة والسنّة على حدٍّ سواء، وسنشير هنا باختصار، إلى روايتين فقط في هذا المجال:

1. حديث الثّقلين

إنّ حديث الثّقلين من الأحاديث المشهورة والمُتواترة التي تبيّن منزلة أهل البيت عليهم السلام في مقام الهداية والولاية، وقد ورد في مصادر عدّة من أهل السنّة، والنصّ التالي هو ما ذكره النّسائي في سننه: عن زيد بن أرقم، قال: لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع ونزل غدير خمّ، قال: «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ منَ الْآخَرِ: كِتَابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1].

ويَدُلّ هذا الحديث الشّريف على أنّ القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام لا يفترقان أبداً بحسب نصّ الحديث، مضافاً إلى أنّ النصّ الكامل الذي ورد في كتب أخرى لأهل السنّة والشيعة ورد فيه بصراحة: «**قَدْ تَرَكْتُ فيكم مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا، فَلَا تَقْدُمُوهُمَا فَتَهْلَكُوا، وَلَا تُعَلِّمُوهُمَا فَإِنَّهُمَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ**»[2].

وعليه، يُستفاد من حديث الثّقلين فضائل عدّة لأهل البيت عليهم السلام، منها عصمتهم؛ ذلك أنّ عدم الضلال الناجم عن التمسّك بالقرآن ليس إلّا لأنّه كلام الله -سبحانه وتعالى-، ولا يعتريه الخطأ أو الزّلل أبداً، كما أنّ التمسّك بأهل البيت عليهم السلام لا يُفيد عدم الضلال إلّا في حال كونهم معصومين ولا يصدر عنهم الخطأ لا في الأقوال ولا في الأفعال.

ومن الفضائل الأخرى لأهل البيت عليهم السلام المُستفادة من حديث الثّقلين، كونهم عِدلاً للقرآن الكريم والوحي الإلهيّ في مرتبة الهداية وتحقيق السّعادة للناس في الدنيا والآخرة.

(1) أحمد بن حنبل، المسند، مصدر سابق، ج3، ص14 و17؛ النسائيّ، السنن الكبرى، مصدر سابق، ج5، ص45؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج2، ص401؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج12، ص271؛ القندوزيّ الحنفيّ، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج1، ص65.

(2) انظر: الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، لا.م، لا.ت، ط2، ج3، ص66؛ النسائيّ، السنن الكبرى، مصدر سابق، ج5، ص45.

2. حديث السفينة

حديث السفينة هو الآخر من الأحاديث المُبيِّنة لفضائل أهل البيت عليهم السلام، والتي تواتر نقلها لدى الشيعة والسنّة؛ حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيكُمْ كَمِثْلِ سَفِينَةِ نُوحٍ، مَنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ**»[1].

ويدُلّ هذا الحديث أيضاً على دور الهداية لأهل البيت عليهم السلام، وعصمتهم من كلّ أشكال الخطأ والزّلل؛ لأنّ الهداية قد حُصرت بقبول ولايتهم، وهي لا تتمّ إلّا بعصمتهم. وثمّة أحاديث أخرى مُشابهة لهذا الحديث شبّهت أهل البيت عليهم السلام بنجوم السماء[2] في أمر الهداية والإرشاد، وبباب حِطّة لدى بني إسرائيل[3] في مجال التواضع والخضوع أمامهم والامتثال لأوامرهم.

* فضائل أهل البيت عليهم السلام في الأدعية والزيارات

من المصادر الأخرى الغنيّة جدّاً ببيان فضائل أهل البيت عليهم السلام، الفقرات الكثيرة الواردة في الأدعية والزّيارات الموجودة في متناول أيدي عشّاق التقرّب إلى الله -سبحانه وتعالى- وإبراز المحبّة والمودّة للعترة الطّاهرة. وربّما تكون الزيارة الجامعة الكبيرة المرويّة عن الإمام الهادي عليه السلام[4] من أكمل الأدعية والزّيارات الواردة في هذا المجال؛ حيث احتوت على قائمة بالفضائل والكمالات والمقامات المعنويّة للأئمّة الأطهار عليهم السلام شَرَعَتْ بعبارة «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ

(1) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الصغير، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج1، ص139؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1401هـ - 1981م، ط1، ج1، ص373؛ ج2، ص533؛ المتّقي الهندي، كنز العمّال، مصدر سابق، ج12، ص94 و95 و98.

(2) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، كُلَّمَا غَابَ نَجْمٌ**»، الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ج1، ص281.

(3) انظر: الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص74؛ «**فَإِنَّ مَثَلَهُمْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ بَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ**». والمقصود بباب حطّة باب في بيت المقدّس هو الباب الذي كان يجب على بني إسرائيل أن يدخلوا منه بتواضع بأمر الله -سبحانه وتعالى-.

(4) ومن الزيارات الأخرى التي تكشف عن جانب من مناقب أهل البيت عليهم السلام وكمالاتهم، يمكن الإشارة إلى زيارة أمين الله، ومن الأدعية دعاء الندبة.

بَيْتِ النُّبُوَّة»، وواصلت وصفهم بتعابير دقيقة ورائعة وبليغة. على أنّ بيان هذه الفضائل وشرحها خارجٌ عن دائرة اهتمام هذا الكتاب[1]، بيد أنّنا سنكتفي بنقل بعض فقراتها بعنوان حسن الختام: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّة، وَمَعْدنَ الرِّسَالَة، وَمُخْتَلَفَ الْمَلَائكَة، وَمَهْبطَ الْوَحْي، وَمَعْدنَ الرَّحْمَة، وَخُزَّانَ الْعلْم، وَمُنْتَهَى الْحلْم، وَأُصُولَ الْكَرَم، وَقَادَةَ الْأُمَم، وَأَوْليَاءَ النِّعَم، وَعَنَاصرَ الْأَبْرَار، وَدَعَائمَ الْأَخْيَار، وَسَاسَةَ الْعبَاد، وَأَرْكَانَ الْبلَاد، وَأَبْوَابَ الْإيمَان، وَأُمَنَاءَ الرَّحْمَن، وَسُلَالَةَ النَّبيِّينَ، وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلينَ، وَعتْرَةَ خيَرَة رَبِّ الْعَالَمينَ، وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ. السَّلَامُ عَلَى أَئمَّة الْهُدَى، وَمَصَابيح الدُّجَى، وَأَعْلَام التُّقَى، وَذَوي النُّهَى، وَأُولي الْحجَى، وَكَهْف الْوَرَى، وَوَرَثَة الْأَنْبيَاء، وَالْمَثَل الْأَعْلَى، وَالدَّعْوَة الْحُسْنَى، وَحُجَج اللَّه عَلَى أَهْل الدُّنْيَا وَالْآخرَة وَالْأُولَى، وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ**»[2].

والخُلاصة أنّه يُمكن الوقوف على تفاصيل أكثر حول فضائل الأئمّة الأطهار عليهم السلام من خلال البحث في الزيارات المُعتبرة، وهي ممّا أشير إليه في روايات الفريقين، وقد وُضعت أصول هذه الفضائل والمناقب من قبل القرآن الكريم.

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: الميلانيّ، السيد علي الحسيني، مع الأئمّة الهداة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، مركز الحقائق الإسلاميّة، 1432هـ.ق، 1390هـ.ش، ط1.

(2) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج2، ص610؛ الشيخ الطوسيّ، تهذيب الأحكام، مصدر سابق، ج6، ص96.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ «أهل البيت» -وفقاً للرّوايات المُستفيضة المُتّفق عليها بين الشيعة والسنّة- مصطلح ورد في الكتاب والسنّة، ولا يُراد منه المعنى اللّغوّي فقط؛ بل المُراد منه النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين وفاطمة الزّهراء والإمام الحسن والإمام الحسين والأئمّة التسعة المعصومون من ذريّة الحسين عليه السلام.
- لا يمكن القدحُ في سند حديث الكساء مُطْلَقاً؛ إذ أخرجه كبار المُحدّثين بطُرقٍ مختلفة في كتبهم المُعتبرة، إلى درجة أنّه يمكن ادّعاء التواتر بشأنه. ثمّ إنّ هذه الرواية بلغت من الشّهرة حدّاً كبيراً في المجتمع الإسلاميّ، بحيث أُطلِق على يوم وقوعها «يوم الكساء».
- تعلّقت إرادة الله -سبحانه وتعالى- في آية التّطهير بتطهير أهل البيت عليهم السلام من كلّ أشكال الرّجس، وتسطير فضيلة العصمة في صدر قائمة الفضائل الأخرى الكثيرة.
- اتّفق المفسّرون من الشيعة والسنّة على أنّ الآيات 5 - 22 من سورة الإنسان نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام.
- أمّا قصّة هذا الإيثار فهي أنّ أمير المؤمنين وزوجته فاطمة وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام آثروا على أنفسهم وأعطوا إفطارهم المكوّن من قرص شعير فقط إلى مسكين ويتيم وأسير في ثلاث ليالٍ مُتتالية، وأفطروا على الماء فقط.
- إنّ حديث الثّقلين من الأحاديث المشهورة والمُتواترة التي تبيّن منزلة أهل البيت عليهم السلام في مقام الهداية والولاية.

الأسئلة

1. كيف يمكن الاستدلال بآية التّطهير وحديث الكساء على إمامة أمير المؤمنين وأولاده عليهم السلام؟

2. اذكر ثلاثة موارد من فضائل أهل البيت عليهم السلام مع الشاهد عليها من سورة «هل أتى».

3. أثبت إمامة أهل البيت عليهم السلام وبيّن صفتي العلم والعِصمة من حديث الثّقلين.

4. كيف تستدلّ بحديث السّفينة على إمامة الأئمّة عليهم السلام وعصمتهم؟

الدرس الخامس والعشرون



إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح دلالة آية الولاية على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.
2. يلخّص دلالة آية الإنذار على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.
3. يبيّن دلالة آية التبليغ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.



* تمهيد

إلى الآن تعرّفنا إجمالاً، في مباحث الإمامة الخاصّة، على المقامات الرفيعة للأئمّة الأطهار عليهم السلام، وتبيّن أنّ هؤلاء الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام فقط هم المصاديق الجديرة بخلافة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ومن الآن فصاعداً سنشرع ببيان الأدلّة والشّواهد الكفيلة بإثبات إمامة كلّ واحد من الأئمّة بشكل خاصّ، وستكون البداية مع الإمام عليّ عليه السلام، ثمّ نبحث سائر الأئمّة.

ثمّة آيات وروايات كثيرة تدلّ على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وسَنُبيّن أدناه جُملة من الآيات القرآنيّة بصورة مُختصرة.

* آية الولاية

وهي من الآيات المعروفة الدالّة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؛ حيث قال -سبحانه وتعالى-:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1].

(1) سورة المائدة، الآيتان 55 - 56.

وبما أنّ الأداة «إنّما» من أدوات الحصر، فيكون معنى الآية الشّريفة أنّ الوليّ على الناس لا يخرج عن دائرة الله ورسوله وأولئك المؤمنين الذين نزلت فيهم هذه الآية.

وقد ذكروا معنيين رئيسين لكلمة «الوليّ» في كتب اللّغة، فذهب الجوهريّ في الصّحاح إلى أنّ الولاية تعني القرب والدنو[1]، وكذلك فسّر ابن فارس هذه الكلمة بالقرب والدنوّ؛ لكنّهما ذكرا لها معنى آخر، وهو أنّ كلّ من ولي أمر آخر فهو وليّه[2]. وكذا فعل الفيروزآبادي، فذكر المعنيين المتقدّمين للوليّ، مضافاً إلى الإمارة والسلطان[3].

كذلك أشارت سائر الكتب اللغويّة إلى هذين المعنيين، واعتبرت الولاية بمعنى الحكم وملك الأمر والقيام بشيءٍ والتسلّط عليه[4]. وعلى هذا الأساس، ذكر بعض الباحثين جميع هذه المعاني للوليّ، وقال: إنّ الوليّ يأتي بمعنى صاحب الأمر، من يلي الأمر، السلطان، النّصير، والولاية بمعنى النّصرة، المحبّة، المودّة، القرابة، الخطّة وبلاد السلطان[5].

ومع ذلك كلّه، يمكن أن نثبت أنّ المعنى الوحيد المُناسب لكلمة «الوليّ» في آية الولاية من بين المعاني المتقدّمة، هو الحكم والسّلطة بمعناها الدقيق، أي الأولى بالتصرّف من غيره. ولتوضيح ذلك نقول:

أوّلاً: إنّ كلمة «إنّما» الواردة في بداية الآية تدلّ على الحصر، بمعنى أنّ الله -سبحانه وتعالى- يريد حصر الولاية على الناس بهؤلاء الثلاثة، الله ورسوله وأمير

(1) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، 1407هـ - 1987م، ط4، ج6، ص2528، مادّة «ولي».

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج6، ص141، مادّة «ولي».

(3) الفيروزآبادي، الشيخ محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج4، ص401، مادّة «ولي».

(4) أنيس، إبراهيم وآخرون (عبد الحليم منتصر-عطية الصوالحي-محد خلف أحمد) المعجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدوليّة، 2004م، ط4، مادة «ولي».

(5) يزدي مطلق، امامت پژوهى (معرفة الإمامة)، ص181.

المؤمنين، ونفيها عن جميع من سواهم، إلّا مع قيام دليل خاصّ على شمولها لبعض الأفراد الآخرين.

ثانياً: إنّ الحصر الموجود في الآية لا يتناسب مع أيٍّ من المعاني الثلاثة الأخرى: المُحبّ والصّديق والنّاصر؛ لأنّ هذه الصّفات الثلاث غير مقتصرة على جماعة خاصّة من المؤمنين؛ بل أكّد القرآن الكريم على أنّ جميع المؤمنين يحبُّون بعضهم وتجمع بينهم أواصر الصداقة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾[1].

بناءً على ذلك، فالحصر الوارد في مستهلّ الآية يستلزم حصر الحكم في الآية بالثّلاثة المذكورين، ويلزم من ذلك كون «الوليّ» في هذه الآية قد جاء بمعنى خاصّ، وليس هو إلّا الأولويّة في التصرّف بمقتضى آيات أخرى نظير: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وفي هذه الحالة يكون معنى الآية المتقدّمة أنّه ليس لأحد أولويّة التصرّف في أموركم إلّا هؤلاء الثلاثة[2]. على أنّه من الضروريّ الالتفات إلى شأن نزول هذه الآية ليُستفاد منها الدلالة على الإمامة وولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

والآن لا بدّ من أن نرى من هو المُراد من قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية؟

صرّح جميع علماء الشيعة وأغلب المُفسّرين والمحدّثين من أهل السنّة أيضاً أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام[3]. وعلى الرّغم من اختلاف قصّة

(1) سورة التوبة، الآية 71؛ انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، 1416هـ - 1996م، ط1، ج2، ص308؛ ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)، تحقيق: أسعد محمد الطبيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، لا.ط، ج12، ص26؛ ج12، ص54؛ ج15، ص211؛ ج16، ص131؛ وباقي التفاسير أيضاً تجدر الإشارة إلى أنّ بعض هذه التفاسير ذكر معنى النصرة للأولياء أيضاً.

(2) انظر: موحّدي، امامت تطبيقي (الإمامة العملية)، ص116-132.

(3) انظر تفاسير أهل السنّة: مقاتل بني سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان؛ الطبريّ، جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبريّ)؛ الحسكانيّ، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل؛ القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن؛ البيضاويّ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاويّ)؛ السيوطيّ، الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور؛ و... وجميع التفاسير الشيعيّة في تفسير هذه الآية الشريفة.

شأن نزول هذه الآية في العبارات والألفاظ في التفاسير المُختلفة، غير أنّ أصل الحكاية مُشتركة بينها جميعاً، وسنكتفي هنا، بنقل رواية واحدة عن مفسّري أهل السنّة:

عن أبي ذرّ قال: إنّي صلّيتُ مع رسول الله يوماً من الأيام صلاة الظهر، فدخل سائل في المسجد، فلم يُعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السّماء وقال: اللهمّ اشهد إنّي سألتُ في مسجد رسول الله فلم يُعطني أحد شيئاً. وكان عليّ عليه السلام راكعاً، فأومى إليه بخنصره اليمنى، وكان يتختّم فيها، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فلما فرغ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة، رفع رأسه إلى السماء وقال: «**أللّهمَّ إنَّ أخي مُوسَى سَألَكَ، فَقَالَ:** ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ **الآية، فأنزلت عليه قُرآناً ناطقاً:** ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾. **اللهمَّ وَأنَا مُحَمَّدٌ نَبيُّكَ وَصَفيُّكَ، اللّهمَّ فَاشْرحْ لِي صَدْرِي، ويسّرْ لِي أَمْرِي، وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي، عَلِيّاً أُشْدُد بِهِ ظَهْرِي**».

قال أبو ذر: فوالله مَا استتمَّ رَسُولُ الله الكلمة حتّى أُنزل عليه جبرئيل من عند الله، فقال: يَا مُحمَّد! إقرأ؛ فَقَالَ: **وَمَا أَقْرَأ؟** قَالَ: إقْرَأ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلى ﴿رَٰكِعُونَ﴾[1].

* آية الإنذار

لمّا نزل قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[2]، بعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمام عليّاً عليه السلام ليدعو له عشيرته وأقاربه من بني عبد المطّلب

(1) انظر: الثعلبي، الإمام أبو محمد بن عاشور، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، 1422هـ - 2002م، ط1، ج4، ص80؛ الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، 1411هـ - 1990م، ط1، ج1، ص230.

(2) سورة الشعراء، الآية 214.

إلى طعام، فحضروا جميعاً في اليوم التالي إلى منزل أبي طالب، وبعد انتهائهم من الأكل والشرب تكلّم رسول الله ﷺ فقال: «**يَا بَنِي عَبْد الْمُطَّلب،إِنِّي وَالله مَا أَعْلَمُ شَابّاً فِي الْعَرَب جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِه، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْه، فَأَيُّكُمْ يُؤْمِنُ بِي وَيُؤَازِرُنِي عَلَى أَمْرِي، فَيَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِي أَهْلِي مِنْ بَعْدِي؟ قَالَ: فَأَمْسَكَ الْقَوْمُ، وَأَحْجَمُوا عَنْهَا جَمِيعاً. قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام... فَقُلْتُ: أَنَا يَا نَبِيَّ الله أَكُونُ وَزِيرَكَ عَلَى مَا بَعَثَكَ الله بِه. قَالَ: فَأَخَذَ بِيَدِي ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَوَزِيرِي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا**»[1].

على أنّ النبيّ ﷺ كان يعلم أنّ عليّاً عليه السلام فقط هو من سيقبل دعوته، ولم تكن دعوة القوم وتكرارها إلّا لأجل التأكيد على استحقاق أمير المؤمنين عليه السلام لهذا المنصب بجدارة، وعلى منزلته الرّفيعة، ولإتمام الحجّة على الآخرين.

هذا، وتعدّ هذه القصّة المعروفة بـ«حديث يوم الدّار» من أوضح الأدلّة وأجلى البراهين على إمامة عليّ عليه السلام، وقد رواها أهل السنّة أيضاً بطرق مختلفة[2].

* آية التّبليغ

خلال رجوع المُسلمين من حجّة الوداع، وعند وصولهم إلى غدير خمّ، نزلت الآية الشريفة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[3].

(1) ابن طاووس، السيد علي بن موسى، سعد السعود، منشورات الرضى، إيران - قم، 1363هـ لا.ط، ص105، -192 191؛ نقلاً عن: الشيخ الطوسي، الأمالي، مصدر سابق، ص20 - 21. وقد نُقل هذا الحديث في كتاب «سعد السعود» بطريقين من العامّة والخاصّة.

(2) يمكن ملاحظة هذه الرّواية مع اختلاف طفيف في التعابير في المصادر الآتية: الطبريّ، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج2، ص63؛ الطبريّ، تفسير الطبريّ، ج19، ص74-75؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج2، ص62؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج13، ص211؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، مصدر سابق، ج1، ص87؛ المتّقي الهنديّ، كنز العمّال، مصدر سابق، ج15، ص115.

(3) سورة المائدة، الآية 67.

وقد أجمع مفسّرو الشيعة على أنّ هذه الآية نزلت في واقعة غدير خم، كما اعترف بذلك كثير من علماء أهل السنّة أيضاً[1].

ولمّا نزلت آية التّبليغ دعا النبيّ الكريم ﷺ المسلمين إلى التوقّف والاجتماع وخطب فيهم، ثمّ رفع يد عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى بان بياض إبطه وقال بصوت مُرتفع:«**أَيُّهَا الناس! مَنْ أَوْلَى الناس بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**».

فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ مَولايَ، وَأَنَا مَولَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَا أَوْلَى بِهِمْ من أَنْفُسِهِمْ**».

وأردف قائلاً: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**».

قال ذلك ثلاثاً (وذكر بعض الرواة أنّه قال أربعاً)، ثمّ دعا بهذا الدعاء: «**اللَّهُمَ وَالِ مَنْ وَالاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاه، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِالْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ**»، وختم كلامه بالقول: «**أَلَا فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ**».

ثمّ دعا إلى نصب خيمة لأمير المؤمنين عليه السلام وأمر حشود الناس بمبايعته وتهنئته على الخلافة الإلهيّة[2].

قال المُخالفون: لمّا كانت الآيات السّابقة واللّاحقة لآية التّبليغ تتحدّث عن أهل الكتاب وارتكابهم المُخالفات، كيف يمكن أن تكون هذه الآية مُتعلّقةً بواقعة الغدير؟[3].

والجواب أَنَّ القرآن الكريم كتاب هداية، فلم تُرتّب محتوياته مثل محتويات الكتب الرسميّة والعلميّة ضمن فصول وأبواب مُعيّنة؛ وإنّما نزلت آياته بهدف

(1) للمزيد حول هذا الموضوع انظر الكتب المهمّة: الشيخ الأمينيّ، الغدير، مصدر سابق؛ نور الله الشوشتري، إحقاق الحقّ؛ شرف الدين، المراجعات؛ المظفّر، دلائل الصدق.

(2) انظر: السيوطيّ، الدرّ المنثور، مصدر سابق، ج3، ص304 و323؛ القندوزيّ الحنفيّ، ينابيع المودّة، مصدر سابق، ج1، ص78؛ وقد ورد القسم الأعظم من الحديث في: النسائيّ، السنن الكبرى، مصدر سابق، ج5، ص45.

(3) رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الكريم «تفسير المنار»، دار المنار، مصر - القاهرة، 1366هـ - 1947م، ط2، ج6، ص466.

تربية الإنسان بحسب الاحتياجات والحوادث المختلفة؛ لذا فمن الطبيعيّ أن نجد أنّه في الوقت الذي يتحدّث عن إحدى الغزوات يَطرح حُكماً فرعيّاً لإحدى المسائل الدّينيّة، وفي ما يدور الكلام فيه حول اليهود والنّصارى، يعطف عنان الكلام إلى المسلمين ويشرح لهم أحد الأحكام الإسلاميّة[1].

السؤال الآخر الذي قد يتبادر إلى الأذهان هو: لماذا لم يرد ذكر اسم الإمام عليّ عليه السلام بصراحة في القرآن الكريم؟! ولماذا لم يقل الله -سبحانه وتعالى- لنبيّه: يا أيّها الرسول بلّغ إمامة الإمام عليّ؟!

الجواب:

أوّلاً: لم يتناول القرآن الكريم الحديث عن جميع القضايا الإسلاميّة بصورة مباشرة[2]؛ فعلى سبيل المثال، أمر القرآن بأداء فريضة الحجّ بصورة عامّة، ومن ثمّ جاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبيّن تفاصيل أعمال الحجّ.

ثانياً: إنّ مضامين القرآن تدلّ بوضوح على صواب منهج أمير المؤمنين عليه السلام، في حين لو ذُكرت تفاصيل إمامته فيه بصورة مباشرة لازدادت احتمالات سعي المُخالفين إلى تحريفه. وعليه، فبيان الإمامة بهذه الطريقة منعت المخالفين من التحريف من جهة، وأتمّت الحجّة على الجميع من جهة ثانية.

ثالثاً: صحيح أنّ الله -سبحانه وتعالى- لم يذكر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم بصراحة، بيد أنّه ذكرها بالمقدار اللّازم في سياق آيات مُجملة؛ ليختبر مدى طاعة الناس للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ناحية، ويكشف النقاب عن الأهواء والوساوس الشيطانيّة والنفاق والأحقاد الدفينة من ناحية أخرى.

(1) لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: مكارم الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج4، ص83.

(2) لقد شرحنا هذه النقطة بالتفصيل في الدرس الأوّل.

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نستفيد من مجموع الآيات المذكورة أنّ الله -سبحانه وتعالى- أقام الحجّة على الأمّة بالتأكيد على صواب منهج أمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

- بما أنّ الأداة «إنّما» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي أداة حصر فيكون معنى الآية الشّريفة أنّ الوليّ على الناس لا يخرج عن دائرة الله ورسوله وأولئك المؤمنين الذين نزلت فيهم هذه الآية.
- يمكن أن نثبت أنّ المعنى الوحيد المُناسب لكلمة «الوليّ» في آية الولاية من بين المعاني المتقدّمة، هو الحكم والسلطة بمعناها الدقيق، أي الأولى بالتصرّف من غيره.
- صرّح جميع علماء الشيعة وأغلب المُفسّرين والمحدّثين من أهل السنّة أيضاً، أنّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام.
- تُعَدُّ القصّة المعروفة بـ«حديث يوم الدّار» من أوضح الأدلّة وأجلى البراهين على إمامة عليّ عليه السلام، وقد رواها أهل السنّة أيضاً بطرق مختلفة.
- لمّا نزلت آية التّبليغ دعا النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين إلى التوقّف والاجتماع وخطب فيهم، ثمّ رفع يد عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتّى بان بياض إبطه وقال بصوت مُرتفع: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**».
- صحيح أنّ الله -سبحانه وتعالى- لم يذكر إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن الكريم بصراحة، بيد أنّه ذكرها بالمقدار اللّازم في سياق آيات مُجملة؛ ليختبر مدى طاعة الناس للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ناحية، ويكشف النّقاب عن الأهواء والوساوس الشيطانيّة، والنفاق والأحقاد الدفينة من ناحية أخرى.

الأسئلة

1. ما النّقاط التي يجب التّركيز عليها في آية الولاية، لإثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام؟
2. لماذا برأيك، اختار النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واقعة يوم الدار للإعلان مبكّراً عن خلافة عليّ بن أبي طالب عليه السلام؟
3. استدلّ بآية التّبليغ وحديث الغدير على موضوع النَّصب الإلهيّ للإمام عليّ عليه السلام وعصمته وعلمه، فضلاً عن إثبات أصل إمامته.

الدرس السادس والعشرون

إمامة أمير المؤمنين عليه السلام في السنّة النبويّة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف حديث الغدير ودلالته الواضحة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.
2. يشرح حديث المنزلة ودلالته على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام.
3. يجيب عن الإشكالات حول دلالة هذا الحديث على خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

* تمهيد

لم يترك النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مناسبةً، طيلة فترة رسالته، إلّا تحدّث فيها عن خلافة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فكان يُعلن للنّاس في كلّ مرّة عن اقتدار الإمام على إدارة شؤون الأمّة؛ بيد أنّ الأمر الأهمّ في هذا المجال هو تأكيد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أنّ إمامة أمير المؤمنين عليه السلام بأمر من الله -سبحانه وتعالى-، ما يعني أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخصوص -كما هو الحال في سائر الأوامر الإلهيّة أيضاً- لا يعدو الوساطةَ في تبليغ الأمر الإلهيّ. وسنتطرّق هنا، إلى حديثين فقط من بين الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب:

* حديث الغدير

يُعدّ حديث الغدير من أهمّ الأدلّة وأوضحها على ولاية أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وسنتطرّق في البداية، إلى بعض الشّواهد والقرائن الدالّة على صحّة سند هذا الحديث، ثمّ نبحث كيفيّة دلالته على المُدّعى:

1. سند حديث الغدير

إنّ كلام النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم المعروف بحديث الغدير لهو من أشهر الأحاديث في إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقله 110 أصحاب، و84 تابعيّاً[1]،

(1) المقصود بالصحابيّ بحسب اصطلاح أهل السنّة هو كلّ من رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والمراد من التابعيّ عندهم هو من رأى صحابياً أو كان على ارتباط به.

وذكره 360 محدّثاً ومفسّراً من أهل السنّة في كتبهم، فضلاً عن محدّثي الشيعة ومفسّريهم. فعلى سبيل المثال، ورد هذا الحديث في «سنن التّرمذي» و«سنن ابن ماجة»[1]، وهما من الصّحاح الستّة المعروفة، كذلك في «مُسند أحمد بن حنبل»[2]، وهو من الكتب الروائيّة الشهيرة بين أهل السنّة. وقد اعترف بصحّة كثير من أسانيد هذا الحديث كلّ من الذهبيّ وابن حجر، على الرغم من اشتهارهما بالتعصّب الشديد[3].

مُضافاً إلى ذلك، ورد في مواضع كثيرة من كتب أهل السنّة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أو أحد الأئمّة الأطهار من أهل البيت عليهم السلام أو أحد أتباع مذهبهم استدلّ، في موارد عديدة، بحديث الغدير، منها أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استدلّ بهذا الحديث العظيم يوم الشورى، وفي أيّام حكم عثمان، وأثناء حرب الجمل وصِفّين[4].

وفضلاً عن مولى المتّقين عليه السلام، فقد استدلّ، بحديث الغدير، كلّ من السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام وولديها الحسن والحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر، وعمّار بن ياسر، وقيس بن سعد بن عبادة، والخليفة الأمويّ عمر بن عبد العزيز، والخليفة العبّاسيّ المأمون؛ بل حتّى عمرو بن العاص أشار إلى واقعة الغدير

(1) الترمذي، محمد بن عيسى بنسورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2، ج5، ص297؛ القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج1، ص55-58.

(2) أحمد بن حنبل، المسند، مصدر سابق، ج1، ص84، 88، 118، 119، 152، 281، 331، 370.

(3) ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن علي، فتح الباري، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، لا.ت، ط2، ج7، ص61؛ الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ت، لا.ط، ج3، ص1043.

(4) المتّقي الهنديّ، كنز العمّال، مصدر سابق، ج13، ص157-158؛ ابن حجر الهيتمي، أحمد بن حجر، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، مصر، 1385هـ - 1965م، ط2، ص126؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق. انظر: الشيخ الأمينيّ، الغدير، مصدر سابق، ج1، ص159-162؛ إذ توجد مصادر أخرى في هذا الكتاب.

بصراحة في كتاب بعثه إلى معاوية[1]؛ ليثبت له أنّه على اطّلاعٍ كافٍ على الحقائق المُتعلّقة بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ووضع ابن أبي سفيان.

2. دلالة حديث الغدير

لا بدّ من بحث الأمور التالية بشأن دلالة حديث الغدير وآية التّبليغ على إمامة الإمام عليّ عليه السلام: فسّر بعض المُتكلّمين كلمة «المولى» بمعنى الصاحب والناصر من أجل إنكار دلالة الحديث على الإمامة[2]؛ ولكن ذكرنا سابقاً أنّ المعنى الأساس والصّحيح لهذه الكلمة هو «الأولى بالتصرّف». وقد أشار العلّامة الأمينيّ في كتابه «الغدير» إلى 27 معنى لكلمة «المولى» من الكتب اللغويّة، أهمّها: الوليّ، الأولى بالشيء، السيّد، المُحبّ، الناصر، المُتصرّف في الأمر، المتولّي في الأمر[3]. ثمّ خلص إلى القول:

«على أنّ الذي نرتئيه في خصوص المقام، بعد الخوض في غمار اللغة، ومجاميع الأدب، وجوامع العربيّة، أنَّ الحقيقة من معاني المولى ليس إلّا الأولى بالشيء، وهو الجامع لهاتيك المعاني جمعاء، ومأخوذ في كلٍّ منها بنوع من العناية، ولم يُطلَق لفظ المولى على شيء منها إلّا بمناسبة هذا المعنى»[4].

ثمّ شرع العلّامة الأمينيّ في إثبات مدّعاه، من خلال الإتيان بالقرائن والشّواهد المختلفة من كتب اللغة العربيّة والتفاسير لكبار المُفسّرين من أهل السنّة.

مضافاً إلى ذلك، هناك قرائن في حديث الغدير نفسه تثبت أنّ لفظ «المولى» جاء بمعنى الإمام والأولى بالتصرّف.

(1) لمزيد من المعلومات، انظر: الشيخ الأمينيّ، الغدير، مصدر سابق، ج1، ص159-213.
(2) انظر: التفتازانيّ، شرح المقاصد مصدر سابق، ج5، ص273.
(3) الشيخ الأمينيّ، الغدير، مصدر سابق، ج1، ص362.
(4) المصدر نفسه، ص368.

القرينة الأولى: إنّ النبيّ الكريم ﷺ خاطب جموع الحجّاج المجتمعين قبل الإعلان عن ولاية عليّ عليه السلام بعبارة: «**مَنْ أَوْلَى الناس بِالْمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟**»، وهي تدلّ بوضوح على أنّ المُراد من «المولى» الأولويّة في التصرّف، والإمام القائد.

القرينة الثانية: كما أنّ جميع الحاضرين يوم وقعة الغدير، وكلّ من سمع الخبر لاحقاً أيضاً، وكثير منهم متبحّرون في دقائق اللّغة العربيّة، فهموا من كلمة «المولى» أنّها تعني الإمامة، كذلك فهمها الشعراء والأدباء إلى عصرنا الراهن؛ وهذا من الأدلّة الواضحة على أنّ المقصود من المولى، في هذا الحديث، هو الإمام والقائد. وإليكم بعض الأمثلة في هذا المجال:

استأذن حسّان بن ثابت، الذي كان حاضراً يوم الغدير، من النبيّ ﷺ لينشد أبياتاً بهذه المناسبة، وما إن انتهى رسول الله ﷺ من خطبته حتّى قام وارتجل قصيدة شعريّة، منها:

فقال له: قُم يا عليّ فإنّني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

وفي هذا السياق، بادر الخليفتانِ الأوّل والثاني -عمر وأبو بكر- أيضاً لتهنئة الإمام عليّ عليه السلام ومبايعته، فقال أبو بكر: «بخٍ بخٍ لك يا بنَ أبي طالب! أصبحتَ وأمسيتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة!».

وقال الخليفة الثاني: «هنيئاً لكَ يا بنَ أبي طالب! أصبحتَ مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة!»[1].

ومن الواضح أنّ تهنئة الإمام عليه السلام لا تتناسب إلّا مع تعيينه إماماً للأُمّة.

---

(1) انظر: أحمد بن حنبل، المسند، مصدر سابق، ج4، ص281؛ الطبريّ، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج3، ص428؛ ابن حجر، الصواعق المحرقة، مصدر سابق، ص26؛ ومصادر أخرى كثيرة. وقد أورد العلّامة الأمينيّ تفاصيل هذه الواقعة مع ذكر الأقوال المتعدّدة لأهل السنّة، انظر: الشيخ الأمينيّ، الغدير، مصدر سابق، ج1، ص239-246.

القرينة الثالثة: ليس من المنطقيّ أن يجمع النبيّ ﷺ تلك الحشود الغفيرة من الناس ويوقفهم ساعات من الزمن تحت حرارة الشمس المُحرقة في أرض الحجاز لغرض أن يُبلّغهم أنّ عليّاً عليه السلام ناصره وصاحبه فقط؛ بل لا يتسنّى هذا الفعل منه ﷺ إلّا لأجل الإعلان عن أمرٍ مهمّ للغاية، أي تقليده الخلافة والإمامة من بعده.

* حديث المنزلة

يُعدّ حديث المنزلة من الأحاديث المهمّة التي قالها نبيّ الإسلام ﷺ في مدح أمير المؤمنين عليه السلام والدالّة على خلافته وإمامته، وقد قاله في مواضع مختلفة، منها:

لمّا خرج النبيّ ﷺ لقتال أهل الرّوم (في منطقة يُقال لها: تبوك، وتقع شمال الجزيرة العربيّة)، خلّف وراءه على المدينة الإمام عليّاً عليه السلام لدرء مؤامرات المُنافقين، وحينما سأل عن سبب عدم اصطحابه إلى تلك الغزوة وبقائه في المدينة قال النبيّ ﷺ: «**يَا عَلِيُّ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي؟ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَا وَأَنْتَ خَلِيفَتِي**»[1].

وتُعتبر هذه الرواية من الفضائل الكبرى لأمير المؤمنين عليه السلام بحيث لم يتمكّن الأعداء من التّعتيم عليها، واضطرّوا إلى الاعتراف بها، فلمّا سبّ معاوية عليّاً عليه السلام في مجلسه، اعترض عليه سعد بن أبي وقّاص -وهو من خصوم الإمام- وقال: «أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حُمر النِّعم». وهذه الثلاث هي: حديث المنزلة، وقصّة إعطاء الراية في غزوة خيبر، وواقعة المُباهلة[2].

(1) أحمد بن حنبل، المسند، مصدر سابق، ج1، ص709؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج37، ص254 - 289.

(2) مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، ج7، ص120؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج37، ص264.

1. دلالة حديث المنزلة

أثبت هذا الحديث جميع مقامات النبيّ هارون عليه السلام لأمير المؤمنين عليه السلام عدا النبوّة، وقد ورد في القرآن الكريم أنّ النبيّ موسى عليه السلام سأل الله -سبحانه وتعالى- قائلاً: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾[1].

وقال -سبحانه وتعالى- في موضع آخر على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾[2].

فكما كان النبيّ هارون عليه السلام أخا النبيّ موسى عليه السلام وخليفته في قومه، ووزيره وشريكه في إبلاغ دين الله، فكذلك الإمام عليّ عليه السلام له تلك المنزلة بالنّسبة إلى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

2. أسئلة وردود

طُرحت بعض الإشكالات والشبهات حول دلالة هذا الحديث على خلافة الإمام عليّ عليه السلام، وسنُشير هنا إلى عدد منها:

أ. اختصاص الحديث بزمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: بما أنّ نَصْبَ الإمام عليه السلام خليفةً للمسلمين كان في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وخلال غزوة تبوك تحديداً، يمكن أن يُطرح السؤال الآتي: أنّى لنا تعميم ذلك على عصر ما بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؟

والجواب أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل هذه الجُملة مرّة واحدة فقط؛ وإنّما قالها في مواضع مختلفة، منها: عند إغلاق أبواب بيوت المسلمين على مسجد النبيّ إلّا باب بيت عليّ[3] عليه السلام وعند عقد الأُخوّة بين المسلمين[4]. وممّا يؤيّد أنّ هذه

(1) سورة طه، الآيات 29 - 32.

(2) سورة الأعراف، الآية 142.

(3) انظر: ابن المغازلي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، انتشارات سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إيران، 1426هـ - 1384ش، ط1، ص255.

(4) انظر: النسائي، أحمد بن شعيب، فضائل الصحابة، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط، ج2، ص663.

الخلافة لا تقتصر على تلك المُدّة المحدودة، الألفاظ المختلفة التي استعملها النبيّ ﷺ، من قبيل: خليفتي، وزيري، وصيّي؛ حيث يُستشفّ من ذلك أنّه كان بصدد بيان مَنْصِب الإمام ومَقَامِه بصورة عامّة.

ب. موت هارون في حياة موسى: الإشكاليّة الأخرى التي طُرحت في هذا المجال، هي أنّ هارون توفّي في حياة النبيّ موسى بن عمران عليه السلام، ولم يصبح وزيراً له؛ وعندئذٍ كيف يمكن استفادة إمامة أمير المؤمنين عليه السلام من هذا الحديث؟

الجواب: إنّ موت هارون قبل النبيّ موسى عليه السلام لا يسبّب مشكلة في هذا البحث؛ ذلك أنّ الخلافة والإمامة تارةً تحصل في زمن غَيْبَة القائد، كما حدثت لهارون عند غَيْبَة موسى عليه السلام وتارةً تحصل بعد موته كما هو الحال بالنسبة إلى الإمام عليّ عليه السلام بعد وفاة النبيّ الأكرم ﷺ، ولكلا هذين النّوعين قدرٌ مُشترك بينهما، وإن تباينت المصاديق.

أضف إلى ذلك أنّ التشبيه المذكور في الحديث إنّما هو من ناحية المقام، أي مقام هارون من موسى، دون غيره من الجهات، وبالتالي فإنّ موت هارون قبل موسى عليه السلام لا يقيّد التشبيه بذلك.

وقد قال رسول الله ﷺ في موضع آخر، حول نسبة أمير المؤمنين عليه السلام إليه: «**يَا عَلِيُّ، أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هِبَةِ اللَّهِ مِنْ آدَمَ، وَبِمَنْزِلَةِ سَامٍ مِنْ نُوحٍ، وَبِمَنْزِلَةِ إِسْحَاقَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَبِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَبِمَنْزِلَةِ شَمْعُونَ مِنْ عِيسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»[1].

ففي هذا الحديث الشريف، شبّه النبيّ ﷺ خلافة عليّ عليه السلام له بخلافة عدد من الأنبياء، ولم يقتصر التّشبيه على خلافة هارون لموسى عليه السلام ليُتاح طرح مثل هذه الإشكالات.

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص46.

المفاهيم الرئيسة

- لم يترك النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مناسبةً طيلة فترة رسالته إلّا تحدّث فيها عن خلافة عليّ بن أبي طالب عليه السلام.
- إنّ حديث الغدير لهو من أشهر الأحاديث في إثبات إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقله 110 أصحاب و84 تابعيّاً، وذكره 360 محدّثاً ومفسّراً من أهل السنّة في كتبهم، فضلاً عن محدّثي الشيعة ومفسّريهم.
- فسّر بعض المُتكلّمين كلمة «المولى» بمعنى الصاحب والناصر من أجل إنكار دلالة الحديث على الإمامة؛ ولكن ذكرنا سابقاً أنّ المعنى الأساس والصحيح لهذه الكلمة هو «الأولى بالتصرّف».
- يُعدّ حديث المنزلة من الأحاديث المهمّة التي قالها نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في مدح أمير المؤمنين عليه السلام والدالّة على خلافته وإمامته.
- أثبت هذا الحديث جميع مقامات النبيّ هارون عليه السلام لأمير المؤمنين عليه السلام عدا النبوّة.
- إنّ موت هارون قبل النبيّ موسى عليه السلام لا يسبّب مشكلة في هذا البحث؛ ذلك أنّ الخلافة والإمامة تارةً تحصل في زمن غَيْبَة القائد، كما حدثت لهارون عند غَيْبَة موسى عليه السلام وتارةً تحصل بعد موته كما هو الحال بالنسبة إلى الإمام عليّ عليه السلام بعد وفاة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

الأسئلة

1. ما الأدلّة والشواهد على أنّ حديث الغدير قطعيّ الصدور؟

2. اشرح معنى كلمة «المولى» الواردة في حديث الغدير في ضوء الشبهات المطروحة في هذا المجال.

3. لمّا كان هارون قد مات في حياة موسى عليه السلام، كيف يمكن تعميم حديث المنزلة ليشمل استخلاف الإمام عليّ عليه السلام للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته؟

الدرس السابع والعشرون



إمامة سائر الأئمّة عليهم السلام

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح دلالة آية (أُولي الأمر) على إمامة الأئمّة الميامين عليهم السلام.
2. يحلّل إشكاليّة كون مصداق أُولي الأمر يشمل: الأمراء والحكّام.
3. يعدّد بعض النصوص العامّة والخاصّة الدالّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام.



* تمهيد

استعرضنا، في مُستهلّ أبحاث الإمامة الخاصّة، بعض الأدلّة على إمامة الخلفاء الشّرعيّين للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بصورة عامّة؛ فمن جهة بيّنّا أنّ جميع المسلمين نقلوا عن نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم تأكيده على وجود اثني عشر خليفة له، ومن جهة ثانية أثبتنا أنّه لا يمكن العثور على أئمّة بهذه المواصفات وهذا العدد إلّا الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ومن ثمّ بحثنا مصطلح «أهل البيت» في القرآن الكريم والسنّة، وأثبتنا أنّ هذا العنوان لم يُطلق إلّا على الأئمّة الاثني عشر، مضافاً إلى السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام والرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

ونحن هنا بصدد الإتيان بأدلّة أخرى تثبت إمامة هؤلاء الأئمّة الميامين على وجه التحديد. ومع وجود آيات وروايات متعدّدة استُخدمت كدليل أو شاهد على إمامة الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، سنكتفي هنا بآية واحدة وبضع روايات رعايةً للاختصار.

* آية أولي الأمر

الآية التالية هي من الآيات التي استُفيد منها لإثبات إمامة أمير المؤمنين وأولاده الأئمّة المعصومين عليهم السلام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ﴾[1].

(1) سورة النساء، الآية 59.

فكما هو واضح، أوجب الباري -سبحانه وتعالى- على المؤمنين إطاعة ثلاثة في هذه الآية الشريفة، وهم الله (جلّ وعلا) والرسول الكريم ﷺ وأولي الأمر.

لا خلاف بشأن الطّاعة لله -تعالى- ولنبيه الأكرم، وما نروم بحثه هنا هو تبيين الطاعة لأولي الأمر، وهذا ما سنشرحه في العنوانين الآتيين:

1. إطلاق الطاعة

إنّ الطاعة المذكورة في الآية لأولي الأمر -كالطاعة لله ورسوله- مُطلقة وغير مشروطة، وهي بذلك تدلّ على عصمة أولي الأمر، وهذا ما صرّح به مُفسّرو الشيعة قاطبةً وعدد من مُفسّري أهل السنّة أيضاً. ومن بين مُفسّري أهل السنّة يمكن الإشارة إلى الفخر الرازيّ؛ حيث قال في تفسيره للآية المذكورة:

«إنّ الله -سبحانه وتعالى- أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ... فثبت قطعاً أنّ أولي الأمر المذكور في هذه الآية لا بدّ وأن يكون معصوماً»[1].

وقال العلّامة الطباطبائيّ في هذا المجال: «ولا ينبغي أن يُرتاب في أنّ هذه الإطاعة المأمور بها في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إطاعة مُطلقة غير مشروطة بشرط ولا مقيّدة بقيد، وهو الدليل على أنّ الرسول لا يأمر بشيءٍ ولا ينهى عن شيءٍ يُخالف حكم الله في الواقعة... فلا مناص من أخذ الآية مُطلقة من غير أيّ تقييد، ولازمه اعتبار العصمة في جانب أولي الأمر كما اعتبر في جانب رسول الله ﷺ من غير فرق»[2].

(1) الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (تفسير الرازي)، لا.ن، لا.م، لا.ت، ط3، ج10، ص116.

(2) السيد الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج4، ص389-391.

2. مصداق أولي الأمر

زعم مُفسّرو أهل السنّة وجود مصاديق كثيرة لأولي الأمر، من قبيل: الأمراء[1]، علماء الدين[2]، أمراء السرايا أو أصحاب رسول الله ﷺ[3]، ولمّا كانت العصمة من أهمّ صفات أولي الأمر، لا يمكن لأيّ من الأمور المذكورة أن تكون مصداقاً لهم؛ لأنّ هؤلاء الأفراد مفتقرون إلى هذه الخصوصيّة.

وذهب بعض المفسّرين إلى أنّ إجماع الأمّة يشكل مصداقاً لأولي الأمر، واعتبره معصوماً من الخطأ[4]، وذلك على الرّغم من عدم وجود دليل واضح على هذا القول. فلو اجتمع بضعة أشخاص غير معصومين، كما حصل في سقيفة بني ساعدة، ما الدليل على أنّهم مصيبون وأنّ رأيهم غير خاطئ؟

عندئذ، لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلّا بسؤال رسول الله ﷺ نفسه باعتباره الشّارح والمبيّن للقرآن الكريم: من هم أولو الأمر؟

رُوي عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ قال: لمّا أنزل الله (عَزَّ وَجَلَّ) على نبيّه محمّد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، قلت: يا رسول الله! عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال ﷺ: «**هُمْ خُلَفَائِي يَا جَابِرُ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي، أَوَّلُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ...**»[5].

ثمّ عدّد الرسول ﷺ الأئمّة الاثني عشر واحداً واحداً.

---

(1) انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1405هـ - 1985م، ط2، ج5، ص259.

(2) انظر: الآلوسيّ، محمود بن عبدالله، روح المعاني في تفسير القرآن، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط، ج5، ص65.

(3) انظر: الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، 1422هـ - 2001م، ط1، ج3، ص278.

(4) الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، مصدر سابق، ج10، ص144.

(5) الشيخ الصدوق، كمال الدين، مصدر سابق، ج1، ص253؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج36، ص250.

* حديث لوح الزّهراء عليها السلام

حديث اللّوح من النّصوص التي ذكرت الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام بأسمائهم مع ذكر مواصفات كلّ واحد منهم، وهو مرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام، ونصّه: عَنْ أَبي عَبْد اللَّه عليه السلام قَالَ: قَالَ أَبي لجَابر بْن عَبْد اللَّه الْأَنْصَاريِّ: «**إِنَّ لي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَمَتَى يَخفُّ عَلَيْكَ أَنْ أَخْلُوَ بكَ فَأَسْأَلَكَ عَنْهَا؟**» فَقَالَ لَهُ جَابرٌ في أَيِّ الْأَوْقَات شئْتَ. فَخَلَا به أَبي عليه السلام فَقَالَ لَهُ: «**يَا جَابرُ أَخْبرْني عَن اللَّوْح الَّذي رَأَيْتَهُ في يَد أُمِّي فَاطمَةَ عليها السلام بنْت رَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وَمَا أَخْبَرَتْكَ به أُمِّي أَنَّهُ في ذَلكَ اللَّوْح مَكْتُوبٌ**». فَقَالَ جَابرٌ: أَشْهَدُ باللَّه أَنِّي دَخَلْتُ عَلَى أُمِّكَ فَاطمَةَ عليها السلام في حَيَاة رَسُول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم فَهَنَّيْتُهَا بولَادَة الْحُسَيْن عليه السلام وَرَأَيْتُ في يَدَيْهَا لَوْحاً أَخْضَرَ، ظَنَنْتُ أَنَّهُ منْ زُمُرُّد، وَرَأَيْتُ فيه كتَاباً أَبْيَضَ شبْهَ لَوْن الشَّمْس. فَقُلْتُ لَهَا: بأَبي أَنْت وَأُمِّي يَا بنْتَ رَسُول اللَّه! مَا هَذَا اللَّوْحُ؟ فَقَالَتْ: «**هَذَا لَوْحٌ أَهْدَاهُ اللَّهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَى رَسُوله صلى الله عليه وآله وسلم، فيه اسْمُ أَبي وَاسْمُ بَعْلي وَاسْمُ ابْنَيَّ وَاسْمُ الْأَوْصيَاء منْ وُلْدي، وَأَعْطَانيه أَبي ليُبَشِّرَني بذَلكَ**» قَالَ جَابرٌ: فَأَعْطَتْنيه أُمُّكَ فَاطمَةُ عليها السلام، فَقَرَأْتُهُ وَاسْتَنْسَخْتُهُ. فَقَالَ لَهُ أَبي عليه السلام: «**فَهَلْ لَكَ يَا جَابرُ أَنْ تَعْرضَهُ عَلَيَّ؟**» قَالَ نَعَمْ. فَمَشَى مَعَهُ أَبي حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَنْزل جَابر، فَأَخْرَجَ صَحيفَةً منْ رَقٍّ. فَقَالَ: «**يَا جَابرُ انْظُرْ في كتَابكَ لأَقْرَأَ أَنَا عَلَيْكَ**»، فَنَظَرَ جَابرٌ في نُسْخَة فَقَرَأَهُ أَبي، فَمَا خَالَفَ حَرْفٌ حَرْفاً. فَقَالَ جَابرٌ: فَأَشْهَدُ باللَّه أَنِّي هَكَذَا رَأَيْتُهُ في اللَّوْح مَكْتُوباً».

وقد ورد نصّ حديث اللوح في المصادر الشيعيّة المختلفة[1].

* النصوص العامّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام

ثَمَّةَ روايات عدّة ومتنوّعة عن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم تنصّ على أسماء الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، نستعرض بعضاً منها على سبيل المثال:

(1) الشيخ الطبرسيّ، الاحتجاج، مصدر سابق، ج1، ص67-68؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج36، ص195-197.

في رواية، طلب سلمان الفارسيّ من النبيّ ﷺ أن يسمّي له الأوصياء والخلفاء من بعده عندما أمر بالتمسّك بهم، فقال النبيّ ﷺ: «**أَوَّلُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب، وَسِبْطَايَ، وَبَعْدَهُمَا زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَبَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِي بَاقِرُ علْمِ النَّبِيِّين، وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّد، وَابْنُهُ الْكَاظِمُ سَمِيُّ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، وَالَّذِي يُقْتَلُ بِأَرْضِ الْغُرْبَةِ عَلِيٌّ ابْنُهُ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ، وَالصَّادِقَانِ عَلِيٌّ وَالْحَسَنُ، وَالْحُجَّةُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ فِي غَيْبَتِه. فَإِنَّهُمْ عِتْرَتِي مِنْ دَمِي وَلَحْمِي، عِلْمُهُمْ عِلْمِي وَحُكْمُهُمْ حُكْمِي، مَنْ آذَانِي فِيهِمْ فَلَا أَنَالَهُ اللهُ -سبحانه وتعالى- شَفَاعَتِي**»[1].

ورُوِيَ عن ابن عبَّاس، قال:قدم يهوديٌّ على رسول الله ﷺ يقال له: نعثل، فقال: يا محمّد! إنّي أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فأخبرني عن وصيّك من هو؟ فما من نبيّ إلّا وله وصيٌّ، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال ﷺ: «**نَعَمْ، إِنَّ وَصِيِّي وَالْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب عليه السلام، وَبَعْدَهُ سِبْطَايَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، تَتْلُوهُ تِسْعَةٌ مِنْ صُلْبِ الْحُسَيْنِ، أَئِمَّةٌ أَبْرَارٌ**».

قال: يا محمّد! فسمّهم لي، قال: «**نَعَمْ، إِذَا مَضَى الْحُسَيْنُ فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ، فَإِذَا مَضَى فَابْنُهُ جَعْفَرٌ، فَإِذَا مَضَى جَعْفَرٌ فَابْنُهُ مُوسَى، فَإِذَا مَضَى مُوسَى فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى عَلِيٌّ فَابْنُهُ مُحَمَّدٌ، فَإِذَا مَضَى مُحَمَّدٌ فَابْنُهُ عَلِيٌّ، فَإِذَا مَضَى عَلِيٌّ فَابْنُهُ الْحَسَنُ، فَإِذَا مَضَى الْحَسَنُ فَبَعْدَهُ ابْنُهُ الْحُجَّةُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ. فَهَذِهِ اثْنَا عَشَرَ إِمَاماً عَلَى عَدَدِ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيل**»[2].

على أنّ ما وردت الإشارة إليه هنا لا يعدو الأمثلة البسيطة من الروايات الكثيرة جدّاً التي أخرجها علماؤنا في كتبهم ومصنّفاتهم المختلفة[3].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج36، ص290.

(2) الخزاز القمي، كفاية الأثر، مصدر سابق، ص13-14.

(3) إنّ الوثائق في مجال النصّ على إمامة أهل البيت عليهم السلام غزيرة جدّاً، يمكن ملاحظة بعضها في: الكليني، الكافي، كتاب الحجّة؛ والصدوق، كمال الدين وتمام النعة، مضافاً إلى الكتب المستقلّة التي ألّفت لهذا الغرض مثل: الخزّاز الرازي، كفاية الأثر في النصّ على الأئمّة الاثني عشر، الذي أشرنا إليه في الأسْطُر المتقدّمة.

* النّصوص الخاصّة على إمامة الأئمّة عليهم السلام

إلى جانب النصوص العامّة التي أُشير فيها إلى أسماء الأئمّة جميعهم أو إلى عددهم، ثَمَّ روايات أشارت إلى واحد منهم أو غَيْرِ واحد، وهو ما نطلق عليه اسم «النصوص الخاصّة»، وهي الروايات التي صرّحت باسم أحد الأئمّة فقط أو اثنين أو أكثر؛ ولكن ليس جميعهم.

وقد جاء هذا التنوّع نتيجة الحاجة إلى ذكر واحد من الأئمّة أو أكثر وعدم لزوم ذكر الأئمّة الباقين، حسب ما تتطلّبه الظّروف السائدة في ذلك الوقت؛ فعلى سبيل المثال، عندما يَسأَلُ أصحاب الإمام عن الإمام الذي يخلفه يكتفي بذكر الإمام التالي فقط، وكذلك عندما يريد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم التعريف بشخصيّة الإمام عليّ عليه السلام وابنيه، فمن الطبيعيّ أن يكتفي بذكرهم.

وعلى أيّ حال، النّصوص في هذا المجال في غاية الكثرة وغزيرة جدّاً، ويمكن الوقوف عليها من خلال مُراجعة المصادر الشيعيّة المُعتبرة في هذا الخصوص[1].

(1) انظر: الحرّ العامليّ، إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات، مختلف مجلّداته.

- إنّ الطّاعة المذكورة لأولي الأمر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ﴾ -كالطّاعة لله ورسوله- مُطلقة وغير مشروطة، وهي بذلك تدلّ على عصمة أولي الأمر، وهذا ما صرّح به مُفسّرو الشيعة قاطبةً وعدد من مُفسّري أهل السنّة أيضاً.

- زعم مُفسرو أهل السنّة وجود مصاديق كثيرة لأولي الأمر، من قبيل: الأمراء، علماء الدين، أمراء السّرايا أو أصحاب رسول الله ﷺ، ولمّا كانت العصمة من أهمّ صفات أولي الأمر، لا يمكن لأيّ من الأمور المذكورة أن تكون مصداقاً لهم؛ لأنّ هؤلاء الأفراد مفتقرون إلى هذه الخصوصيّة.

- حديث اللّوح من النّصوص التي ذكرت الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام بأسمائهم مع ذكر مواصفات كلّ واحد منهم، وهو مرويّ عن الإمام الصّادق عليه السلام.

- ثَمَّةَ روايات عدّة ومتنوّعة عن الرسول الكريم ﷺ تنصّ على أسماء الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

- إلى جانب النصوص العامّة التي أُشيرَ فيها إلى أسماء الأئمّة جميعهم أو إلى عددهم، ثَمَّ روايات أشارت إلى واحد منهم أو غَيْرِ واحد، وهو ما نطلق عليه اسم «النّصوص الخاصّة»، وهي الروايات التي صرّحت باسم أحد الأئمّة فقط أو اثنين أو أكثر؛ ولكن ليس جميعهم.

الأسئلة

1. أثْبِت إمامة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم من آية أولي الأمر.
2. ما الذي يشتمل عليه «لوح فاطمة الزّهراء عليها السلام» في باب إمامة الأئمّة الأطهار عليهم السلام؟
3. ما الفرق بين النصوص العامّة والنصوص الخاصّة؟ ولماذا يُلاحظ هذا التنوّع في الروايات؟

الدرس الثامن والعشرون

إمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح ضرورة وجود حجّة لله -تعالى- على العباد.
2. يبيّن أنّ الإيمان بمنقذ للبشريّة من المعتقدات المتجذّرة عند البشريّة جمعاء.
3. يذكر بعض النصوص الدالّة على إمامة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

* تمهيد

جرى الحديث في الدّروس السّابقة عن النّصوص والأدلّة على إمامة الأئمّة الأطهار عليهم السلام عموماً، ونرى من الضروري التطرّق، بمزيد من التفصيل، إلى إمامة آخر الأوصياء الإلهيّين؛ الإمام صاحب العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف والأوضاع في عصر الظّهور. وفي هذا الدرس، سنتناول تاريخ الإيمان بالمهدويّة في الأديان السّالفة، ثمّ نتعرّض إلى الأدلّة على إمامته.

* ضرورة الحجّة

من الضروري وجود حجّة من الله -سبحانه وتعالى- في الأرض على العباد في كلّ عصر وزمان؛ وذلك من أجل قيادة المؤمنين وهداية المُتديّنين وإتمام الحجّة على الظالمين. وقد لبّى الأئمّة المعصومون عليهم السلام هذه الحاجة الضروريّة طيلة تاريخ الإسلام بأساليب متنوّعة وطرق مختلفة ومتناسبة مع الظّروف السياسيّة والاجتماعيّة للمجتمع؛ ولكن ما إن استشهد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام وبدأت إمامة ابنه الحجّة المهديّ عجل الله فرجه الشريف حتّى شرع عصر جديد من الإمامة انطوى على أوضاع سياسيّة واجتماعيّة خاصّة، واستلزم العمل بمنهج معين يضمن استمرار الإمامة. وقد اشتمل هذا العصر الذي عُرف في أدبيّات المذهب الشيعيّ بعنوان «عصر الغَيْبة» على موضوعات وأبحاث مختلفة، سوف نتطرّق أدناه إلى أهمّها بصورة إجماليّة.

* أصالة المهدويّة

إنّ أساس الإيمان بمُنقذ للبشريّة من الجور والظّلم وتأسيس مدينة فاضلة للبشر لهو من المُعتقدات المتجذّرة في الثقافات السائدة في المجتمعات الإنسانيّة المتنوّعة؛ ومن هنا، نجد الأديان اليهوديّة والمسيحيّة والزرادشتيّة والبوذيّة جميعها تتحدّث عن فكرة واحدة -ولو بعبارات مختلفة- حول المستقبل المشرق لعالم البشريّة[1].

أمّا المسلمون -وعلى الرّغم من جميع الاختلافات بينهم- فهم يؤمنون بأصل ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في آخر الزّمان؛ وذلك استناداً لبشارة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تختصّ هذه العقيدة بمذهب مُعيّن أو فرقة خاصّة. وعلى هذا الأساس، قال ابن خلدون في هذا المجال:

«إنّ في المشهور بين الكافّة من أهل الإسلام على مرّ الأعصار أنّه لا بدّ في آخر الزّمان من ظهور رجلٍ من أهل البيت، يؤيّد الدّين ويُظهر العدل ويتّبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلاميّة ويسمّى بالمهديّ[2]».

وتعود جذور الإيمان بظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في الثقافة الإسلاميّة إلى القرآن الكريم والروايات؛ حيث وردت آيات متعدّدة في القرآن حول هذا الموضوع، أوصلها بعض الباحثين إلى 45 آية[3]، منها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[4].

(1) لمزيد من المعلومات في هذا المجال، انظر: برنجيان، فرهنـگ وتمدن جهان در عصر موعود (الثقافة والحضارة في عصر الموعود)، الفصلَيْن الأوّل والثاني.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ت، ط4، ج1، ص555.

(3) المجلسيّ، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج51، ص44.

(4) سورة الأنبياء، الآية 105.

وذهب أغلب المُفسّرين من الشيعة والسنّة، عند تفسيرهم الآية المذكورة، إلى أنّ أحد معاني «توريث الأرض لعباد الله الصّالحين» هو أنّ أمّة محمّد ﷺ ستستولي، في آخر الزّمان، على جميع الأراضي، بما فيها أراضي الكفّار أيضاً[1].

وقال النبيّ ﷺ في هذا السياق: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يُخْرِجَ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**»[2].

* النّصوص على إمامة المهديّ عجل الله فرجه

ولد الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، محمّد المهديّ المنتظر ابن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام، فجر الخامس عشر من شعبان سنة 255 هجريّ، في مدينة سامرّاء، وأمّه السيّدة نرجس خاتون من أسرة يشوعا ومن سلالة شمعون بن صفا.

بدأت إمامته بعد استشهاد أبيه عام 260 من الهجرة، فتحمّل أعباء قيادة المجتمع الإنسانيّ في عصر الغَيْبة، وسيبقى قائداً له حتّى ظهوره حينما يأذن الله -سبحانه وتعالى-.

وفي ما يتعلّق بالنصوص على إمامة المهديّ عجل الله فرجه، فهي متوفّرة في أحاديث النبيّ الأكرم ﷺ وفاطمة الزّهراء عليها السلام والأئمّة الأحد عشر، وهي من الكثرة بحيث إنّ جمع نماذج منها يتطلّب تأليف كتاب مُستقلّ[3]، وقد وردت هذه النّصوص

(1) انظر: الفخر الرازيّ، التفسير الكبير، مصدر سابق، ج22، ص23؛ السيد الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج14، ص321.

(2) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج4، ص177. وورد ما يشبه هذا الحديث في المصادر الروائيّة لأهل السنّة أيضاً، نحو: السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1410هـ - 1990م، ط1،ج2، ص309؛ الطبرانيّ، المعجم الكبير، مصدر سابق، ج10، ص135؛ السيوطيّ، الجامع الصغير، مصدر سابق، ج2، ص438.

(3) الكلبايكانيّ، لطف الله الصافي، منتخَب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2.

بكلّ وضوح وفي غاية الكثرة في الكُتب التي أُلِّفت خلال القرون المتعاقبة حول غَيْبَة إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف، من قبيل: «الغَيْبة» للنعمانيّ، و«الغَيْبة» للشيخ الطوسيّ، و«كمال الدّين وتمام النّعمة» للشيخ الصدوق. وسنشير هنا، إلى بعض هذه النّصوص فقط بما يتناسب مع الهدف من تأليف هذا الكتاب.

قال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخصوص: «**إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِب عليه السلام إِمَامُ أُمَّتِي وَخَلِيفَتِي عَلَيْهَا مِنْ بَعْدِي، وَمِنْ وُلْدِه الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي يَمْلأُ اللهُ بِه الْأَرْضَ عَدْلاً وَقِسْطاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً**»[1].

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام لولده الحسين عليه السلام: «**لِلْقَائِم مِنَّا غَيْبَة أَمَدُهَا طَوِيلٌ**».

ثمّ قال: «**إِنَّ الْقَائِمَ مِنَّا إِذَا قَامَ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِه بَيْعَةٌ؛ فَلِذَلِكَ تَخْفَى وِلَادَتُهُ وَيَغِيبُ شَخْصُهُ**»[2].

وقال الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا وَيَقَعُ فِي عُنُقِه بَيْعَةٌ لِطَاغِيَةِ زَمَانِه، إِلَّا الْقَائِمُ الَّذِي يُصَلِّي رُوحُ الله عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام خَلْفَهُ، فَإِنَّ اللهَ (عَزَّ وَجَلَّ) يُخْفِي وِلَادَتَهُ وَيُغَيِّبُ شَخْصَهُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِه بَيْعَةٌ إِذَا خَرَجَ، ذَلِكَ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِ أَخِي الْحُسَيْنِ**»[3].

وقال الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام في السياق ذاته: «**فِي التَّاسِعِ مِنْ وُلْدِي سُنَّةٌ مِنْ يُوسُفَ وَسُنَّةٌ مِنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليهما السلام**[4]**، وَهُوَ قَائِمُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ، يُصْلِحُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَمْرَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ**»[5].

(1) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص288.
(2) المصدر نفسه، ص303.
(3) المصدر نفسه ص316.
(4) المستفاد من الروايات أنّ المراد من السنّة من يوسف هي غَيْبَة الإمام عجل الله فرجه الشريف، والسنّة من موسى هي إخفاء ولادته.
(5) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص317.

وقال الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام: «**إنَّ لِلْقَائم منَّا غَيْبَتَيْن، إحْدَاهُمَا أَطْوَلُ منَ الْأُخْرَى. أَمَّا الْأُولَى فستَّةُ أيَّام أَوْ ستَّةُ أَشْهُر أَوْ ستُّ سنين، وَأَمَّا الْأُخْرى فَيَطُولُ أَمَدُهَا حَتَّى يَرْجِعَ عَنْ هَذَا الْأَمْر أَكْثَرُ مَنْ يَقُولُ به، فَلَا يَثْبُتُ عَلَيْه إلَّا مَنْ قَوِيَ يَقِينُهُ وَصَحَّتْ مَعْرِفَتُهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِه حَرَجاً مِمَّا قَضَيْنَا وَسَلَّم لَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[1].

رُوى السيِّد ابن محمّد الحميريّ قال: قلت للإمام جعفر الصادق عليه السلام: يا بن رسول الله، قد روي لنا أخبارٌ عن آبائك عليهم السلام في الغَيْبة وصحّة كونها، فأخبرني بمن تقع؟ فقال عليه السلام: «**إنَّ الغَيْبة سَتَقَعُ بالسَّادس منْ وُلْدي، وَهُوَ الثَّاني عَشَرَ منَ الأئمّة الْهُدَاة بَعْدَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أَوَّلُهُمْ أميرُ الْمُؤْمنينَ عَليُّ بْنُ أَبي طَالب، وَآخرُهُمُ الْقَائمُ بالْحَقِّ بَقيَّةُ الله في الْأَرْض وَصَاحبُ الزَّمَان**»[2].

وروي عن يونس بن عبد الرحمن، قال: دخلت على موسى بن جعفر عليه السلام، فقلت له: يا ابن رسول الله، أنت القائم بالحقّ؟ فقال: «**أَنَا الْقَائمُ بالْحَقِّ، وَلَكنَّ الْقَائمَ الَّذي يُطَهِّرُ الْأَرْضَ منْ أَعْدَاء الله (عَزَّ وَجَلَّ) وَيَمْلَؤُهَا عَدْلاً كَمَا مُلئَتْ جَوْراً وَظُلْماً هُوَ الْخَامسُ منْ وُلْدي، لَهُ غَيْبَةٌ يَطُولُ أَمَدُهَا**»[3].

وقال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام لدعبل الخزاعيّ: «**يَا دعْبلُ! الْإمَامُ بَعْدي مُحَمَّدٌ ابْني، وَبَعْدَ مُحَمَّد ابْنُهُ عَليٌّ، وَبَعْدَ عَليٍّ ابْنُهُ الْحَسَنُ، وَبَعْدَ الْحَسَن ابْنُهُ الْحُجَّةُ الْقَائمُ، الْمُنْتَظَرُ في غَيْبَته، الْمُطَاعُ في ظُهُوره**»[4].

(1) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص323.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص33؛ وج2، ص342.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص361.
(4) المصدر نفسه، ج2، ص372.

وروي عن أبي هاشم الجعفريّ، قال: قلت لأبي محمّد [الحسن العسكريّ] عليه السلام: جلالتك تمنعني من مسألتك، فتأذن لي أن أسألك؟ فقال: «**سَلْ**»، قلت: يا سيّدي! هل لك ولد؟ فقال: «**نَعَمْ**»، فقلت: فإن حدث بك حدثٌ فأين أسأل عنه؟ قال: «**بِالْمَدِينَةِ**»[1].

وفي رواية أخرى، عن عمرو الأهوازيّ، قال: أراني أبو محمّد [الحسن العسكريّ] عليه السلام ابنه وقال: «**هَذَا صَاحِبُكُمْ مِنْ بَعْدِي**»[2].

وبهذا -وكما تقدّم سابقاً- يتبيّن وجود نصوص كثيرة للغاية عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام حول الإمام المهديّ المُنتظر عجل الله فرجه وخصوصيّاته، من قبيل: ولادته وطول عمره، وانتظار الفرج، وعلائم ظهوره، وكيفيّة إقامة دولته، وسَنُشير إلى جانب منها في الدروس القادمة حسب المستطاع.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص328.
(2) المصدر نفسه.

المفاهيم الرئيسة

- من الضروريّ وجود حجّة من الله -سبحانه وتعالى- في الأرض على العباد في كلّ عصر وزمان؛ وذلك من أجل قيادة المؤمنين وهداية المُتديّنين وإتمام الحجّة على الظالمين.
- إنّ أساس الإيمان بمُنقذ للبشريّة لهو من المُعتقدات المتجذّرة في الثقافات السائدة في المجتمعات الإنسانيّة المتنوّعة؛ ومن هنا نجد الأديان السماويّة جميعها تتحدّث عن فكرة واحدة -ولو بعبارات مختلفة- حول المستقبل المشرق لعالم البشريّة.
- المسلمون -وعلى الرغم من جميع الاختلافات بينهم- فهم يؤمنون بأصل ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف في آخر الزّمان؛ وذلك استناداً لبشارة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تختصّ هذه العقيدة بمذهب مُعيّن أو فرقة خاصّة.
- ذهب أغلب المُفسّرين من الشيعة والسنّة، عند تفسيرهم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ إلى أنّ أحد معاني «توريث الأرض لعباد الله الصّالحين» هو أنّ أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ستستولي في آخر الزمان على جميع الأراضي، بما فيها أراضي الكفّار أيضاً.
- وفي ما يتعلّق بالنّصوص على إمامة المهديّ عجل الله فرجه الشريف فهي متوفّرة في أحاديث النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وفاطمة الزهراء عليها السلام والأئمّة الأحد عشر، وهي من الكثرة بحيث إنّ جمع نماذج منها يتطلّبُ تأليف كتاب مُستقلّ.

الأسئلة

1. رتّب كلمات النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت الكرام عليهم السلام حول آخر الحُجج الإلهيّين ترتيباً موضوعيّاً واشرح أهمّها.

الدرس التاسع والعشرون

غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف مفهوم الغَيْبة بشكل صحيح.
2. يبيّن فائدة وجود الإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف رغم غيبته.
3. يحلّ إشكاليّة طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف.

* تمهيد

اقتصر الدرس السّابق على بيان أصل المهدويّة، إلى جانب استعراض بعض الأدلّة على إمامة الحجّة المُنتظر عجل الله فرجه، بينما خصّصنا هذا الدرس بأكمله لموضوع الغَيْبة، مُضافاً إلى أسبابها وآثارها والسرّ في طول عمر الإمام، وكذلك مسؤوليّة المنتظرين في عصر الغَيْبة.

* الغَيْبة

اقتضت الحكمة والمصلحة الإلهيّة في ظلّ الظروف السياسيّة السائدة بعد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام أن يختفي الإمام الثاني عشر عن الأنظار إلى حدٍّ ما منذ بدو ولادته، كما أنّه اختار الغَيْبة بعد بلوغه مقام الإمامة بأمر من الله (جلّ وعلا). ومع أنّه لا يمكن الوقوف على حقيقة الحكمة من الغَيْبة، ولن تتّضح إلّا بعد ظهور الإمام عجل الله فرجه، فإنَّ المُستفاد من بعض الروايات هو أنّ من أسباب غَيْبَة الإمام استهدافه ومحاولة اغتياله من قبل السلطة الحاكمة آنذاك[1].

ولإمام العصر والزّمان عجل الله فرجه غيبتان: الأولى هي المعروفة بالغَيْبة الصُّغرى والتي استمرّت 69 عاماً، من 260 حتّى 329 من الهجرة، والأخرى هي الغَيْبة الطويلة أو

(1) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص481.

الكبرى[1] والتي ابتدأت من سنة 329 هجريّ إلى يومنا هذا. وكان للإمام خلال غيبته الصغرى أربعة وكلاء أو نوّاب عُرفوا باسم «النوّاب الأربعة»، همّ: عُثمان بن سعيد، ومحمّد بن عُثمان، والحُسين بن روح، وعليّ بن محمّد السمريّ. كانت وظيفتهم التواصل مع الإمام عجل الله فرجه الشريف وإيصال أسئلة الناس وكتبهم وأموالهم إليه ونقل الأجوبة إليهم؛ لكنّ هذا الارتباط أيضاً انقطع بعد موت النائب الرابع وبعد إبلاغه بذلك[2].

ومنذ ذلك الحين بدأت الغَيْبة الكبرى، حيث لا وجود لأيّ نائب خاصّ بين الإمام عجل الله فرجه الشريف وبين الناس؛ لكنّ الأئمّة الميامين عليهم السلام الذين كانوا يعلمون بحصول الغَيْبة فأخبروا عنها، وكذلك إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف دعوا أتباعهم في عصر الغَيْبة الكبرى إلى اتّباع الفقهاء الجامعين لشرائط الإفتاء والمتّصفين بالعلم والتقوى والعدالة والتدبير، والمتفوّقين على أقرانهم في هذه الصفات، باعتبار أنّ الفقيه هو النّائب العامّ للإمام؛ ليرجع الناس إلى هؤلاء الفقهاء في المسائل الشرعيّة والمعرفيّة والاجتماعيّة عند الابتعاد عن مصدر الهداية والتشريع، فهم حجّة الإمام على الناس والإمام حجّة الله عليهم[3].

* مفهوم الغَيْبة

خلافاً لما يتصوّره الناس عن الغَيْبة؛ فإنّها لا تعني انقطاع إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف وابتعاده تماماً عن الناس؛ بل الغَيْبة، في حقيقة الأمر، تكون من جانب الناس تجاه إمامهم، بمعنى أنّهم لا يستطيعون اللقاء به والتواصل معه بشكل اعتياديّ وبصورة علنيّة، وإن أمكنهم رؤيته والتحدّث إليه دون أن يعرفوا أنّه الإمام. وقد عبّر الأئمّة عليهم السلام في الروايات عن هذه الحقيقة بأنّها «**سنّة**

(1) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص340.
(2) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص516.
(3) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص484؛ الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج27، ص140.

من يوسف عليه السلام»[1]؛ حيث عرف إخوته لما رآهم دون أن يعرفوه. كما أكّدت الروايات على أنّ الإمام عليه السلام يحضر موسم الحجّ كلّ سنة، فيرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه[2]. وقال الإمام الصَّادق عليه السلام في هذا الصدد:

«يَسيرُ في مَا بَيْنَهُمْ وَيَمْشي في أَسْوَاقِهِمْ وَيَطَأُ بُسُطَهُمْ، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) لَهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ نَفْسَهُ، كَمَا أَذِنَ لِيُوسُفَ عليه السلام»[3].

* فائدة الإمام الغائب

أشار الأئمّة في أحاديثهم عند بحث الفائدة من وجود إمام غائب إلى تشبيه ينطوي على دلالات كثيرة، فقال إمام العصر والزمان عجل الله فرجه نفسه في أحد التوقيعات المباركة ردّاً على سؤال في هذا الإطار: «**وَأَمَّا وَجْهُ الإِنْتِفَاعِ بِي فِي غَيْبَتِي فَكَالانْتِفَاعِ بِالشَّمْسِ إِذَا غَيَّبَتْهَا عَنِ الأَبْصَارِ السَّحَابُ**»[4].

وقد ذُكرت وجوه عدّة لتشبيه الانتفاع بالإمام عليه السلام كالانتفاع بالشَّمس التي تحجبها السُّحُب، أبرزها:

1. إنّ الشمس تشكّل محور المنظومة الشمسيّة، فيدور حولها عدد كبير من الكواكب السيّارة، وكذا الإمام الحجّة المنتظر عجل الله فرجه يُمثّل مركز نظام الكون وقطب الرّحى، فتدور الكائنات الأُخرى حول محور ولايته لأداء وظائفها المناطة بها.

2. للشمس في المجموعة الشمسيّة فوائد جمّة، أهمّها توفير الجاذبيّة التي تعدّ أساساً لثبات النظام وبقائه، وتوفير الحرارة اللّازمة التي تجتاز السُّحُب

(1) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص28؛ ج2، ص340.

(2) الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الغَيْبة، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي أحمد ناصح، مؤسّسة المعارف الإسلامية، إيران - قم، 1411هـ ط1، ص364.

(3) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص144.

(4) المصدر نفسه، ج2، ص483.

الكثيفة لتصل إلى الأرض، كما أنّ هبوب الرياح وهطول الأمطار ونموّ الأعشاب والنبات وأمثال ذلك كلّها من بركات أشعّة الشمس، ولا ريب في التأثير الكبير للسُّحب والغيوم في هذا المجال.

3. إنّ الشّمس لا تتوانى لحظة عن إطلاق نورها إلى الكائنات، فكلّ موجود من الموجودات يحصل على نورها بمقدار ارتباطه بها، وبوسعه الاستفادة القصوى منها إن تمكّن من إزالة جميع المعوّقات والجلوس مقابل نورها. وفي المقابل؛ فإنّ الإمام الحجّة الغائب عجل الله فرجه الشريف مجرى الفيض الإلهيّ، ولا يفرّق بين عباد الله من هذه الناحية، ولكن كلّ واحد منهم بمقدوره الاستفادة من وجوده المبارك بقدر ارتباطه به.

4. إنّ وجود الشمس لازم للناس حتّى ولو من وراء السُّحب؛ إذ لولا وجودها لغرقت الأرض في ظلام دامس وبرد قارس، ولأضحت غير قابلة للسّكن. وبالنسبة إلى الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف؛ فإنّ وجوده ضروريّ للمجتمع البشريّ عموماً وللشيعة ولمُحبّيه على وجه الخصوص، حتّى لو كان من وراء حجب الغَيْبة؛ وإلّا للحقهم الويل والدمار نتيجة الفتن ومصاعب الحياة ودسائس الأعداء الحاقدين؛ لذا كتب الإمام عجل الله فرجه الشريف في توقيعه المبارك إلى الشيخ المفيد: «**إِنَّا غَيْرُ مُهْمِلِينَ لِمُرَاعَاتِكُمْ وَلَا نَاسِينَ لِذِكْرِكُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَنَزَلَ بِكُمْ اللَّأْوَاءُ وَاصْطَلَمَكُمُ الْأَعْدَاءُ**»[1].

* أسباب الغَيْبة

أفادت بعض الروايات -كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك- أنّ فلسفة غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف سرّ من الأسرار الإلهيّة التي خَفِيَت على العباد، ولا يعلمها بشكل

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج53، ص175؛ وانظر أيضاً: عبد الله جوادي آملي، عصاره خلقت: درباره امام زمان (صفوة الخلق في شأن إمام الزمان)، ص85.

كامل إلّا الله والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام، ولن تتّضح أسبابه إلّا بعد ظهوره في آخر الزمان. وفي هذا السياق، رُوي عن عبد الله بن الفضل الهاشميّ قال: سمعت الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام يقول: «**إِنَّ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةً لَا بُدَّ مِنْهَا، يَرْتَابُ فِيهَا كُلُّ مُبْطِلٍ**».

فقال الراوي: ولِمَ؟ جُعلت فداك؛ قال: «**لِأَمْرٍ لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي كَشْفِهِ لَكُمْ**».

قال: قلت: فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: «**وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَتِهِ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْبَاتِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ حُجَجِ اللهِ -سبحانه وتعالى ذِكْرُهُ-. إِنَّ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِهِ، كَمَا لَمْ يَنْكَشِفْ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي مَا أَتَاهُ الْخَضِرُ عليه السلام مِنْ خَرْقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ لِمُوسَى عليه السلام إِلَى وَقْتِ افْتِرَاقِهِمَا**»[1].

بناءً على ذلك، لا يمكن الوقوف على الحكمة من الغَيْبة ومعرفة أسرارها بشكل كامل؛ لكن يمكن الإشارة إلى بعض أسباب الغَيْبة اعتماداً على الروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في هذا المضمار، وهي:

1. اختبار الناس

أحد أسباب غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف اختبار الشيعة وابتلاؤهم. قال الإمام أبو عبد الله الحسين عليه السلام في هذا الصدد: «**لَهُ غَيْبَةٌ يَرْتَدُّ فِيهَا أَقْوَامٌ وَيَثْبُتُ فِيهَا عَلَى الدِّينِ آخَرُونَ، فَيُؤْذَوْنَ وَيُقَالُ لَهُمْ: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ أَمَا إِنَّ الصَّابِرَ فِي غَيْبَتِهِ عَلَى الْأَذَى وَالتَّكْذِيبِ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله**»[2].

2. التحرّر من بيعة الطواغيت

ورد في بعض الروايات الإسلاميّة أنّ العلّة في غَيْبَة الإمام المهديّ المنتظَر عجل الله فرجه الشريف

(1) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص482.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص317.

هي مساعدته على التحرّر من مبايعة الطواغيت في عصره، فلم يكن لأحد في عنقه بيعة؛ ليتمكّن من التحرّك بحرّيّة عند قيامه[1].

3. حفظ حياة الإمام

حافظ الباري -سبحانه وتعالى- على حياة الإمام الثاني عشر من الأئمّة الميامين عليهم السلام من شرور الأعداء بوساطةالغَيْبة؛ ولذا قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام: «**لَا بُدَّ لِلْقَائِمِ مِنْ غَيْبَةٍ**». قال الروايّ: ولِمَ؟ قال: «**يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ**» وأومأ بيده إلى بطنه[2].

4. عدم استعداد الأمّة

إنّ تشكيل حكومة عالميّة وتأسيس مجتمع مثاليّ يتطلّب استعداداً تامّاً من جميع أفراد الأمّة، ولا يتسنّى هذا الاستعداد إلّا بالتقدّم الفكريّ والإصلاحات الاجتماعيّة والسياسيّة، وهو ما يتحقّق بمرور الزّمن، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، ترتكز الحكومة العالميّة لإمام العصر والزّمان -عجل الله فرجه الشريف- على أساس التوحيد والعدل والقانون، ولا ريب في أنّ القبول بهذه الأسس بحاجة إلى تمهيد؛ ذلك أنّ حكّام الجور والطواغيت لا ينصاعون إلى حكومة القسط والعدل بسهولة، كما أنّ الناس غالباً ما يأبون الخضوع إلى الحقّ والقبول به. وفي هذا الإطار، قال أمير المؤمنين عليه السلام على منبر الكوفة: «**اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ لله (عَزَّ وَجَلَّ)، وَلَكِنَّ اللهَ سَيُعْمِي خَلْقَهُ عَنْهَا بِظُلْمِهِمْ وَجَوْرِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ**»[3].

* انتظار الفرج

شدّدت الروايات الإسلاميّة على أهمّيّة انتظار الفرج، فورد التأكيد عليه في كثير منها؛ بل اعتبر في بعضها أفضل أعمال الإنسان، فرُوي عن الإمام أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام أنّه قال: «**أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ**»[4].

(1) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص303.
(2) المصدر نفسه، ج2، ص481.
(3) ابن أبي زينب النعماني، الغَيْبة، مصدر سابق، ص141.
(4) الأربليّ، الشيخ علي بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمّة، دار الأضواء، لبنان - بيروت، 1405هـ -

على أنّ انتظار الفرج في حقيقة الأمر عنوان لمجموعة من التكاليف والمسؤوليّات التي تقع على كاهل المؤمنين بالمنقذ والمنجي، وعلى عاتق المسلمين المعتقدين بالمهديّ الموعود عجل الله فرجه الشريف، وكذلك الشيعة المنتظرين لظهوره، وما هذه التكاليف إلّا لأجل إعداد الفرد والمجتمع للقبول بالإمام وبرنامج دولته، وكذلك لغرض الإسراع بظهوره وتقريب الفرج. ويمكن ملاحظة مجموعة التكاليف هذه في الكتب والمصنّفات التي ألّفها العلماء الأعلام في هذا المجال، واحتوت على جميع التفاصيل اللّازمة[1]. ونشير هنا إلى أهمّ هذه التكاليف:

- معرفة إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف.
- محبّة الإمام ومودّته.
- التوسّل إلى الله -سبحانه وتعالى- في أن يأذن للإمام بالقيام.
- الارتباط اليوميّ الحميم بساحته المقدّسة، وتجديد البيعة له بقراءة دعاء العهد مثلاً.
- العمل على نصرة الإمام.
- تشكيل مجتمع سليم وإقامة حكومة صالحة لحفظ الشيعة من مخاطر الأعداء.
- إصلاح النفس والأسرة وكسب المقوّمات اللّازمة للحركة في مسار الإمام.
- التوسّل بالإمام والتمسّك به لحلّ مشاكل الحياة والسير في طريق عُبوديّة الله -سبحانه وتعالى-.
- التصدّق بنيّة سلامة الإمام.

1985م، ط2، ج2، ص207؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج75، ص208.

(1) انظر: الأصفهاني، الميرزا محمد تقي، مكيال المكارم، تحقيق: السيد علي عاشور، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1421هـ ط1،ج2، ص123-484.

- أداء بعض الأعمال المستحبّة ومنها مساعدة المحرومين والمستضعفين نيابةً عن الإمام.

- دعوة الناس وإرشادهم إلى الإمام.

- انتظار ظهور الإمام.

- القيام بما يرضي الإمام، أي أداء الواجبات والمستحبّات، وترك المحرّمات والمكروهات.

* طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف

إنّ عمر الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف طويل نسبيّاً نتيجة غيبته الطويلة، لكنّ طول عمره يعدّ من المعجزات الإلهيّة لهذا الإمام الهُمَام. ومع وجود ماضٍ عريق لهذه الظاهرة في تاريخ الحياة الإنسانيّة، بحيث لا تعدّ واقعة فريدة من نوعها، إلّا أنّها تعتبر حدثاً غير مسبوق بالنسبة إلى أعمار البشر المتداولة في القرون الأخيرة. وحيث إنّه لا أحد يعلم بوقت الظهور؛ فإنّ عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف سيستمرّ في الازدياد إلى ما بعد الظهور أيضاً.

ومن هنا، جرى تشبيه طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف في الأحاديث بعمر النبيّ نوح عليه السلام، فذُكر أنّ فيه سنّة من هذا النبيّ الإلهيّ، فقال الإمام عليّ السجّاد عليه السلام في هذا الخصوص: «**فِي الْقَائِمِ سُنَّةٌ مِنْ نُوحٍ وَهُوَ طُولُ الْعُمُرِ**»[1].

فكما نعلم، أكّد القرآن الكريم على أنّ النبيّ نوح عليه السلام بقي يمارس رسالة الدعوة الإلهيّة في قومه لمدّة 950 عاماً، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2].

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص322.

(2) سورة العنكبوت، الآية 14.

وعليه، ففي ضوء القدرة اللّامتناهية للباري (عَزَّ وَجَلَّ) في الحفاظ على آخر الحجج الإلهيّين على الناس، ونظراً إلى وجود معمّرين على مرّ التاريخ البشريّ، ومساعي العلماء الرامية إلى إطالة عمر الإنسان والحدّ من الوفيات؛ فإنّ طول عمر الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف -وإن كان يبدو غير متعارف إلى حدٍّ ما- لا مانع منه عقليّاً وعلميّاً؛ بل إنّه مدعوم تاريخيّاً ومستند إلى الآيات والروايات دينيّاً.

- لإمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف غيبتان: الأولى هي المعروفة بالغَيْبة الصُّغرى والتي استمرّت 69 عاماً، من 260 حتّى 329 من الهجرة، والأخرى هي الغَيْبة الطويلة أو الكبرى والتي ابتدأت من سنة 329 هجريّ إلى يومنا هذا.
- خلافاً لما يتصوّره الناس عن الغَيْبة؛ فإنّها لا تعني انقطاع إمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف وابتعاده تماماً عن الناس؛ بل الغَيْبة في حقيقة الأمر تكون من جانب الناس تجاه إمامهم، بمعنى أنّهم لا يستطيعون اللقاء به والتواصل معه بشكل اعتياديّ وبصورة علنيّة.
- أشار الأئمّة في أحاديثهم عند بحث الفائدة من وجود إمام غائب إلى تشبيه ينطوي على دلالات كثيرة، فقال إمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف نفسه في أحد التوقيعات المباركة، ردّاً على سؤال في هذا الإطار: «**وَأَمَّا وَجْهُ الإِنْتِفَاعِ بِي فِي غَيْبَتِي فَكَالانْتِفَاعِ بِالشَّمْسِ إِذَا غَيَّبَتْها عَنِ الأَبْصَارِ السَّحَابُ**».
- أفادت بعض الروايات -كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك- أنّ فلسفة غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف سرّ من الأسرار الإلهيّة التي خفيت على العباد، ولا يعلمها بشكل كامل إلّا الله والنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون عليهم السلام، ولن تتّضح أسبابه إلّا بعد ظهوره في آخر الزّمان.
- أحد أسباب غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف اختبار الشيعة وابتلاؤهم.

الأسئلة

1. ما هي فلسفة غَيْبَة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف وكيف ينتفع الناس من بركة وجوده في عصر الغَيْبة؟

2. ما هو سبب غياب الإمام المنتظَر عجل الله فرجه الشريف؟ والأمّة في أشدّ الحاجة إليه؟

3. ما المراد من «انتظار الفرج»؟ وكيف يمكن العمل بهذه المسؤوليّة الخطيرة في عصرنا الحاليّ؟

الدرس الثلاثون

ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى الأوضـاع التي تسود قبل ظهور الإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف.
2. يعدّد أبرز علامات الظهور.
3. يبيّن أبرز معالم دولة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف.

تمهيد

يجري الحديث في بحوث المهدويّة عادةً عن «الأوضاع قبل الظهور» و«علامات الظهور» التي تحدث قبل قيام الإمام صاحب العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف، فالأوضاع قبل الظهور هي تغييرات خاصّة تطرأ على الأحوال والخصوصيَّات الفرديّة والاجتماعيّة، وعلائم الظهور هي حوادث مُعيّنة تقع قرب الظهور أو بالتزامن معه؛ غير أنّ تلك العلائم ليست جميعها قطعيّة، بمعنى أنّ بعضها قد لا يحدث أصلاً. من هنا، سنتطرّق في هذا الدرس إلى بحث الأوضاع أوّلاً، ثمّ نتناول علائم الظهور، وبعد ذلك نستعرض إجمالاً بعض الأمور المتعلّقة بدولة إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف.

❋ الأوضاع قبل الظهور

أُشيرَ في الروايات الإسلاميّة إلى الظواهر السائدة عند الظهور، والتي تشبه إلى حدٍّ كبير، الأوضاع التي تسبق يوم القيامة وتسمّى أحياناً بـ«أشراط الساعة»[1]، وهذه الظواهر هي تغييرات تطرأ على الوضع العقديّ لكثير من الناس ومدى التزامهم بالأحكام الإسلاميّة والقيود الشرعيّة. ومن هنا؛ فإنّ ضعف الإيمان ووهن العقيدة من جهة، وسلطة العتاة والجبابرة على كثير من المجتمعات البشريّة من

(1) سنشير إلى مفهوم أشراط الساعة وبعض مصاديق منها في مبحث المعاد.

جهة أخرى، تدفع بالأوضاع الاجتماعيّة باتّجاه مزيد من الفساد والانحطاط، وتجعلها على شفا جرفٍ هارٍ وعلى حافة الانهيار والسقوط في العذاب الإلهيّ الأليم.

وقد صُوّر جانب من تلك الأوضاع المأساوية في الروايات، منها ما رُوِيَ عن الرسول الكريم ﷺ: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَتْ نِسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ وَلَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟** فَقِيلَ لَهُ: وَيَكُونُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: **نَعَمْ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ؟** فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟**»[1].

«**سَيَأْتِي عَلَى أُمَّتِي زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رَسْمُهُ، وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، يُسَمَّوْنَ بِهِ وَهُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ مِنْهُ، مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى**»[2].

«**... إِذَا تَشَبَّهَ الرِّجَالُ بِالنِّسَاءِ وَالنِّسَاءُ بِالرِّجَالِ، وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ، وَرَكِبَ ذَوَاتُ الْفُرُوجِ السُّرُوجَ، وَقُبِلَتْ شَهَادَاتُ الزُّورِ وَرُدَّتْ شَهَادَاتُ الْعُدُولِ، وَاسْتُخِفَّ النَّاسُ بِالدِّمَاءِ وَارْتِكَابِ الزِّنَاءِ، وَأُكِلَ الرِّبَا، وَاتُّقِيَ الْأَشْرَارُ مَخَافَةَ أَلْسِنَتِهِمْ**»[3].

* علائم الظّهور

إنّ علائم الظهور كثيرة ومتعدّدة، وسنشير أدناه، إلى شرح مختصر لأهمّ تلك العلائم:

1. خروج السفيانيّ

من أهمّ علامات الظهور، خروج السفيانيّ وارتكابه مجازر مروّعة في العالم، قال الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام في هذا الخصوص: «**مِنَ الْمَحْتُومِ خُرُوجُ السُّفْيَانِيِّ فِي رَجَبٍ**»[4].

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج5، ص59.

(2) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، ثواب الأعمال، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، 1368ه ـ ش، ط2، ص253.

(3) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص330.

(4) النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص300.

وقال في رواية أخرى: «**لَوْ رَأَيْتَ السُّفْيَانِيَّ لَرَأَيْتَ أَخْبَثَ الناس... وَقَدْ بَلَغَ مِنْ خُبْثِهِ أَنَّهُ يَدْفِنُ أُمَّ وَلَدٍ لَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ مَخَافَةَ أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهِ**»[1].

2. الصيحة السماويّة

من العلامات الأخرى للظهور، الصيحة السماويّة، وأصل وقوع الصيحة أمر محتوم، وفي بعض الروايات أنّ ثَمَّةَ صيحتَيْن ستقعان في يوم واحد من شهر رمضان المبارك.

قال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام حول الصيحة: «**لَا بُدَّ مِنْ هَذَيْنِ الصَّوْتَيْنِ قَبْلَ خُرُوجِ الْقَائِمِ: صَوْتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ صَوْتُ جَبْرَئِيلَ... وَالصَّوْتُ الثَّانِي مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ صَوْتُ إِبْلِيسَ اللَّعِينَ**»[2].

وقال في رواية أخرى، في هذا المجال:

«**يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَوَّلَ النَّهَارِ: أَلَا إِنَّ الْحَقَّ فِي عَلِيٍّ وَشِيعَتِهِ، ثُمَّ يُنَادِي إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ: أَلَا إِنَّ الْحَقَّ فِي السُّفْيَانِيِّ وَشِيعَتِهِ؛ فَيَرْتَابُ عِنْدَ ذَلِكَ الْمُبْطِلُونَ**»[3].

وروي عن الإمام أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام حول تفسير بعض الآيات: «**قولُه:** ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾(4)، **قال: ينادي المناد باسم القائم واسم أبيه. قولُهُ:** ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾(5)، **قال: صيحةُ القائمِ منَ السَّماء،** ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾، **قال: هي الرِّجعةُ [أي خروجُ القائمِ]**»[6].

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص651.
(2)المصدر نفسه، ص253.
(3) المصدر نفسه، ص652.
(4) سورة ق، الآية 41.
(5) السورة نفسها، الآية 42.
(6) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ ط3، ج2، ص326.

وروي عن النبيّ ﷺ حول مضمون هذه الصيحة: «**إِذَا كَانَ عِنْدَ خُرُوجِ الْقَائِمِ يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا الناس، قُطِعَ عَنْكُمْ مُدَّةُ الْجَبَّارِينَ، وَوُلِّيَ الْأَمْرَ خَيْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ؛ فَالْحَقُوا بِمَكَّةَ**»[1].

3. قتل النّفس الزّكية

من العلائم الأخرى على الظهور قتل شخص ملقّب بالنفس الزكيّة، وهو -بحسب بعض الروايات- فتى من بني هاشم من نسل الإمام الحسين[2] عليه السلام، وذكرت بعض الروايات أنّ النّفس الزكيّة من أولاد الإمام الحسن عليه السلام[3]، وأنّه يُقتل بظهر الكوفة مع سبعين شخصاً من الصالحين[4].

4. خروج اليمانيّ

ومن العلائم الأخرى للظهور خروج اليمانيّ؛ حيث قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في هذا المجال: «**خُرُوجُ رجُلٍ مِنْ وُلْدِ عَمِّي زيْدٍ بِالْيَمَنِ**»[5].

وفي رواية أخرى، شدّد الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «**وليْسَ فِيهَا أَهْدَى مِنْ رَايَةِ الْيَمَانِيِّ؛ لِأَنَّهُ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ**»[6].

وورد في رواية أخرى: «**إِذَا خَرَجَ الْيَمَانِيُّ فَانْهَضْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ رَايَتَهُ رَايَةُ هُدًى، وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَلْتَوِيَ عَلَيْهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النار**»[7].

(1) المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري والسيد محمود الزرندي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2، ص208.

(2) انظر: العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص64.

(3) انظر: الشيخ الطوسيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص462.

(4) انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج52، ص272.

(5) المصدر نفسه، ج83، ص63.

(6) الشيخ المفيد، الإرشاد، مصدر سابق، ج2، ص375.

(7) النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص256.

وأكّدت بعض الروايات على أنّ السيّد الخراسانيّ يلتحق هو وجيشه باليمانيّ، ثمّ يحاربان السفيانيّ حتّى يهزماه[1].

5. خروج الخراسانيّ

ذُكرت علامة أخرى من علامات الظهور، وهي خروج الخراسانيّ من جهة المشرق، فورد في أحاديث كثيرة أنّه يخرج بالتزامن مع خروج اليمانيّ وحرب السفيانيّ[2]، والخراسانيّ فتى أسمر مربوع، وقيل إنّه من بني تميم. وقد ورد عن الإمام أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: تنزل الراياتُ السود التي تخرج من خراسان، إلى الكوفة، فإذا ظَهَرَ المهديُّ عجل الله فرجه بعث إليه بالبيعة[3].

* دولة العدل المهدويّة

إنّ أساس الإيمان بالمهدويّة هو إقامة الدولة العالميّة للإمام المهديّ عجل الله فرجه؛ فبعدما يحتدم الصراع بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، تكون الغلبة والانتصار لجبهة الحقّ بإذن الله -سبحانه وتعالى-، فيُقتل من يُقتل من الطواغيت ويستسلم الآخرون، وترتفع راية الحقّ وتقوم دولة العدل.

وبإقامة الدولة الكريمة التي يُعزّ الله فيها الإسلام وأهله ويُذلّ النفاق وأهله[4]، تتحقّق الإرادة الإلهيّة بأن يقود المستضعفون الأرض ويصبحوا الوارثين لها[5]، ويتحقّق الوعد الإلهيّ للمؤمنين والصالحين بأن يستخلفهم في الأرض، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، ويسيطر الدين الذي ارتضاه الله على جميع بقاع العالم[6].

(1) انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج52، ص272-275.

(2) النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص255؛ وأيضاً انظر: المجلسيّ، بحار الأنوار، ج52، باب 25.

(3) الشيخ الطوسيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص452.

(4) «تُعِزُّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ»، ابن طاووس، السيد علي بن موسى، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، إيران - قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هـ، ط1، ص60.

(5) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ (سورة القصص، الآية 5).

(6) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ (سورة النور، الآية 55).

ومع استقرار الدولة الكريمة سيتغيّر العالم ليتّخذ منحىً جديداً؛ حيث تُخرج الأرض بركاتها وكنوزها وتفتح السماوات أبوابها أمام العباد[1].

وبظهور الإمام الحجّة بن الحسن عجل الله فرجه الشريف يرتقي المستوى العلميّ للبشر ويزداد إدراكهم؛ حيث ورد أنّه يضع يده على رؤوس العباد، فيجمع بها عقولهم ويكمل بها أحلامهم[2]. كما تزدهر الحضارة البشريّة ويتاح التواصل بين القارّات المختلفة عبر الارتباط المباشر، بعدما يمدّ الله للناس في أسماعهم وأبصارهم[3].

وفي عصر الإمام صاحب العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف ينعم البشر بالصحّة والسلامة، ويُذهب الله -سبحانه وتعالى- عن المؤمنين كلّ أشكال العاهات، ويعالج الإمام الأمراض المختلفة، كالعمى، والتخلّف الذهنيّ، والجنون، والوسواس، والأسقام الفكريّة التي يعاني منها البشر في العصر الرّاهن، والتي يعجز عن علاجها الأطباء بالوسائل الطبّيّة الحديثة أيضاً[4].

ويسود العالَم، إبّان حكم الدولة المهدويّة، الأمنُ والاستقرار على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ، فلا يظلم أحدٌ أحداً مطلقاً[5]، ويشهد العالم استتباب السلام والاستقرار في جميع ربوعه، وتخضرّ الأرض وتخرج ما فيها من بركات وتضحك الدنيا وتبلغ ذرى المجد في ظلّ هذا الإمام الهُمام. وبكلمة واحدة: تمتلئ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً[6].

ومن الناحية الاقتصاديّة، لا وجود للفقر في دولة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، ولا وجود للفوارق الطبقيّة بين الناس، فلا ينام أحد الناس شبعانَ والآخر جائعاً. وقد شدّد النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم على أنّ الأمّة الإسلاميّة تتنعّم في عصر الإمام عجل الله فرجه الشريف بنعمةٍ لم

(1) انظر: الشيخ الأربليّ، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، مصدر سابق، ج2، ص465.
(2) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص675.
(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص240؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص408.
(4) انظر: النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص317.
(5) انظر: الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج2، ص372.
(6) انظر: الشيخ الطوسيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص178.

تتنعّم بمثلها قطّ، فيرسل الله عليهم السماء مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلّا أخرجته[1]. وسيقسّم الإمام الأموال بين الناس بالعدل والتساوي، ولا يفرّق بين المحسن والمسيء[2].

وخلال حكومة الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف يملأ الله قلوب أمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم غنًى[3]، كما يبلغ العدل الاجتماعيّ مبلغاً من الناس، فذكر الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام أنّه يُدخل عليهم العدل إلى جوف بيوتهم كما يدخلها الحرّ والبرد[4]. ويشمل الإعمار جميع المناطق في العالم دون استثناء، فلا يبقى في الأرض خراب إلّا عُمّر[5].

ومن الناحية العقديّة، قال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: «**يُظْهِرُ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) به دِيْنَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون... فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ مَعْبُودٌ دُونَ اللهِ (عزَّ وجلَّ) مِنْ صَنَمٍ وَوَثَنٍ وَغَيْرِه إِلَّا وَقَعَتْ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَ**»[6].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الخصوص: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَا يَبْقَى قَرْيَةٌ إِلَّا وَنُودِي فِيهَا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا**»[7].

ومجمل الكلام: إنّ الحكم يكون في قبضة الصالحين، فيحكمون المجتمع ويُطرد منه الفاسدون والكافرون، ويحصل كلّ ذي حقٍّ على حقّه.

(1) انظر: الشيخ الأربليّ، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، مصدر سابق، ج2، ص473.
(2) انظر: النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص320.
(3) انظر: الشيخ الأربليّ، كشف الغمّة في معرفة الأئمّة، مصدر سابق، ج2، ص483.
(4) انظر: النعمانيّ، الغَيْبة، مصدر سابق، ص297.
(5) انظر: الصافي الكلبايكانيّ، منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر، مصدر سابق، ص482.
(6) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص330.
(7) الاسترآبادي، السيد شرف الدين علي الحسيني، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف -الحوزة العلمية- قم المقدسة، 1407هـ - 1366هـ - ش، ط1، ص663.

المفاهيم الرئيسة

- أُشيرَ في الروايات الإسلاميّة إلى الظواهر السائدة عند الظهور، والتي تشبه إلى حدٍّ كبير، الأوضاع التي تسبق يوم القيامة وتسمّى أحياناً بـ«أشراط الساعة».
- من أهمّ علامات الظهور، خروج السفيانيّ وارتكابه مجازر مروّعة في العالم.
- من العلامات الأخرى للظهور، الصيحة السماويّة، وأصل وقوع الصيحة أمر محتوم، وفي بعض الروايات أنّ ثمّة صيحتَيْنِ واقعتينِ في يوم واحد من شهر رمضان المبارك.
- من العلائم الأخرى على الظهور، قتل شخص ملقّب بالنفس الزكيّة، وأنّه يُقتل بظهر الكوفة مع سبعين شخصاً من الصالحين.
- ومن العلائم الأخرى للظهور، خروج اليمانيّ.
- ذُكرت علامة أخرى من علامات الظهور، وهي خروج الخراسانيّ من جهة المشرق، فورد في أحاديث كثيرة، أنّه يخرج، بالتزامن مع خروج اليمانيّ وحرب السفيانيّ.
- إنّ أساس الإيمان بالمهدويّة هو إقامة الدولة العالميّة للإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف؛ فبعدما يحتدم الصراع بين جبهة الحقّ وجبهة الباطل، تكون الغلبة والانتصار لجبهة الحقّ بإذن الله -سبحانه وتعالى-.
- يسود العالَم إبّان حكم الدولة المهدويّة، الأمنُ والاستقرار على الصعيدين الفرديّ والاجتماعيّ، فلا يظلم أحدٌ أحداً مطلقاً، ويشهد العالم استتباب السلام والاستقرار في جميع ربوعه.

الأسئلة

1. ما الفرق بين الأوضاع قبل الظهور وعلائم الظهور؟

2. ما المراد من الصيحة السماويّة؟

3. اشرح خروج كلٍّ من السفيانيّ واليمانيّ والسيِّد الخراسانيّ، وبيّن الارتباط بين هذه الوقائع.

الدرس الحادي والثلاثون



مسؤوليَّة الأمّة تجاه الإمام المعصوم

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبيّن أنّ معرفة الإمام عليه السلام بصفاته ومقاماته مسؤوليّة الأمّة تجاه إمامها.
2. يشرح أنّ مودة الإمام عليه السلام من أهمّ مسؤوليّات الأمّة تجاه إمامها.
3. يقرأ أنّ التولّي والتبرّي من أهمّ وظائف الأمّة تجاه إمامها.



* تمهيد

تحدّثنا سابقاً حول مكانة الإمام المهديّ عجل الله فرجه وعن الظروف المحيطة بالغَيْبة والظّهور. واتّضح في الدرس السّابق أنّ دولته ستشهد ظهور جميع أشكال الخير والفضل والإحسان، وتتحقّق فيها أحلام الأنبياء والأولياء والمؤمنين على مرّ التاريخ. وفي هذا الدرس سنتعرّف على مسؤوليّة الأمّة ودور الفقهاء في عصر الغَيْبة.

وغالباً ما ينتهي بحث الإمامة ببيان مسؤوليّة الأمّة تجاه الإمام المعصوم، ويمكن حصر المسؤوليّات في الموارد الآتية:

* معرفة الإمام

المقصود بمعرفة الإمام، في هذا البحث، هو المعرفة بصفاته ومقاماته وصلاحيّاته والحقوق التي له على الأمّة. وبما أنّ طريق المعرفة الإلهيّة يقتصر على الكتاب والأنوار الأربعة عشر الطاهرة، فمعرفة هؤلاء الأئمّة بمثابة التعرّف إلى الطريق القويم وسبيل الهداية اللازم اتّباعه لمن ينشد بلوغ الكمال.

قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام نقلاً عن جدّه الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المجال: «**مَنْ مَاتَ وَلَا يَعْرِفُ إِمَامَهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»[1].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص377.

والجاهليّة هنا، بمعنى الجهل بالقيم الإلهيّة وإهمالها وعدم اتّباعها، والميتة الجاهليّة هي في حقيقة الأمر، استمرار الحياة الجاهليّة؛ فمن لا يتلزم بالدين الإلهيّ ولا يُراعِ ضوابطه يَعِشْ حياةً جاهليّةً، ويَكُنْ مصيره الكفر والنفاق، وإن مارس الأعمال الإسلاميّة في الظاهر؛ ومن هنا، قال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام حينما سُئل عن معنى الجاهليّة في الحديث المذكور: «**جَاهِلِيَّةَ كُفْرٍ وَنِفَاقٍ وَضَلَالٍ**»[1].

وتنطوي معرفة الإمام على آثار كثيرة، منها على سبيل المثال: التذكير بالمعرفة الإلهيّة، واستكشاف المذهب الصحيح في المعارف، وتعلّم سبيل العبوديّة، والعمل وفق نمط متكامل في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وأخيراً السير في طريق السعادة الأبديّة.

على أنّ معرفة حقيقة أوصاف الإمام ومقاماته -بعد إثبات وجوده- لا تتسنّى إلّا من خلال الرجوع إلى الأئمّة أنفسهم؛ لأنّ هذا الأمر -في حدّ ذاته- من المعارف العقديّة التفصيليّة، وهذا الصنف من المعارف موجود لدى أهل البيت عليهم السلام حصراً، فلا يمكن استكشافه عن طريق التعقّل والتأمّل والتدبّر فقط.

❋ مودّة الإمام

من المسؤوليّات الأخرى التي تقع على عاتق أفراد الأمّة، محبّة الإمام ومودّته؛ وعليه فوظيفة الناس -بعد إحراز معرفة الإمام- إبداء المودّة له والإخلاص إلى ساحته القدسيّة؛ وبالتالي، إكرامه واحترامه كإكرام الرحم القريبة واحترامها، وتقديم إرادته على الإرادة الشخصيّة للفرد. وعلى هذا الأساس، جعل الله -سبحانه وتعالى- الأجر الوحيد للرسالة النبويّة هو المودّة للعترة الطاهرة، فلم يسأل نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم الناس أكثر من ذلك مقابل تحمّل أعباء تلك الرسالة، فقال في محكم كتابه الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[2].

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص377.
(2) سورة الشورى، الآية 23.

ولمّا سُئل الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام عن هذه الآية قال: «**هِيَ وَاللهِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم فِي أَهْلِ بَيْتِه**»[1].

وقال أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام أيضاً بشأن هذه الآية الشريفة: «**إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ الرَّجُلَ وَيُبْغِضُ وَلَدَهُ، فَأَبَى اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَّا يَجْعَلَ حُبَّنَا مُفْتَرَضاً -أَخَذَهُ مَنْ أَخَذَهُ وَتَرَكَهُ مَنْ تَرَكَهُ- وَاجِباً**»[2].

* التولّي والتبرّي والطاعة

التولّي والتبرّي من الوظائف والمسؤوليّات الأخرى تجاه الإمام، والتولّي يعني القبول بولاية أهل البيت عليهم السلام والتسليم لأوامرهم ونصرتهم على أعدائهم، وكذلك إبداء المحبّة والمودّة لهم.

أمّا التبرّي فيعني البراءة من أعداء الله ورسوله وأهل بيته، ولا يمكن الالتزم بالتولّي دون التبرّي؛ إذ لا يتسنّى إبداء المودّة لشخص دون البراءة من أعدائه؛ لذا فإنّ المودّة لأعداء أهل البيت عليهم السلام تساوق المعاداة لأهل البيت عليهم السلام[3]، ولا تجتمع المودّة والعداء في آن واحد. من هنا، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[4]: «**لَا يَسْتَوِي مَنْ يُحِبُّنَا وَيُبْغِضُنَا، وَلَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ أَبَداً. إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِه، يُحِبُّ بِهَذَا وَيُبْغِضُ بِهَذَا**»[5].

(1) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1370هـ - 1330ش، لا.ط، ج1، ص144؛ وأيضاً انظر: الشيخ الصدوق، الأماليّ، مصدر سابق، ص528.

(2) البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج1، ص144.

(3) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَعْدَاؤُكَ عَدُوُّكَ وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ وَصَدِيقُ عَدُوِّكَ**»، الشريف الرضي، نهج البلاغة، الحكمة 295.

(4) سورة الأحزاب، الآية 4.

(5) الإسترآباديّ، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، مصدر سابق، ص439.

وفي هذا السياق، شدّد الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام على أنّ موالاة المؤمن بقلبه ولسانه أولياءَ الله ومعاداته كذلك أعداء الله من مصاديق الصبر حين البأس[1].

هذا، علماً أنّ للتولّي آثاراً دنيويّة وأخرويّة كثيرة، فمن أهمّ آثاره الدنيويّة يمكن الإشارة إلى الابتعاد عن القبائح والصفح عن المعاصي والذنوب؛ لذا قال الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «**إِنَّ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَحُطُّ الذُّنُوبَ عَنِ الْعِبَادِ كَمَا يَحُطُّ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ الْوَرَقَ عَنِ الشَّجَرِ**»[2].

ومن الواضح أنّ الطهارة المعنويّة تهيّئ الإنسان الموالي إلى قبول المعارف الإلهيّة التي تعدّ أفضل النِّعم الدنيويّة وألذّها، ومن ثمّ يستفيد من هذه الموهبة الإلهيّة في الحياة الدنيا. ولا ريب في أنّ من تستقرّ المعارف الإلهيّة في قلبه ويدرك حقائق العالم بصورة صحيحة سيطرأ تحوّل كبير على أفعاله وتصرّفاته، ثمّ يدنو من السعادة الأبديّة رويداً رويداً.

ومن الآثار المهمّة للتولّي في الآخرة، الحصول على شفاعة أهل البيت عليهم السلام، كما صرّح بذلك الإمام عليّ بن موسى الرِّضا عليه السلام في الحديث المتقدّم. كذلك ورد في حديث آخر عن الإمام أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام أنّ من جملة الآثار الأخرويّة للتولّي غفران الذنوب[3]. وحيث إنّ التبرّي جزء لا يتجزّأ من التولّي، فكلّ أثر ثبت للأخير يثبت للأوّل أيضاً بلا شكّ.

(1) انظر: الطبرسي، الشيخ الميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، لبنان - بيروت، 1408هـ - 1987م، ط1،ج5، ص340.

(2) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، مصدر سابق، ص187؛ وأيضاً انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص340.

(3) انظر: الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، مصدر سابق، ص170؛ وأيضاً انظر: البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج1، ص265.

❋ أخذ العلم عن الإمام

من المسؤوليّات الأخرى للأمّة تجاه الإمام، أخذ العلوم والمعارف الدينيّة عنه. فمن المسلّم به أنّ الله (جلّ وعلا) أودع النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام العلوم الدينيّة ومعاني الكتاب السماويّ[1]، وهو ذلك الكتاب المبين الذي يحوي كلّ شيءٍ من رطبٍ ويابسٍ[2]. وعلى هذا الأساس، فأهل البيت عليهم السلام يعلمون بكلّ احتياجات الناس، فيتوجّب على الناس الرجوع إليهم في جميع الأمور، وأخذ مسائلهم المختلفة منهم، لا سيّما العلوم والعقائد الدينيّة. قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل في هذا المجال: «**يَا كُمَيْلُ! لَا تَأْخُذْ إِلَّا عَنَّا تَكُنْ مِنَّا**»[3].

هذا الكلام من الإمام عليه السلام يدلّ بوضوح على حقيقة أنّ أخذ العلم من غير أهل البيت عليهم السلام يساوق إنكارهم والخروج عن ولايتهم. وفي هذا السياق، قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام لشخصين كانا ينشدان العلوم الدينيّة من غير أهل البيت عليهم السلام: «**شَرِّقَا وَغَرِّبَا، فَلَا تَجِدَانِ عِلْمَاً صَحِيحاً إِلَّا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[4].

(1) ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، سورة العنكبوت، الآية 49.

(2) ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾، سورة الأنعام، الآية 59.

(3) ابن شعبة الحرّانيّ، تحف العقول، مصدر سابق، ص171؛ الطبري، محمد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1420، ط1، ص25.

(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص399؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص10.

المفاهيم الرئيسة

- المقصود بمعرفة الإمام، في هذا البحث، هو المعرفة بصفاته ومقاماته وصلاحيّاته والحقوق التي له على الأمّة.
- من لا يتلزم بالدين الإلهيّ ولا يُراعِ ضوابطه يَعِشْ حياةً جاهليّةً ويَكُنْ مصيره الكفر والنفاق، وإن مارس الأعمال الإسلاميّة في الظاهر.
- تنطوي معرفة الإمام على آثار كثيرة، منها على سبيل المثال: التذكير بالمعرفة الإلهيّة، واستكشاف المذهب الصحيح في المعارف، وتعلّم سبيل العبوديّة، والعمل وفق نمط متكامل في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وأخيراً السير في طريق السعادة الأبديّة.
- من المسؤوليّات الأخرى التي تقع على عاتق أفراد الأمّة، محبّة الإمام ومودّته؛ وعليه فوظيفة الناس -بعد إحراز معرفة الإمام- إبداء المودّة له والإخلاص إلى ساحته القدسيّة.
- التولّي والتبرّي من الوظائف والمسؤوليّات الأخرى تجاه الإمام، والتولّي يعني القبول بولاية أهل البيت عليهم السلام والتسليم لأوامرهم ونصرتهم على أعدائهم، وكذلك إبداء المحبّة والمودّة لهم.
- الطهارة المعنويّة تهيّئ الإنسان الموالي إلى قبول المعارف الإلهيّة التي تعدّ أفضل النِّعم الدنيويّة وألذّها، ومن ثَمَّ يستفيد من هذه الموهبة الإلهيّة في الحياة الدنيا.
- من الآثار المهمّة للتولّي في الآخرة، الحصول على شفاعة أهل البيت عليهم السلام، أهل البيت عليهم السلام يعلمون بكلّ احتياجات الناس، فيتوجّب على الناس الرجوع إليهم في جميع الأمور، وأخذ مسائلهم المختلفة عنهم، لا سيّما العلوم والعقائد الدينيّة.

الأسئلة

1. أثْبِت، اعتماداً على الروايات الإسلاميّة، أنّ معرفة الإمام المعصوم عليه السلام من المبادئ العقديّة المسلَّمة.
2. أيُّ الأُمورِ هي المقصودة بمعرفة الإمام؟ اذكر آثار معرفة الإمام وفوائدها.
3. كيف يقود التولّي والتبرّي الإنسان إلى السعادة الأبديّة رويداً؟ اذكر الدليل على ذلك.

الدرس الثاني والثلاثون

النيابة العامّة للفقهاء في عصر الغَيْبة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يشرح دور الفقهاء في عصر الغَيْبة.
2. يبيّن دور الأئمّة عليهم السلام في إعداد الفقهاء.
3. يتعرّف النيابة العامّة عن الإمام الحجّة عجل الله فرجه الشريف في عصر الغَيْبة الكبرى.

* دور الفقهاء في عصر الغَيْبة

إنّ إمامة الأئمّة المعصومين عليهم السلام متواصلة بالوجود المقدّس لإمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف، فهو يمارس عمله في هداية الأمّة في الخفاء؛ غير أنّ جزءاً من هذه المسؤوليّة التي تتطلّب تواصلاً مباشراً مع الناس يضطلع بها الفقهاء العدول، وهذا ما نروم إثباته من النيابة العامّة للفقهاء الجامعين للشرائط في عصر الغَيْبة.

لقد كان موضوع استمرار القيادة الإلهيّة للمجتمع البشريّ، من التحدّيات الكبيرة التي واجهت الشيعة منذ مطلع عصر الغَيْبة الكبرى، وقد كان الأئمّة الميامين عليهم السلام قد تنبَّأوا بهذه المرحلة بمقتضى علمهم الإلهيّ، فاتّخذوا التدابير الكفيلة بقدرة التشيُّع على مواجهة التحدّيات في هذا العصر. فمن جهة، أخبروا شيعتهم بوقوع هذه المرحلة في المستقبل وحذّروهم من المخاطر والمزالق التي تكتنفها، ومن جهة ثانية مهّدوا الطريق لتولّي الفقهاء مهامّ القيادة الدينيّة، في زمن الغَيْبة، من خلال تعيين نوّاب لهم في الأمور المختلفة.

وكان عصر الغَيْبة الصغرى بمثابة تمرين للشيعة ساعدهم على مواجهة هذه المرحلة العصيبة، فلم يكن بإمكان أحد في هذه المرحلة التي دامت زهاء 70 عاماً اللقاء بإمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف والتواصل معه سوى أربعة نوّاب خاصّين، فكان المجتمع الشيعيّ مضطرّاً إلى عرض مشاكله وأسئلته على الإمام عليه السلام عن طريق هؤلاء الأشخاص فقط.

لقد أعلن الإمام المهديّ المنتظَر عجل الله فرجه الشريف في كتاب خرج منه إلى آخر نوّابه الأربعة، انتهاء مرحلة الغَيْبة الصغرى وبدء الغَيْبة الكبرى؛ وقبل ذلك ورد في توقيع آخر لثاني النوّاب الأربعة، ردّاً على كتاب من شخص اسمه إسحق بن يعقوب يسأل فيه عن أحداث عصر الغَيْبة وعن الشخص الذي يجب الرجوع إليه فيها: «**وَأَمَّا الْحَوَادِثُ الْوَاقِعَةُ فَارْجِعُوا فِيهَا إِلَى رُوَاةِ حَدِيثِنَا؛ فَإِنَّهُمْ حُجَّتِي عَلَيْكُمْ وَأَنَا حُجَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ**»[1].

وبهذا يتّضح موقف الشيعة في عصر الغَيْبة الكبرى؛ فهم مكلّفون بالرجوع في المسائل الفرديّة المهمّة، الثقافيّة والاجتماعيّة، وكذلك الأحداث السياسيّة المهمّة، إلى رواة الحديث، أي من ينشرون علوم أهل البيت عليهم السلام ومعارفهم، في جميع المجالات.

ولا ريب في أنّه ليس المراد من رواة الحديث، في الرّواية المتقدّمة، الناقلين للرّوايات فقط؛ لأنّ من يُرجَع إليه لتحديد تكاليف الناس في المسائل المستحدثة الواقعة في زمانهم لا مناص له من استنباط الأحكام في المسائل الفرديّة والاجتماعيّة من المصادر الدينيّة المعتبرة، وليس هؤلاء إلّا الفقهاء الجامعون لشرائط الإفتاء ومراجع الدّين.

* الأئمّة عليهم السلام عملوا على إعداد فقهاء وشدّدوا على أهمّيّة التفقّه في الدين

إنّ لزوم تربية الفقيه للمجتمع الإسلاميّ، في المسائل الدينيّة المختلفة، نابعة من التعاليم الإلهيّة في القرآن الكريم؛ حيث قال (عزَّ وجلَّ) في هذا الخصوص: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2].

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، مصدر سابق، ج1، ص484؛ الشيخ الطوسيّ، الغَيْبة، ص291؛ الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج27، ص140.

(2) سورة التوبة، الآية 122.

والمقصود بـ«التفقّه في الدين» تعلّم جميع المعارف والأحكام الإسلاميّة، الأعمّ من الأصول والفروع؛ ذلك أنّ كلمة «الدين» عامّة وشاملة لجميع الوجوه والأبعاد، وجميع هذه الأبعاد مأخوذة بنظر الاعتبار في مفهوم التفقّه. وعليه، فهذه الآية القرآنيّة تعدّ دليلاً واضحاً على لزوم أن تبادر طائفة من المسلمين إلى دراسة العلوم الدينيّة والمعارف الإسلاميّة من باب الوجوب الكفائيّ، ومن ثَمَّ ترجع إلى المكان الذي خرجت منه أو تهاجر إلى المناطق المختلفة من العالم الإسلاميّ لنشر الدعوة الدينيّة وتبليغ الأحكام الإسلاميّة كجزء من وظيفتها الشرعيّة.

كما أنّ إعداد فقهاء قادرين على الردّ على أسئلة الناس في حال عدم إمكان الوصول إلى الإمام الغائب عجل الله فرجه الشريف، كان ضمن جدول أعمال الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ حيث كانوا يُرجعون السائلين عن المسائل الدينيّة المختلفة ممّن يسكنون في المناطق النائية، ولا يستطيعون اللقاء بالإمام، إلى كبار الشخصيّات والفقهاء في المناطق القريبة من مناطقهم[1].

وفي هذا الإطار، شدّد الأئمّة المعصومون عليهم السلام كثيراً على أهمّيّة التفقّه في الدين. من هنا، قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في بيان معنى الحكمة: «**إِنَّ الْحِكْمَةَ الْمَعْرِفَةُ وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ فَقُهَ مِنْكُمْ فَهُوَ حَكِيمٌ، وَمَا أَحَدٌ يَمُوتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَى إِبْلِيسَ مِنْ فَقِيهٍ**»[2].

وفي رواية أخرى، أكّد الإمام الصَّادق عليه السلام أيضاً على أنّ العبد لا يستكمل حقيقة الإيمان حتّى يكون فيه ثلاث خصال، أُولاها التفقّه في الدين[3].

(1) انظر: الشيخ الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج6، ص266-270.

(2) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج1، ص151؛ وأيضاً انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص38.

(3) انظر: البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج1، ص5؛ وأيضاً انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص32.

ومن ناحية أخرى، نهى الأئمّة الكرام عليهم السلام عن الرجوع إلى حكّام الجور والترافع إليهم في النزاعات والخلافات، وطلبوا من الناس الذهاب إلى الفقهاء العدول للقضاء بينهم في القضايا المتنازَع عليها بينهم، والرضى بحكمهم، مشدّدين على أنّ حكم هؤلاء الفقهاء هو حكم الأئمّة عليهم السلام، ويمكن الاستشهاد بمقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام في المقام لمّا سأله عن رجلين من المؤمنين يكون بينهما منازعة كيف يصنعان؟؛ فقال الإمام عليه السلام: **«انْظُرُوا إِلَى مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا وَنَظَرَ فِي حَلَالِنَا وَحَرَامِنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا، فَارْضَوْا به حَكَماً؛ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً. فَإِذَا حَكَمَ بِحُكْمِنَا فَلَمْ يَقْبَلْهُ مِنْهُ، فَإِنَّمَا بِحُكْمِ الله قَد اسْتَخَفَّ، وَعَلَيْنَا رَدَّ، وَالرَّادُّ عَلَيْنَا الرَّادُّ عَلَى الله، وَهُوَ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِالله»**[1].

مضافاً إلى ما ذُكر، شرح الإمام عليه السلام في هذه الرواية طريقة اختيار الفقهاء وكيفيّة تقليدهم، وهو ما يشير إلى مساعي الأئمّة الطاهرين عليهم السلام الرامية إلى التمهيد لطريق الفقاهة والترويج لعمليّة الاجتهاد والتقليد.

* النيابة العامّة في عصر الغَيْبة للفقهاء العدول

بناءً على ذلك؛ فإنّ الإمام الحجّة بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف قد فوّض النيابة العامّة عنه في عصر الغَيْبة الكبرى إلى الفقهاء والمراجع المختصّين. والمراد من النيابة العامّة هو أنّ هؤلاء الأفراد لم يُنتخبوا مباشرةً من قِبل الإمام؛ وإنّما يُصار إلى اختيارهم من بين الفقهاء من قِبل أهل الخبرة، طبقاً لشروط ومعايير خاصّة حدّدها الأئمّة عليهم السلام أنفسهم.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص67، ج7، ص412؛ الشيخ الطوسيّ، تهذيب الأحكام، مصدر سابق، ج6، ص218.

فالفقيه الجامع للشرائط بنظر الأئمّة الأطهار عليهم السلام لا بدّ له من الاتصاف بأوصاف معنويّة وأخلاقيّة واجتماعيّة مناسبة لهذه الوظيفة المهمّة، فضلاً عن تفوّقه في علوم أهل البيت عليهم السلام والقدرة على استنباط الأحكام الشرعيّة من المصادر الدينيّة. قال الإمام الحسن العسكري عليه السلام في هذا المجال: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائناً لِنَفْسِهِ، حَافِظاً لِدِينِهِ، مُخَالِفاً لِهَوَاهُ، مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ، فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ**»[1].

فمثل هؤلاء الفقهاء والمراجع هم الحجّة على الأمّة من إمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف، وإذا ما قصّر الناس في الرجوع إليهم في قضاياهم المختلفة، فهذا يعني أنّهم لم يعملوا بتكليفهم الدينيّ والشرعيّ الملقى على عواتقهم، وأنّهم مسؤولون أمام الله -سبحانه وتعالى-. وفي المقابل؛ فإنّ هؤلاء الفقهاء مسؤولون، مقابل إمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف، ويجب عليهم هداية الأمّة وقيادتها في الأوقات المختلفة بما يتناسب مع مصالح المجتمع الإسلاميّ.

ومن هذا المنطلق؛ فإنّ مسؤوليّة الفقهاء العدول والعاملين بزمانهم تجاه الحياة المعنويّة والماديّة للشيعة خطيرة للغاية؛ ففضلاً عن لزوم تلبية المتطلّبات الثقافيّة والفكريّة لهم، ينبغي عليهم تحمّل مسؤوليّات إمام العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف في إرساء الأمن والاستقرار وتوفير الراحة للناس قدر المستطاع، والحفاظ على كيان الأمّة الإسلاميّة حيال مخاطر الأعداء. وكان من مسؤوليّاتهم تحصين المجتمع الإسلاميّ ورصّ صفوفه، والتصدّي للولاية والقيادة السياسيّة عند الإمكان. ومن هنا، كانت ولاية الفقيه تجسيدًا لهذه المسؤوليّة الخطيرة الملقاة على الفقهاء في عصر الغَيْبة، وامتدادًا لولاية الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، مصدر سابق، ج2، ص458؛ الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج27، ص131.

المفاهيم الرئيسة

- لقد كان موضوع استمرار القيادة الإلهيّة للمجتمع البشريّ من التحدّيات الكبيرة التي واجهت الشيعة منذ مطلع عصر الغَيْبة الكبرى.
- كان عصر الغَيْبة الصغرى بمثابة تمرين للشيعة ساعدهم على مواجهة هذه المرحلة العصيبة، فلم يكن لأحد في هذه المرحلة التي دامت زهاء 70 عاماً اللقاء بإمام العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف والتواصل معه سوى أربعة نوّاب خاصّين.
- لقد أعلن الإمام المهديُّ المنتظَر عجل الله فرجه الشريف في كتاب خرج منه إلى آخر نوّابه الأربعة، انتهاء مرحلة الغَيْبة الصغرى وبدء الغَيْبة الكبرى.
- إنّ الإمام الحجّة ابن الحسن عجل الله فرجه الشريف قد فوّض النيابة العامّة عنه في عصر الغَيْبة الكبرى إلى الفقهاء والمراجع المختصّين.
- الفقيه الجامع للشرائط، بنظر الأئمّة الأطهار عليهم السلام لا بدّ له من الاتصاف بأوصاف معنويّة وأخلاقيّة واجتماعيّة مناسبة لهذه الوظيفة المهمّة، فضلاً عن تفوّقه في علوم أهل البيت عليهم السلام والقدرة على استنباط الأحكام الشرعيّة من المصادر الدينيّة.
- ومن هنا، كانت ولاية الفقيه تجسيدًا لهذه المسؤوليّة الخطيرة الملقاة على الفقهاء في عصر الغَيْبة، وامتدادًا لولاية الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف.

الأسئلة

1. اذكر دليلاً قرآنيّاً على ضرورة وجود الفقهاء في مسيرة هداية الأمّة.

2. اذكر نماذج ممّا قام به أهل البيت عليهم السلام، لإعداد الأمّة للغَيْبَة واتّباع الفقهاء العدول.

الباب السادس

المعاد

الدرس الثالث والثلاثون

المعاد أهمّيّته ودلائل إثباته

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يقرأ أهمّيّة الاعتقاد بالمعاد.
2. يشرح برهانَي الحكمة الإلهيّة والعدل الإلهيّ لإثبات المعاد.
3. يذكر أسباب إنكار المعاد.

* تمهيد

يُعدّ المعاد من الأصول العقديّة المهمّة في الرؤية الإسلاميّة، والذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر المبادئ المعرفيّة الأخرى.

وإنّ أصل الإيمان بعالم ما بعد الموت هو أحد العقائد المشتركة في الأديان الإلهيّة وفي كثير من المدارس البشريّة، ولهذا الأصل ارتباط وثيق بالإيمان بالحكمة والعدل الإلهيَّيْن.

فلا غرو أنّ هذه العقيدة الأساسيّة، من جهة، قائمة على الأسس العقليّة؛ لذا كان مبدأ المعاد يحظى بتأييد العقلاء على امتداد التاريخ البشريّ، ومن جهة أخرى تخرج البحوث التفصيليّة في باب كيفيّة المعاد وأحواله عن دائرة عقل الإنسان الاعتياديّ، فلا يمكن بيانها إلّا بوساطة الأنبياء الإلهيّين. ولمَّا كنّا في هذا الكتاب بصدد التعريف بالأسس العقديّة من المصادر الإسلاميّة الأصليّة، سنركّز على الأدلّة والشواهد السماويّة، ونشير إلى البراهين العقليّة الواردة في النصوص الدينيّة أيضاً.

* المعاد

المعاد، لغةً، يقال للعَوْد وللزمان الذي يعود فيه، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه[1]. وأمّا في اصطلاح المتكلّمين، فهو يُطلق على عودة الروح إلى البدن المادّيّ والعنصريّ يوم القيامة، ليعيش الإنسان حياته الأبديّة في الجنّة أو النار بعد انقضاء الحساب[2].

* أهمّيّة المعاد

إنّ حياة الإنسان ترتبط ارتباطاً مباشراً بطبيعة رؤيته إلى حقيقته وكماله وسعادته؛ فمن يَرَ أنّ حقيقته لا تعدو مجموعة من العناصر الماديّة فقط، ويعتبر حياته مقتصرة على عدد الأيام التي يعيشها في الحياة الدنيا، ولا يلتمس كمالاً من وراء الانتفاعات المادّيّة والدنيويّة، فإنّه ينظّم سلوكيّاته بطريقة تضمن له تلبية هذه الاحتياجات وتوفير الأمور التي يحتاجها في هذا العالم فقط. وعلى العكس من ذلك؛ فإنّ من يؤمن أنّ حقيقته أبعد من الظواهر المادّيّة، ولا يعتبر الموت نهاية للحياة؛ بل يعدّه نقطة انتقال من عالم مؤقّت إلى عالم أبديّ، ويعتقد أنّ سلوكه الجيّد هو الوسيلة لبلوغه السعادة والكمال الأبديّين، يعمل على تنظيم حياته بحيث تكون أكثر فائدة لحياته الأبديّة. كما أنّ مثل هذا الإنسان لا يصيبه اليأس والقنوط عند مواجهة المشاكل والأزمات، ولا يخفق في مساعيه بهدف أداء المسؤوليّات وإحراز السعادة والكمال الأبديَّين.

ولا غرو أنّ تأثير هذين النحوين من الرؤية الإنسانيّة والكونيّة، لا يقتصر على الحياة الفرديّة فحسب؛ بل له تأثير كبير في الحياة الاجتماعيّة والسلوكات المتبادلة بين الأفراد أيضاً، فالإيمان بالحياة الأخرويّة ومبدأ الثواب والعقاب الأبديّ له تأثير مهمّ في رعاية حقوق الآخرين والتفاني في سبيل المساكين، وقلّما تبدو

(1) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ج5، ص67.
(2) انظر: مجتبى القزوينيّ، بيان الفرقان في توحيد القرآن(فارسي)، ج3، ص2.

الحاجة إلى القوّة وممارسة الضغط لتطبيق القوانين العادلة ومنع وقوع الظلم على الآخرين في المجتمعات التي تسودها مثل هذه الاعتقادات. ولا ريب في أنّه لو جرى تعميم هذه الرؤية على جميع أنحاء العالم، فسوف تنحسر المشاكل التي يعاني منها الناس بشكل لافت.

ولا بدّ من الالتفات إلى أنّ تأثير الإيمان بالمعاد لا يقتصر على الحياة الدنيويّة القصيرة فقط؛ بل له تأثير في أبديّة الإنسان التي لا تشكّل الدنيا سوى ذرّة منها. ومن هذا المنطلق، ربَّما يعدّ بحث المعاد والحياة ما بعد الموت أوسع الأبحاث في القرآن الكريم، حتّى إنّ آيات المعاد أكثر من آيات التوحيد أيضاً.

من هنا، وردت الإشارة مراراً وتكراراً إلى الجنّة والنار التي ستكون موئلاً للمحسنين والمسيئين[1]، كما أُشيرَ مراراً وفي آيات قرآنيّة كثيرة، إلى أوصاف الجنّة ونعيمها وأوصاف النار وعذابها[2]. فتتّضح أهمّيّة الحياة ما بعد الموت ولزوم دراستها والتأمّل فيها من كثرة الآيات الواردة في هذا المجال.

❋ آثار الإيمان بالمعاد

يُستفاد ممّا تقدّم أنّ للإيمان بعالم ما بعد الموت دوراً محوريّاً في حياة الإنسان وأثراً مباشراً في تحديد الأعمال والمعتقدات، ويمكن تلخيص الآثار المترتّبة على الإيمان بالمعاد بما يأتي:

1 - إنّ مثل هذا الإيمان يعمل بالدرجة الأولى على جعل الإنسان حسّاساً تجاه عقيدته وبصيرته، ويدفعه إلى توفير الأرضيّة اللّازمة للإيمان بما يضمن له النجاة والفلاح وصيانته من الاعتقاد بما يوجب له العذاب والسقوط في جهنّم.

(1) وردت كلمة «جنّات» 69 مرّة، و«الجنّة» 66 مرّة، وكلمة «جهنّم» 77 مرّة، وكلمة «الجحيم» 25 مرّة في القرآن الكريم.

(2) انظر: سورة الواقعة: الآيات 11 - 23 و27 - 34 و52 - 54.

2 - إنّ من يؤمن بالمعاد يرى الدنيا مزرعة للآخرة، ويعتبر أعماله كالبذور التي سيقطف ثمارها في الآخرة؛ لذا لا يخطو في الحياة الدنيا إلّا خطواتٍ مدروسة، ويسعى إلى القيام بأعمال حسنة ليحصد نتائج طيّبة.

ثمّ إنّ الإيمان بالمعاد يساعد الإنسان على عدم التقصير في أداء التكاليف الإلهيّة وعدم الاستخفاف بالأوامر والنواهي الإلهيّة.

3 - إنّ الإيمان بالمعاد يمنح الإنسان المؤمن قوّة حيال الشدائد والمصائب، ويغيّر الوجه القبيح للموت الذي يلقي بظلاله الثقيلة على أفكاره ويصيبه بالكوابيس المستمرّة ويسلبه الراحة والاطمئنان. فالإيمان بالمعاد يهب الموت معنى آخر، ويحوّله من مفهوم الفناء والعدم إلى نافذة صوب عالم أرفع وأجمل.

4 - إنّ الإيمان بالمعاد يوسّع أفق الرؤية لدى الإنسان، ويخرجه من دائرة العالم المادِّيّ؛ فلا يعودُ يختزل كلّ شيءٍ في الدنيا المادِّيّة، ولا يواجه الفراغ والخواء في الحياة. وعليه، فالمعاد يمنح حياة الإنسان معنى آخر، في هذه الدنيا أيضاً ويملؤها بنور المعنويّة.

5 - من النتائج الأخرى للإيمان بالمعاد، السير نحو هدف محدّد والتخطيط الدقيق للحظات الحياة؛ فالإنسان المؤمن العارف بمصيره المحتوم وعاقبته الأكيدة لا يحيد عن الطريق، ولا يُفتتن بالألاعيب الواقعة في منتصف الطريق؛ وإنّما يخطّط جيّداً للوصول إلى المحطّة الأخيرة والهدف النهائيّ بعناية تامّة.

❋ دلائل إثبات المعاد

يمكن الاكتفاء بأحاديث الرسل الإلهيّين والاعتماد عليها لإثبات المعاد؛ حيث أثبتنا سابقاً صدقهم وصواب أقوالهم، لا سيَّما في ما يتعلّق بالرسالة الإلهيّة. وفي

الوقت ذاته، وردت في القرآن الكريم دلائل وشواهد عقليّة على المعاد، سنشير إلى عدد منها في السطور القادمة، وهذه الأدلّة والبراهين القائمة على المبادئ العقليّة عموماً جرى الاستناد إليها في الكتاب والسنّة أيضاً:

1 - برهان الحكمة الإلهيّة

شدّد القرآن الكريم على أنّه لولا المعاد والرجوع إلى الله ما بعد الموت لكان خلق الإنسان والعالم عبثاً ودون طائل، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾[2].

ويمكن أن نقرّر البرهان المتقدّم كالآتي: إنّ الله -سبحانه وتعالى- حكيم، والحكيم لا يصدر عنه اللغو والعبث؛ ولذا فإنّ أفعاله ذات غاية وهدف محدّد. وخَلْقُ الإنسان فعل من الأفعال الإلهيّة، له غاية معيّنة وهدف خاصّ طبقاً للحكمة الإلهيّة. وبإلقاء نظرة إلى حياة الإنسان منذ بدو ولادته حتّى موته، نجد أنّ الهدف النهائيّ من الخلق لا يتحقّق في الحياة الدنيا، وأنّ الأمر يتطلّب حياةً غير هذه الحياة. وعلى هذا الأساس، فإن كانت حياة الإنسان محدودة بالحياة الدنيا فقط، فسيكون خلقه عبثاً، ولن يصل إلى الكمال المنشود، وهذا الأمر منافٍ للحكمة الإلهيّة. وفي المحصِّلة، الحكمة الإلهيّة وحدها كفيلة بإثبات المعاد والحياة الأخروية للإنسان.

ولمزيد من الإيضاح لهذا البرهان، نقول: إنّ لدى الإنسان قابليّات كثيرة، وبوسعه الحصول على كمالات أرفع ومراتب أسمى، لا يمكن مقارنتها بالكمالات المادِّيّة والمراتب الاعتياديّة. من هنا، لو انحصرت حياة الإنسان بحياته الدنيويّة، فهذا لا يتطابق مع الحكمة الإلهيّة، خصوصاً وأنّ الحياة الدنيويّة لا تخلو من

(1) سورة المؤمنون، آية 115.
(2) سورة الحجر، آية 85.

المصاعب والمشقّات والمآزق الكبيرة، بحيث لا يتيسّر الحصول على لذّة معينة دون تحمّل عناء كبير ومشقّة كبرى غالباً.

والحاصل أنّه يمكن أن نستنتج، من ضمّ هاتين المقدّمتين، أي الحكمة الإلهيّة وإمكان الحياة الأسمى للإنسان، لزومَ وجود لحياة أخرى له وراء هذه الحياة الدنيويّة المحدودة لئلا تخالف الحكمة الإلهيّة[1].

2 - برهان العدل الإلهيّ

أكّد الباري -سبحانه وتعالى- لعباده أنّه خلق السماوات والأرض بالحقّ؛ وذلك ليُجزى كلّ إنسان بما عمل دون أن يُظلم أحد[2]. ثمّ أشار إلى أنّ هذه الدنيا ليست موضعاً مناسباً للثواب والعقاب بما يستحقّه الإنسان: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[3].

وعلى هذا الأساس، لو أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يؤاخذ الناس في هذه الدنيا جزاءً لما فعلوه من أعمال قبيحة، لما أبقى على وجه الأرض منهم دابّة، ولحدث خلل في نظام هذا العالم. ومن هنا، فإنّ الله -سبحانه وتعالى- يؤخّر العقوبة إلى يوم الجزاء، وهذا التأخير ليس من باب الغفلة. قال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[4].

ويُستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ الله (عزَّ وجلَّ) لم يجعل هذه الدنيا مكاناً للمجازاة على جميع أعمال العباد؛ وإنّما اعتبر الدنيا دار عمل وامتحان. وإن كان الأمر كذلك فإنّ العدل الإلهيّ يقتضي أن يوكل الثواب أو العقاب إلى عالم آخر.

(1) انظر: الشيخ المصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص328.
(2) انظر: سورة الجاثية، الآية 22.
(3) سورة النحل، الآية 61.
(4) سورة إبراهيم، الآية 42.

ولتوضيح البرهان المذكور ولتسليط مزيد من الأضواء عليه، نقول: إنّ الإنسان في هذا العالم حرّ في اختيار العمل الحسن أو القبيح. فمن جهة، نرى أشخاصاً قضوا جميع أعمارهم في عبادة الله -سبحانه وتعالى- وخدمة عباده، ومن جهة أخرى ثمّة مجرمون ارتكبوا أبشع أنواع الجرائم ومختلف أشكال الظلم لبلوغ مآربهم وتحقيق أهوائهم الشيطانيّة.

لكن، نرى أنّ المحسنين والمسيئين لا يحصلون على الثواب الذي يستحقّونه ولا يواجهون العقاب اللازم في هذه الدنيا؛ بل ربَّما يحصل بعض المسيئين على مزيد من النعم. كما أنّ الحياة الدنيا أساساً غير جديرة بالثواب والعقاب لكثير من الأعمال؛ فعلى سبيل المثال، من يقتل آلاف الأشخاص لا يمكن الاقتصاص منه أكثر من مرّة، وتبقى سائر جرائمه الأخرى دون عقوبة، والحال أنّ العدل الإلهيّ يقتضي أن يرى الإنسان نتائج أعماله الحسنة والسيّئة مهما صَغُرت. وعليه، لا بدّ من وجود عالم آخر يكون داراً للثواب والعقاب وظهور نتائج أعمال الإنسان، فيحصل كلّ إنسان فيه على ما يستحقّه[1].

❋ أسباب إنكار المعاد

يمكن تقسيم الأسباب الداعية إلى إنكار المعاد إلى طوائف مختلفة إجمالاً، بعضها ذو طابع عقديّ ومعرفيّ، وبعضها الآخر ذو طابع نفسيّ وسلوكيّ. وسنتطرّق هنا، إلى عدد من تلك العوامل التي وردت في القرآن الكريم بصراحة.

1. الجهل

ينبري بعض الناس إلى إنكار المعاد والحياة ما بعد الموت نتيجة الظنون التي لا أساس لها من الصحّة والنابعة من الجهل. قال -سبحانه وتعالى- بشأن هذه الطائفة من الناس: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2].

(1) انظر: الشيخ المصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، مصدر سابق، ص328-329.
(2) سورة الجاثية، الآية 24.

وجرى التأكيد، في آيات أخرى أيضاً، على أنّ إنكار المعاد ناجم عن الظنّ بغير الحقّ والمفتقر إلى الدليل[1]. نعم، ربّما يتّخذ أصحاب الأهواء الظنون المفتقرة إلى الدليل دليلاً لهم في حال كونها موافقة لأهوائهم[2]. وتتجلّى -هذه الظنون- كعقيدة حتميَّة لهم تدريجيّاً بفعل التصرّفات المناسبة لها وارتكاب المعاصي[3]؛ بل قد يصرّ الشّخص على مثل هذه العقيدة[4].

2. الغفلة عن القدرة الإلهيّة

قد يتبادر إلى أذهان بعض الناس سؤال مفاده: كيف يمكن إحياء الإنسان الذي يموت ويتحوَّل إلى عظام بالية ويصبح تراباً؟

لقد لفت الباري -سبحانه وتعالى- أنظار الناس إلى قدرته اللّامتناهية بطرق مختلفة، وبهذا أزال الغفلة عن تلك الأذهان، وسنشير أدناه وبصورة مختصرة إلى بعض هذه الطرق والأجوبة عن السؤال الآنف:

أ. خلق السماوات والأرض:

يذكّر الله -سبحانه وتعالى- منكري المعاد في بعض الأحيان بقدرته على خلق السماوات والأرض، ويؤكّد لهم على أنّ من يمتلك مثل هذه القدرة قادرٌ على إحياء الموتى أيضاً، فقال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

---

(1) انظر: سورة القصص، الآية 39؛ سورة الكهف، الآية 36؛ سورة ص، الآية 27؛ سورة الجاثية، الآية 32؛ سورة الانشقاق، الآية 14.

(2) ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ (سورة القيامة، الآية 5).

(3) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ (سورة المطفّفين، الآيات 10 - 12).

(4) ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل، الآية 38).

(5) سورة الأحقاف، الآية 33.

ب. المعاد في الطبيعة:

أشار الله (جلّ وعلا) في آيات قرآنيّة عدّة إلى المعاد في الطبيعة، ودعا الإنسان إلى التأمّل في ذلك مليّاً، حيث يمكن مشاهدة ولوج الحياة في جسد الطبيعة بوضوح بعد سقوط المطر على الأرض المقفرة، فلو نظرنا إلى هذه الحادثة بتمعّن وتدبّر لوجدنا أنّها تمثّل مصداقاً واضحاً لإحياء الأموات يوم القيامة. قال -سبحانه وتعالى- في هذا الصدد: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[2].

3. الهروب من المسؤوليّة

إنّ الإيمان بالقيامة ويوم الحساب يعدّ ظهيراً قويّاً للشّعور بالمسؤوليّة والإقرار بوجود حدود وقيود على الصعيد السلوكيّ، ولمنع وقوع الظّلم والفساد والمعاصي، وإنكاره يساوق فسح المجال أمام الأهواء والشهوات والاستبداد. قال -سبحانه وتعالى- مُشيراً إلى هذا العامل: ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[3].

فنرى أنّ القرآن الكريم في هذه الآية الشريفة ردّ على المنكرين ردّاً عقليّاً، ثمّ بيّن أنّ مردّ كثير من موارد عدم التصديق بالآيات الإلهيّة، إلى جوانب نفسيّة وأخلاقيّة.

(1) سورة فاطر، الآية 9.
(2) سورة فصّلت، آية 39.
(3) سورة القيامة، الآيات 3 - 5.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ أصل الإيمان بعالم ما بعد الموت هو إحدَى العقائد المشتركة في الأديان الإلهيّة وكثير من المدارس البشريّة، ولهذا الأصل ارتباط وثيق بالإيمان بالحكمة والعدل الإلهيَّيْن.
- إنّ من يؤمن أن حقيقته أبعد من الظواهر الماديّة، ولا يعتبر الموت نهاية للحياة؛ بل يعدّه نقطة انتقال من عالم مؤقّت إلى عالم أبديّ، ويعتقد أنّ سلوكه الجيّد هو الوسيلة لبلوغه السعادة والكمال الأبديّين، يعمل على تنظيم حياته بحيث تكون أكثر فائدة لحياته الأبديّة.
- يعدّ بحث المعاد والحياة ما بعد الموت أوسع الأبحاث في القرآن الكريم، حتّى إنّ آيات المعاد أكثر من آيات التوحيد أيضاً.
- إنّ من يؤمن بالمعاد يرى الدنيا مزرعة للآخرة، ويعتبر أعماله كالبذور التي سيقطف ثمارها في الآخرة؛ ولذا لا يخطو في الحياة الدنيا إلّا خطواتٍ مدروسة، ويسعى إلى القيام بأعمال حسنة ليحصد نتائج طيّبة.
- إنّ الإيمان بالمعاد يوسّع أفق الرؤية لدى الإنسان ويخرجه من دائرة العالم الماديّ؛ فلا يختزل كلّ شيءٍ في الدنيا المادِّيّة.
- لو أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يؤاخذ الناس في هذه الدنيا جزاءً لما فعلوه من أعمال قبيحة، لما أبقى على وجه الأرض منهم دابّة، ولحدث خلل في نظام هذا العالم. ومن هنا، فإنّ الله -سبحانه وتعالى- يؤخّر العقوبة إلى يوم الجزاء.

الأسئلة

1. ابحث أهمّيّة الإيمان بالمعاد وبيّنه بصورة واضحة.
2. اشرح أهمّ آثار الإيمان بالمعاد على ثلاثة مستويات: المستوى الفكريّ والسلوك الفرديّ والسلوك الاجتماعيّ.
3. اشرح برهان الحكمة الإلهيّة لإثبات أصل المعاد.
4. كيف يُمكن الاستدلال على لزوم المعاد عن طريق العدل الإلهيّ؟
5. ما الطرق التي أشار إليها القرآن الكريم لإزالة الغفلة عن أذهان الناس وإثبات قدرته على إعادة العالم؟

الدرس الرابع والثلاثون

الاحتضار والموت

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف إلى أنّ الموت سنّة حتميّة تشمل جميع المخلوقات بما فيها الإنسان.
2. يعدّد أسباب الخوف من الموت.
3. يبيّنالسبب في تسمية الحالات التي تعتري الإنسان حال الاحتضار بـ(سكرات الموت).

* تمهيد

كانت البحوث المتقدّمة متعلّقة بأصل المعاد والإيمان به، وتبيّن أنّه يمكن إثبات المعاد بالطرق العقليَّة والنقليّة بصورة قطعيّة، وأنّ أسباب إنكاره إمّا الجهل والغفلة عن أدلّته وعوامله، وإمّا عوامل أخلاقيّة وسلوكيّة. والآن سوف نتطرّق إلى مراحل الآخرة، ونصوّر مصير الإنسان بشكل تدريجيّ من الممات إلى يوم القيامة حسبما ورد في الروايات الإسلاميّة.

ثمّة مراحل مختلفة بين منزل الدنيا والمنزل الأبديّ للإنسان، من قبيل الموت والقبر والبرزخ والقيامة والصراط والميزان، فلا بدّ لنا من بحث هذه المراحل قبل الخوض في المنزل الأبديّ.

تنتهي الحياة الدنيويّة للإنسان وتبتدئ حياته الأخرويّة بظاهرة تُدعى الموت، وإذا مات ابن آدم انقطع عن الدنيا وحلّ في أوّل منازل الآخرة، أي القبر. وسنبحث هنا ظاهرة الموت وما يتعلّق بها، من قبيل حالات الاحتضار وسكرات الموت وما شابه.

* حتميّة الموت

الموت سنّة حتميّة تشمل جميع المخلوقات بما فيها الإنسان، وقد عبّر القرآن الكريم عن حتميّة الموت بتعابير مختلفة، منها: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[2].

وفي آية أخرى، أشار الله -سبحانه وتعالى- إلى موت النبيّ الكريم ﷺ -أشرف المخلوقات- ليثبت لهم أنّ الموت محتوم على الجميع، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾[3].

* استذكار الموت

على الرغم من أنّ الأنبياء الإلهيّين لطالما أكّدوا على أنّ غاية الإنسان هي الآخرة، وأنّ الدنيا دار عبور ومرور، بيد أنّ غفلة الإنسان جعلته ينسى المقصود والغاية النهائيّة ويصرف جلّ همّه إلى الدنيا الفانية. ولعلّ استذكار الموت من أهمّ العوامل التي تجسِّد للإنسان فناء الدنيا وزوالها وتزيد من اهتمامه بدار البقاء والخلود؛ لذا شدّد رسول الله ﷺ على أنّ أشدّ الناس فطنةً أكثرهم ذكراً للموت، فقال: «**أَكْيَسُ الناس مَنْ كَانَ أَشَدَّ ذِكْرَاً لِلْمَوْتِ**»[4].

ولمّا كان الموت هادماً للَّذّات الدنيويّة، فإنّ استذكاره يمنع الإنسان من الانهماك في الشهوات؛ ومن هنا، قال أمير المؤمنين عليه السلام نقلاً عن رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَّاتِ، حَائِلٌ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الشَّهَوَاتِ**»[5].

(1) سورة النساء، الآية 78.

(2) سورة آل عمران، الآية 185؛ سورة الأنبياء، الآية 35؛ سورة العنكبوت، الآية 57.

(3) سورة الأنبياء، الآية 34.

(4) الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج4، ص395.

(5) الشيخ الطوسي، الأمالي، مصدر سابق، ص27؛ وأيضاً انظر: ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، مصدر سابق، ص178؛ المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الأمالي، تحقيق: حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ- 1993م، ط2، ص264.

❋ أسباب الخوف من الموت

إذا ما نسي الإنسان الموت فإنّه سيهمل آثاره المعرفيّة والتربويّة بلا ريب، وسيخاف منه خوفاً شديداً، ويمكن حصر أسباب الخوف من الموت بما يأتي:

1. الشغف الشديد بالدنيا

فالحبّ الشديد للدنيا يجعل الحياة المادّيّة هدفاً نهائيّاً وغايةً قصوى للإنسان، فنجده يسعى إلى الخلود في دار الدنيا ليتمتّع بلذائذها وبهارجها المختلفة؛ وبالتالي فهو يخشى كلّ ما من شأنه أن يفرّق بينه وبينها ويقلّل من ارتباطه بها. في هذه الحالة، يُصبح الموت عاملاً يبعّد بين الإنسان وبين آماله وتطلّعاته ولذّاته، ولا ريب في أنّه حينئذٍ يكتسب صورة مخيفة من وجهة نظر هذا الإنسان.

2. اعتبار الموت فناءً

قد يجهل الإنسان حقيقة الموت التي هي العبور من دار الفناء إلى دار البقاء، فيظنّ أنّه نهاية الوجود؛ لذا، يخاف منه باعتبار أنّه أمر مؤلم ومريع يأخذه إلى الظلمة والعدم.

3. الخوف من الأعمال

هذا العامل يختصّ بمن يؤمن بالمعاد أو لا أقلّ يحتمل وقوعه؛ فمثل هذا الإنسان يخشى من الموت لخلوّ سجلّه من الأعمال الصالحة في دار الدنيا ولتصوّر أنّه شخص مذنب؛ لأنّه يعلم أنّ الموت يعني نهاية المهلة التي أعطيت له وحلول وقت محاسبته. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العامل حينما ذكر أنّ اليهود لا يتمنّون الموت أبداً بسبب أعمالهم السيّئة، فقال: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

(1) سورة الجمعة، الآية 7.

ولمّا سُئل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: ما بالنا نكره الموت ولا نحبّه، فذكَرَ السبب الرئيس للخوف من الموت في سياق مثال لطيف، فقال: «**إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَّرْتُمْ دُنْيَاكُمْ، وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ**»[1].

* حالة الاحتضار

حقيقة الموت هي خروج الروح من الجسد، فيحلّ بالإنسان عند بلوغ الأجل وانقضاء مهلته في الحياة الدنيا، ويطلق على الفترة الزمنيّة التي تنفصل فيها روح الإنسان عن جسده «الاحتضار»، والحالة التي يمرّ بها الشخص «حالة الاحتضار»، والشخص الذي تنفصل روحه عن جسده «المحتضَر». ويبدو أنّ هذه التسمية جاءت نتيجة لحضور الملائكة أو حضور الأصدقاء والأقارب بين يدي المحتضَر.

* سكرات الموت

إنّ الموت من جهة يفرض على الشخص قطع ارتباطه بالأمور الدنيويّة كالأموال والأولاد، ومن جهة أخرى يضع الإنسان أمام وضع مجهول بالنسبة إليه، وهذا يُوجِد لديه حالة خاصّة عند الاحتضار. وبسبب التغيير الكبير والعميق الذي يطرأ على الإنسان بفعل هذه الحادثة، والشدّة والمشقّة الهائلة التي يعاني منها، يصاب بحالة شبيهة بالسكر والدوار، يعبّر عنها بـ«سكرات الموت»؛ لذا قالوا إنّ سكرة الموت هي الشدّة التي تغلب العقل وتُذْهل الإنسان[2]. وقال القرآن الكريم في هذا المضمار: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[3].

(1) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص389.

(2) انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415 - 1995م، لا.ط، ج26، ص206.

(3) سورة ق، الآية 19.

وفي هذا السياق، أكّد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على أنّ شدائد الموت تفوق تصوّر العقل البشريّ، وقال: «**إِنَّ لِلْمَوْتِ لَغَمَرَاتٍ هِيَ أَفْظَعُ مِنْ أَنْ تُسْتَغْرَقَ بِصِفَةٍ أَوْ تَعْتَدِلَ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الدُّنْيَا**»[1].

* مشاهدة ملك الموت وأولياء الله

إنّ لقبض الروح طريقة خاصّة، تختلف باختلاف الإنسان وكونه مؤمناً أو كافراً، مُتديّناً أو متهتّكاً، مذْنباً أو صالحاً.

تبدأ قصّة الموت بتكليف ملك الموت أو عزرائيل بالحضور عند المحتضَر بعد تلقّي الأوامر من الله -سبحانه وتعالى- لقبض روح الشخص، ويكون له عدد من الأعوان للقيام بهذه المهمّة، وعندئذ يرى الإنسان حين الموت ملك الموت أو أحد أعوانه؛ لكنّ شكل هذا الملك وكيفيّة أخذ روح الإنسان يختلفان باختلاف عقيدته وصحيفة أعماله.

وثمّة أهمّيّة كبرى لحضور النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام عند الاحتضار؛ حيث يُسهم هذا الحضور بتسكين قلب المؤمن واستبدال الطمأنينة والارتياح بخوفه فتبدو عليه علامات الفرح والسرور عند الانتقال إلى عالم آخر نتيجة بشائر أهل البيت عليهم السلام له. وعلى العكس من ذلك، يؤدّي هذا الحضور إلى صعوبة احتضار الكافرين والمنافقين، وتزداد عليهم المصائب وتتوالى الكوارث بإخبارهم بأنّهم مخلّدون في العذاب[2].

وذهب العلّامة المجلسيّ إلى تواتر الأحاديث حول حضور الأئمّة المعصومين عليهم السلام عند فراش المحتضَر؛ ولذا صرّح الإمام عليّ عليه السلام في أبيات معروفة لحارث الهمدانيّ أنّه يَحضُرُ كلّ ميت، قائلاً:

(1) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص341، الخطبة 221.
(2) انظر: المجلسي، حقّ اليقين، ص402.

يا حـارُ همدانَ مَـن يمتْ يرني مِــن مــؤمــنٍ أو مــنــافــقٍ قــبُــلاً

ثمّ إنّ ملك الموت مطيع لأهل البيت عليهم السلام تماماً، فلا يعدو أمرهم في طريقة قبض الأرواح؛ وعليه فقد أوصى الأئمّة المعصومون عليهم السلام بقبض أرواح المؤمنين بمنتهى الرفق[1].

* قبض الروح

بوسع ملك الموت قبض أرواح كثيرة من الناس في لحظة واحدة، وهذا الأمر يعود إلى سلطة عزرائيل في قبض الأرواح. من هنا، ورد في أحد الأحاديث أنّ النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله التقى ليلة المعراج بملك الموت، وسأله عن كيفيّة قبض أرواح أعداد كبيرة من الناس في آنٍ واحد، فردّ عليه قائلاً: «**مَا الدُّنْيَا كُلُّهَا عِنْدي -في مَا سَخَّرَهَا اللهُ لِي وَمَكَّنَنِي مِنْهَا- إِلَّا كَالدِّرْهَمِ فِي كَفِّ الرَّجُلِ، يُقَلِّبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ**».

ما يعني قدرته على أخذ أرواح أشخاص كثيرين في لحظات قصيرة. وتأكيداً على هذه القدرة وهذا التسلّط في عمله، أردف ملك الموت قائلاً: «**مَا مِنْ دَارٍ إِلَّا وَأَنَا أَتَصَفَّحُهَا كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ**»[2].

* الفرق بين موت المؤمن وموت الكافر

بناءً على ما ذكرنا، فإنّ روح المؤمن تُقبض بيسر ورفق، بينما تُقبض روح الكافر بشدّة وغلظة، ويمكن مشاهدة هذا التباين بوضوح في بعض الآيات والروايات؛ حيث أكّدت على أنّ الملائكة تتوفّى المؤمن بسلام مع التبشير بدخول الجنّة، في حين ينتظر الكافرَ موتٌ مصحوب بالألم والعذاب. قال -سبحانه وتعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

(1) انظر: المجلسيّ حقّ اليقين، ص404.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص5.
(3) سورة النحل، الآية 32.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[1].

وفي الروايات أيضاً، أشير إلى سهولة قبض روح المؤمن وصعوبة قبض روح الكافر: قيل للصادق عليه السلام: صفْ لنا الموت، قال: «**لِلْمُؤْمِنِ كَأَطْيَبِ رِيحٍ يَشَمُّهُ فَيَنْعُسُ لِطِيبِهِ، وَيَنْقَطِعُ التَّعَبُ وَالْأَلَمُ كُلُّهُ عَنْهُ، وَلِلْكَافِرِ كَلَسْعِ الْأَفَاعِي وَلَدْغِ الْعَقَارِبِ وَأَشَدَّ**»[2].

ويُستثنى من هذه القاعدة العامّة موارد منها المؤمن المرتكب للمعاصي والكافر الذي لديه أعمال صالحة؛ حيث يتحمّل هذا المؤمن صعوبة في انتزاع روحه من جسده بعنوان: آخر ألم يُصيبه؛ ليكون كفّارةً لأوزاره ومحوها وتصفيةً له من الذّنوب؛ بينما يواجه الكافرُ سهولة في نزع روحه بعنوان: آخر لذّة وراحة تلحقه في دار الدنيا؛ لتصفيته من الحسنات[3].

على أنّ ما أشرنا إليه في هذا الدرس ليس إلّا جانباً من أمور كثيرة تناولتها الآيات والروايات حول الظروف المحيطة بالموت، وما تأكيد الأنبياء الإلهيّين على الإحاطة بهذه الأمور إلّا لأجل تنبيههم إلى وعورة طريق الموت، وما يلاقونه فيه من صعوبات جمّة، ولزوم الاستعداد لتلك المرحلة. وقد شدّد الأئمّة الميامين عليهم السلام على أنّ استعداد الإنسان للموت حقّ الاستعداد أنفع له من الدواء المستخدَم للعلاج؛ لأنّه يؤدّي إلى أفضل النعيم أشدّ ممّا يستدعي العاقل الحازم الدواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات[4].

(1) سورة الأنفال، الآية 50.

(2) الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج1، ص274؛ وأيضاً انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص134؛ الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج1، ص135.

(3) انظر: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص289.

(4) انظر: المصدر نفسه، ص290.

المفاهيم الرئيسة

- تنتهي الحياة الدنيويّة للإنسان وتبتدئ حياته الأخرويّة بظاهرة الموت، وما إن يموت ابن آدم حتّى ينقطع عن الدنيا ويحلّ في أوّل منازل الآخرة، أي القبر.
- على الرغم من أنّ الأنبياء لطالما أكّدوا على أنّ غاية الإنسان هي الآخرة وأنّ الدنيا دار عبور ومرور، بيد أنّ غفلة الإنسان جعلته ينسى المقصود والغاية النهائيّة ويصرف جلّ همّه إلى الدنيا الفانية.
- الحبّ الشديد للدنيا يجعل الحياة المادّيّة هدفاً نهائيّاً وغايةً قصوى للإنسان، فنجده يسعى إلى الخلود في دار الدنيا ليتمتّع بلذائذها وبهارجها المختلفة؛ وبالتالي فهو يخشى كلّ ما من شأنه أن يفرّق بينه وبينها ويقلّل من ارتباطه بها.
- يطلق على الفترة الزمنيّة التي تنفصل فيها روح الإنسان عن جسده «الاحتضار»، والحالة التي يمرّ بها الشخص «حالة الاحتضار»، والشخص الذي تنفصل روحه عن جسده «المحتضَر».
- بسبب التغيير الكبير الذي يطرأ على الإنسان حين الاحتضار، والشدّة والمشقّة الهائلة التي يعاني منها، يصاب بحالة شبيهة بالسكر والدوار، يعبّر عنها بـ«سكرات الموت».
- تبدأ قصّة الموت بتكليف ملك الموت أو عزرائيل بالحضور عند المحتضَر بعد تلقّي الأوامر من الله -سبحانه وتعالى- لقبض روح الشخص، ويكون له عدد من الأعوان للقيام بهذه المهمّة.
- ثمّة أهمّيّة كبرى لحضور النبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام عند الاحتضار؛ حيث يسهم هذا الحضور بتسكين قلب المؤمن واستبدال الطمأنينة والارتياح بخوفه.

الأسئلة

1. اشرح حقيقة الموت، وبيّن ما معنى الاحتضار؟ ولماذا سُمّي بهذا الاسم؟
2. لماذا يخاف الإنسان من الموت؟
3. ما المُراد من سكرات الموت؟ ولماذا سُمّيت بهذا الاسم؟
4. اشرح أحوال المؤمن عند الاحتضار وما يمرّ به بعد الموت.

الدرس الخامس والثلاثون

القبر وعالم البرزخ

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يبيّن حقيقة البرزخ في الآيات الكريمة والروايات الشريفة.
2. يعرف ضغطة القبر التي تصيب المؤمنين، وعذاب القبر الذي يصيب الكافرين.
3. يذكر العوامل المانعة من ضغطة القبر وعذابه.

* تمهيد

تحدّثنا في الدرس السابق عن أحوال الإنسان عند الموت. وفي هذا الدرس، سنتعرّف إلى أحواله وأوضاعه في المراحل الواقعة بين الموت والقيامة، وهو ما يسمّى بـ«عالم البرزخ»، وسنركّز فيه على أبحاث أساسيّة تشمل الأبعاد الزمانيّة والمكانيّة للبرزخ وما يواجهه الإنسان في هذه المسيرة.

* ماهيّة البرزخ

يطلق البرزخ في اللغة على الحدّ والحاجز بين الشيئين[1]. وأمّا في اصطلاح علم الكلام، فالبرزخ يعني ما بين الموت والبعث[2]، ويسمّون الحوادث التي تقع خلال هذه المدّة باسم «أحوال عالم البرزخ». وعليه، تستقرّ روح الإنسان بعد الموت في عالم خاصّ هو عالم البرزخ، وتواصل البقاء فيه حتّى شروع يوم القيامة. ومنه يستفاد أنّ البرزخ يطلق على ذلك الزّمان الخاصّ والمكان الخاصّ الذي يقضي فيه الإنسان فترة ما بعد الموت إلى القيامة.

---

(1) انظر: الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، لا.م، 1404هـ ط2، ص118.

(2) انظر: دغيم، سميح، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلاميّ، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان - بيروت، 1998م، ط1، ج1، ص280.

وبما أنّ ثمّة أدلّة وشواهد كثيرة تفيد بقاء روح الإنسان بعد الموت، ومن البديهيّ أنّ القيامة لم تقم بعد؛ بل إنّها تتحقّق في المستقبل طبقاً لظروف معيّنة، وفيها يتحدّد المصير النهائيّ للإنسان، فلا بدّ حينئذٍ من وجود عالم خاصّ للأرواح تبقى فيه بعد الموت حتّى يوم القيامة.

* البرزخ في القرآن والأحاديث

أثبت القرآن الكريم وجود عالم باسم «عالم البرزخ»، وأشار إلى وجود برزخ للمؤمنين والكفّار أيضاً؛ فشدّد على أنّ الذين يُقتلون في سبيل الله أحياء يتمتّعون بالنعم الإلهيّة، وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

وردّ على الكفّار الذين يطلبون الرجوع إلى الدنيا بعد الممات بعدم إمكان ذلك، مؤكّداً على لزوم بقائهم في البرزخ حتّى يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

وأعرب الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام عن خوفه على الشيعة من البرزخ بعدما طمأنهم بدخول الجنّة: «... **لَكِنِّي وَالله أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ فِي الْبَرْزَخِ**. قُلْتُ: وَمَا الْبَرْزَخُ قَالَ: **الْقَبْرُ مُنْذُ حِينِ مَوْتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[3].

وعلى هذا الأساس، فمن المسلّم به وجود عالم بعد الموت حتّى يوم القيامة، وحيث إنّ الكفّار حينما يرون هذا العالم يسألون الله الرجوع إلى الدنيا، وإنّ الشهداء تغمرهم النِّعم الإلهيّة في هذا العالم، يتّضح أنّ منزلة الإنسان في البرزخ

(1) سورة آل عمران، الآية 169.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان 99 - 100.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص242.

رهن بعقيدته وأعماله في الحياة الدنيا وتختلف باختلافها؛ وهذا ما دعا إلى الحديث عن جنّة برزخيّة وجهنّم برزخيّة، تختلفانِ عن الجنّة والنار في عالم الآخرة.

من هنا، ذكر الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام في تفسيره لقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] أنّ البرزخ هو القبر، مشدّداً على أنّه روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران: «**قَالَ: هُوَ الْقَبْرُ، وَإِنَّ لَهُمْ فيه لَمَعِيشَةً ضَنْكاً، والله! إِنَّ الْقَبْرَ لَرَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النار**»[2].

❋ محلّ البرزخ ومدّته

في ضوء قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أكّدت روايات كثيرة على أنّ البرزخ يبتدئ بالموت ويستمرّ حتّى شروع القيامة. وعليه، فنهاية البرزخ واحدة لجميع الناس، لكنّ بدايته تختلف باختلاف زمن وفاتهم، فمنهم من مات قبل آلاف السنين، ومنهم من لم يُخلق بعد وسوف يُخلق ويموت في المستقبل، وهكذا ابتدأ البرزخ من آلاف السنين ويستمرّ إلى يوم القيامة.

وفي ما يتعلّق بمحلّ البرزخ، فقد ورد في بعض الروايات أنّ أرواح المؤمنين تجتمع في وادي السلام وأرواح الكافرين في وادي برهوت[3].

❋ القبر أوّل مراحل عالم البرزخ

يعدّ القبر الذي يدخله الإنسان بعد خروجه من الدنيا، أُولى مراحل البرزخ وأوّل منزل من منازل الآخرة أيضاً[4]. وفي هذا السياق، أكّد النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله على أنّ

(1) سورة المؤمنون، الآية 100.

(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج1، ص119.

(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص261.

(4) هذا يعني أنّ الآخرة هي مراحل ما بعد الموت التي تبتدئ بالبرزخ حتّى تصل إلى القيامة ومراحلها، وتنتهي مسيرتها بالخلود في الجنّة أو النار.

القبر أوّل منازل الآخرة وأشدّها على الإنسان؛ فقال: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْه**»[1].

وفي ضوء هذه الطائفة من الأحاديث، يحظى القبر بأهمّيّة كبيرة، بحيث تتوقّف عليه طبيعة المراحل اللّاحقة؛ فإن استطاع الإنسان النجاة من حساب القبر واجتياز هذه المرحلة بنجاح، تَهُنْ عليه المراحل التالية في عالم الآخرة، ومن الممكن أن يحدوه الأمل في عبورها بسلام؛ وإن فشل في تجاوز الحساب في القبر بنجاح، فَسَتَكُنْ أمامه مراحل أشدّ وطأةً. وعليه، لا بدّ من مشاهدة ما الذي يجري في القبر وكيف تمرّ هذه المرحلة الخطيرة من مراحل عالم الآخرة على الإنسان؟

1. السّؤال والجواب في القبر

من أهمِّ الحوادث التي تقع في القبر هي أسئلة القبر؛ حيث يترتّب عليها حوادث أخرى من سلسلة حوادث القبر والبرزخ. من هنا، يحظى سؤال القبر بأهمّيّة فائقة، ويجب أن نطَّلع على ما يُسأل الإنسان هناك؟ ومَن السائل؟ ومَن المخاطَب بالأسئلة؟ وأين يقع هذا السؤال والجواب؟

تحدّثت الروايات الإسلاميّة عن موضوع سؤال القبر، وأفادت أنّ من يقوم بعمليّة السؤال هناك هما ملكان أحدهما يُسمى «منكر» والآخر يُسمى «نكير»، وفي بعض الروايات «ناكر» و«نكير». يدخل أحدهما من الجانب الأيمن للقبر ويدخل الآخر من الجانب الأيسر ليقوما بالمهمّة الموكلة إليهما. وقد صوّر النبيّ الأكرم ﷺ هذه الواقعة بالشكل الآتي: «**إِنَّ مَلَكَيْنِ لله -سبحانه وتعالى- يُقَالُ لَهُمَا: نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ، يَنْزِلَانِ عَلَى الْمَيِّتِ فَيَسْأَلَانِه عَنْ رَبِّه وَنَبِيِّه وَدِينِه وَإِمَامِه، فَإِنْ أَجَابَ بِالْحَقِّ سَلَّمُوهُ إِلَى مَلَائِكَةِ النَّعِيمِ، وَإِنِ ارْتَجَّ عَلَيْهِ سَلَّمُوهُ إِلَى مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ**»[2].

(1) النيسابوري، الشيخ محمد بن الفتال، روضة الواعظين، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، لا.ت، لا.ط، ج2، ص494.

(2) قطب الدين الراوندي، الدعوات، مصدر سابق، ص280؛ أيضاً انظر: الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص498.

وذكر الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام تفاصيل أوفى عن أسئلة القبر، قائلاً: «**وَكَأَنْ قَدْ أَوْفَيْتَ أَجَلَكَ، وَقَبَضَ الْمَلَكُ رُوحَكَ، وَصِرْتَ إِلَى قَبْرِكَ وَحِيداً، فَرَدَّ إِلَيْكَ فِيهِ رُوحَكَ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْكَ فِيهِ مَلَكَانِ -نَاكِرٌ وَنَكِيرٌ- لِمُسَاءَلَتِكَ وَشَدِيدِ امْتِحَانِكَ. أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ مَا يَسْأَلَانِكَ عَنْ رَبِّكَ الَّذِي كُنْتَ تَعْبُدُهُ، وَعَنْ نَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكَ، وَعَنْ دِينِكَ الَّذِي كُنْتَ تَدِينُ بِهِ، وَعَنْ كِتَابِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتْلُوهُ، وَعَنْ إِمَامِكَ الَّذِي كُنْتَ تَتَوَلَّاهُ، ثُمَّ عَنْ عُمُرِكَ فِيمَا كُنْتَ أَفْنَيْتَهُ؟ وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبْتَهُ؟ وَفِيمَا أَنْتَ أَنْفَقْتَهُ**»[1].

والآن لا بدّ من أن نرى، هل المخاطَب في هذه الأسئلة هو روح الإنسان أم الروح والبدن معاً؟ قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام في هذا الخصوص: «**فَإِذَا دَخَلَ حُفْرَتَهُ رُدَّتِ الرُّوحُ فِي جَسَدِهِ وَجَاءَهُ مَلَكَا الْقَبْرِ فَامْتَحَنَاهُ**»[2].

وعلى هذا الأساس، فالمسؤول هو الروح، بعدما تُعاد إلى البدن في القبر[3]. وذهبت بعض الروايات إلى بيان تفاصيل دقيقة حول عودة الروح إلى البدن، مؤكّدة على أنّها لا تُعاد إلى تمام البدن ليستعيد حياةً كحياته الدنيويّة؛ بل إنّ تعلّق الروح بالبدن يكون بقدر فهم الأسئلة المُلقاة إلى الإنسان والردّ عليها فقط[4].

النقطة الأخرى التي أُشيرَ لها في الروايات، هي أنّ الأعمال الصالحة والصفات الحسنة للمؤمن، تقف إلى جانب الإنسان وتساعده عند سؤال القبر. قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام في هذا المجال: «**إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ قَبْرَهُ كَانَتِ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ وَالزَّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ وَالْبِرُّ يُطِلُّ عَلَيْهِ، وَيَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً، وَإِذَا**

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص72؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص223.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص234؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص259.
(3) من الواضح أنّ رجوع الروح إلى البدن في القبر يختصّ بمن يُدفن تحت التراب، وأمّا من تكون أجسادهم في موضع آخر أو تتلاشى فتتحقّق لهم هذه الحالة في ظروف مغايرة.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص239؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص264.

دَخَلَ عَلَيْه الْمَلَكَان اللَّذَان يَلِيَان مُسَاءَلَتَهُ قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ: دُونَكُمَا صَاحِبَكُمْ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْهُ فَأَنَا دُونَهُ»[1].

باختصار، يمكن القول: إنّ أسئلة القبر نوع من الحساب في القبر لكشف حالة الإنسان في عالم البرزخ. وهذا الحساب ناشئ من أعمال الإنسان ومعتقداته في دار الدنيا؛ فإن كانت اعتقاداته غير صحيحة كان عليه تحمّل العذاب الدائم في القبر والبرزخ، وإن استطاع الخروج من دائرة الأسئلة العقديّة مرفوع الرأس، وكانت أعماله مخالفة لمعتقداته، يعذَّب في القبر عذاباً مؤقّتاً لتطهيره من الرذائل.

ويُستفاد من مجموع الأدلّة الروائيّة أنّ الحساب في القبر لأجل عالم البرزخ، ولا يحاسَب الإنسان فيه إلّا على أصول العقائد والأعمال، وأمّا في القيامة فيحاسَب على جميع التفاصيل الفكريّة والسلوكيّة.

2. ضَغْطَةُ القبر وعذابه

بعد سؤال القبر ومعرفة المؤمن من الكافر والمحسن من المسيء، تبدأ مرحلة عذاب القبر للكافرين وضغطة القبر للمؤمنين المذنبين[2].

وما ذُكر تحت عنوان «ضغطة القبر» يعدّ من أشدّ أنواع العذاب الإلهيّ في عالم البرزخ، وقلّما يفلت منها أحد؛ ولذا استعاذ منها الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام وأخبر عن قلّة الناجين منها، فروي: عَنْ أَبِي بَصِير، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْد الله عليه السلام: أَيُفْلتُ مِنْ ضَغْطَة الْقبْرِ أَحَدٌ؟قَالَ: فَقَالَ: «**نَعُوذُ بِالله مِنْهَا، مَا أَقَلَّ مَنْ يُفْلتُ مِنْ ضَغْطَة الْقبْرِ**»[3].

ويُستفاد من الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ هذه الضغطة لا تختصّ بالقبر فحسب؛ بل إنّ الإنسان يتعرّض في هذه المرحلة إلى ضغط شديد؛ ولذا ذكروا أنّ الضغطة تشمل حتّى من لا يُدفن في الأرض أيضاً:

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص240؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص265.
(2) انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص233.
(3) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص236.

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المصلوب، يصيبه عذاب القبر؟ فقال: «**إِنَّ رَبَّ الْأَرْضِ هُوَ رَبُّ الْهَوَاءِ، فَيُوحِي الله (عَزَّ وَجَلَّ) إِلَى الْهَوَاءِ فَيَضْغَطُهُ ضَغْطَةً أَشَدَّ مِنْ ضَغْطَةِ الْقَبْرِ**»[1].

3. العوامل المانعة من ضغطة القبر وعذاب القبر

انطلاقاً من هذا الخطر الذي يهدّد الإنسان بعد الموت، من اللّازم معرفة العوامل التي تحول دون ضغطة القبر وعذاب القبر؛ ليتسنّى العمل على جعل القبر مليئاً بالنور والسرور بدلاً من الضيق والعذاب الأليم.

أشير في الروايات بشكل تفصيليّ إلى العوامل المؤدّية إلى ضغطة القبر وعذاب القبر والأمور التي تحول دون ذلك؛ ما يجعل الإنسان قادراً على تخليص نفسه وإنقاذها من هذا العذاب الأليم.

وقد شدّدت الروايات على أنّ عذاب القبر ناجم عن المعرفة غير الصحيحة بالعقائد الدينيّة؛ ومن هنا اعتبر الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام الجواب الصحيح عن نعمة الإمامة سبباً للنجاة من عذاب القبر، فقال ردّاً على من سأله «عمّ يُسأل أهل القبور؟»: «**عَنِ الْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، فَيُقَالُ لِلْمُؤْمِنِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ فَيَقُولُ: ذَاكَ إِمَامِي. فَيُقَالُ: نَمْ أَنَامَ اللَّهُ عَيْنَكَ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، فَمَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ رَوْحِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ: مَا تَقُولُ فِي فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ سَمِعْتُ بِهِ وَمَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ. قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ فَلَا يَزَالُ يُتْحِفُهُ مِنْ حَرِّهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2].

وكما أنّ العقيدة غير الصحيحة توجب لصاحبها عذاب النار، كذلك الأخلاق الذميمة والأعمال القبيحة كسوء الخلق وتضييع النعم، وورد أيضاً أنّ النميمة وعدم التحرّز من البول يُوجبان عذاب القبر[3].

(1) الشيخ الكلينيّ، الكافي، ج3، ص241؛ الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج1، ص192.
(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص238؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص262.
(3) انظر: الشيخ الصدوق، علل الشرائع، مصدر سابق، ج1، ص309؛ الحرّ العامليّ، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج1، ص339.

وحيث إنّ الله (جلّ وعلا) يتعامل مع عباده المؤمنين بلطف ورحمة، لفت إلى أمور لو قام بها العبد لجنّبته ضغطة القبر ولأبعدت عنه عذابه، منها: الدوام على تلاوة سورة النساء في كلّ جمعة، وتلاوة سورة الملك، وقراءة آية الكرسيّ، مضافاً إلى صيام أربعة أيّام من شهر رجب، وملازمة الوضوء، والركوع الكامل في الصلاة، كما ورد أنّ موت المؤمن يوم الجمعة يرفع عنه ضغطة القبر[1]. ومن العوامل الأخرى التي تدفع عن المؤمن ضغطة القبر، حجّ بيت الله الحرام[2].

❋ ارتباط أهل البرزخ بالدنيا

تفيد بعض الآيات والروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ أهل البرزخ أحياء ويرون ما يجري على أهلهم، وتؤكّد على ارتباطهم بالدنيا، على أنّ مقدار ارتباطهم رهن بعقيدة الشخص وأعماله ومنزلته هناك؛ ومن هذه الروايات نورد الرواية الآتية:

عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: سألته عن الميّت يزور أهله، قال: «**نعم**»، فقلت: في كم يزور؟ قال: «**فِي الْجُمْعَةِ وَفِي الشَّهْرِ وَفِي السَّنَةِ عَلَى قَدْرِ مَنْزِلَتِهِ**».

كما أفادت الروايات أنّ المؤمن يزور أهله، فيرى ما يحبّ ويُستر عنه ما يكره، وأنّ الكافر يزور أهله كذلك، فيرى ما يكره ويُستر عنه ما يحبّ[3].

ويُستفاد من روايات أخرى أنّ أهل النار لا يتمتّعون بمطلق الحرّيَّة التي تمكّنهم من الاطِّلاع على كلّ ما يجري في الدنيا، فمعلوماتهم محدودة بما يأذن به الله -سبحانه وتعالى-. من هنا، عندما تلتحق روح جديدة بالأرواح الموجودة

(1) لمزيد من المطالعة في خصوص العوامل التي ترفع ضغطة القبر، انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، الباب 8 أحوال البرزخ والقبر وعذابه.

(2) «من حجَّ أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً»، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، مصدر سابق، ج2، ص217؛ الصدوق، مصدر سابق، الخصال، ج1، ص215.

(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص230؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، ص256.

في البرزخ تجتمع تلك الأرواح حولها وتسألها عن الأصدقاء، ماتوا أو لا زالوا أحياء؟: «**فَإِذَا قَدمَتِ الرُّوحُ عَلَى الْأَرْوَاحِ يَقُولُ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ هَوْلٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ يَسْأَلُونَهَا: مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَمَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ: تَرَكْتُهُ حَيًّا ارْتَجَوْهُ، وَإِنْ قَالَتْ لَهُمْ: قَدْ هَلَكَ، قَالُوا: قَدْ هَوَى هَوى**»[1].

* الرجوع من البرزخ إلى الدنيا

ذكرنا أنّه لما يحين موت الكفّار لا يقبل منهم الله -سبحانه وتعالى- المطالبة بالرجوع إلى الحياة الدنيا، ويُؤمرون بالبقاء في البرزخ إلى يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[2].

لكن توجد آيات أخرى أخبرت بإحياء الموتى، وهي تشتمل على الموارد الآتية:

أ. الآيات التي أشارت إلى إحياء الموتى لإثبات المعاد عبر مثال حسّيّ.

ب. الآيات التي أنبأت عن معجزة النبيّ عيسى عليه السلام في إحياء الموتى.

ولا اختلاف بين هاتين الطائفتين من الآيات؛ ذلك أنّ إحياء بعض الموتى في هذه الدنيا ليس لأجل إعطائهم فرصة ثانية لتلافي أخطائهم وإصلاح أعمالهم؛ بل هو أمر استثنائيّ لإثبات المعاد أو للإتيان بمعجزة.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص244.

(2) سورة المؤمنون، الآيتان 99 - 100.

المفاهيم الرئيسة

- تستقرّ روح الإنسان بعد الموت في عالم خاصّ هو عالم البرزخ، وتواصل البقاء فيه حتّى شروع يوم القيامة.
- إنّ منزلة الإنسان في البرزخ رهن بعقيدته وأعماله في الحياة الدنيا وتختلف باختلافها؛ وهذا ما دعا إلى الحديث عن جنّة برزخيّة وجهنّم برزخيّة، تختلفانِ عن الجنّة والنار في عالم الآخرة.
- يبتدئ البرزخ بالموت ويستمرّ حتّى شروع القيامة. وعليه، فنهايته واحدة لجميع الناس، لكنّ بدايته تختلف باختلاف زمن وفاتهم، فمنهم من مات قبل آلاف السنين ومنهم من لم يُخلق بعد وسوف يُخلق ويموت في المستقبل، وهكذا ابتدأ البرزخ من آلاف السنين ويستمرّ إلى يوم القيامة.
- يعدّ القبر الذي يدخله الإنسان بعد خروجه من الدنيا، أُولى مراحل البرزخ وأوّل منزل من منازل الآخرة أيضاً.
- من أهمِّ الحوادث التي تقع في القبر هي أسئلة القبر؛ حيث يترتّب عليها حوادث أخرى من سلسلة حوادث القبر والبرزخ.
- إنّ الأعمال الصالحة والصفات الحسنة للمؤمن تقف إلى جانب الإنسان وتساعده عند سؤال القبر.
- ما ذُكر تحت عنوان «ضغطة القبر» يعدّ من أشدّ أنواع العذاب الإلهيّ في عالم البرزخ، وقلّما يفلت منها أحد.
- انطلاقاً من هذا الخطر الذي يهدّد الإنسان بعد الموت، من اللّازم معرفة العوامل التي تحول دون ضغطة القبر وعذاب القبر؛ ليتسنّى العمل على جعل القبر مليئاً بالنور والسرور بدلاً من الضيق والعذاب الأليم.

الأسئلة

1. أين يتمّ الحساب في عالم البرزخ؟ وما هي خصوصيّاته؟
2. ما الفرق بين الحساب في البرزخ والحساب يوم القيامة؟
3. من يُعذَّب بضغطة القبر؟ وكيف يكون ذلك؟ وكيف يمكن التخلّص منه؟
4. ما هي طبيعة ارتباط الموتى بعالم الدنيا؟ اذكر بعض الأمثلة الخاصّة على الرجوع إلى الدنيا بعد الموت من القرآن الكريم.

الدرس السادس والثلاثون

الأحوال العامّة للقيامة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يقرأ أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم.
2. يحفظ الآيات المشيرة إلى أسماء يوم القيامة.
3. يذكر أبرز علامات يوم القيامة.

* تمهيد

بحثنا في الدروس السابقة بعض منازل الآخرة، وذكرنا أنّ مرحلة البرزخ، تُطوَى بحلول يوم القيامة. وفي هذا الدرس، سنحاول وصف هذه الواقعة الكبرى من زاوية أسمائها، ثمّ نبحث علامات يوم القيامة.

صحيح أنّ زمان وقوع يوم القيامة والساعة التي تقع فيها لا يعلمها إلّا الله -سبحانه وتعالى-[1]، وأنّ هذه الحادثة العظيمة تقع بغتةً[2]، لكن ذُكرت علامات لا بدّ من توافرها قبل وقوعها. وقبل كلّ شيءٍ ينبغي الاطِّلاع على جوانب من حقيقة القيامة عن طريق الأسماء المذكورة لها في القرآن الكريم.

* أسماء القيامة

يشهد الكون قبل يوم القيامة سلسلة من الحوادث والتغييرات العظيمة في شتّى أرجاء المعمورة، وذلك ضمن أبعاد مختلفة ومتناسبة مع الحوادث التي تقع يوم القيامة وتسمّى بتسمية خاصّة.

---

(1) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، الآية 187). انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص45.

(2) ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾، سورة محمّد، الآية 18. انظر: القمّيّ، القميّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص303.

لقد ذُكر للقيامة ما يقرب من ثمانين اسماً في القرآن الكريم، كلّ واحد منها يكشف عن جانب من هذه الواقعة العظيمة، لكنّ الاسم الأكثر شهرةً واستعمالاً للإشارة إلى هذا اليوم هو «يوم القيامة»[1]؛ حيث ورد في القرآن حدود سبعين مرّة، وهو بمعنى اليوم الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين[2]. كما أطلق عليها في مواضع متعدّدة أيضاً «اليوم الآخر»[3] بمعنى المرحلة النهائيّة، و«يوم الدِّين»[4]بمعنى يوم الجزاء. وكذلك الأسماء الأخرى لهذا اليوم كلّ واحد منها يشير إلى حادثة من الحوادث التي تقع فيها؛ فمثلاً أطلق عليها «يوم الحساب»[5] لوقوع حساب الناس في هذا اليوم، و«يوم الفصل»[6]؛ لأنّها تفصل بين المحسنين والمسيئين، و«يوم الجمع»[7] لاجتماع الناس كلّهم فيها، وكذلك سُمّيت «يوم الحسرة»[8] و«يوم التغابن»[9] لشعور الناس بالحسرة والغبن في ذلك اليوم، و«يوم الخلود»[10] لكون الإنسان يحيا فيها حياةً أبديّةً ودون موت. وبعض التعابير حول يوم القيامة تكشف عن حدوث تغييرات في السماوات والأرض، مثل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[11]، وبعض الآيات القرآنيّة تبيّن حالة الإنسان يوم القيامة، نحو: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[12]، التي تنبئ عن انكشاف الأمور الخفيّة، وكذلك قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ

(1) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، سورة المؤمنون، الآية 16.
(2) انظر: سورة المطفّفين، الآية 6.
(3) انظر: سورة البقرة، الآية 8.
(4) انظر: سورة الفاتحة، الآية 4.
(5) انظر: سورة ص، الآية 16.
(6) انظر: سورة الصافّات، الآية 21.
(7) انظر: سورة الشورى، الآية 7.
(8) انظر: سورة مريم، الآية 39.
(9) انظر: سورة التغابن، الآية 9.
(10) سورة ق، الآية 34.
(11) سورة إبراهيم، الآية 48.
(12) سورة الطارق، الآية 9.

﴿مِنْ أَخِيهِ﴾[1]، الذي يعبّر عن حالة الإنسان في التفكير بنفسه فقط في ذلك اليوم العصيب. ومن الأسماء الأخرى ليوم القيامة في القرآن الكريم، يمكن الإشارة إلى «يوم عظيم»[2]، و«يوم كبير»[3]، و«يوم أليم»[4]، و«يوم محيط»[5]، والتي تحمل في طيّاتها عظمة ذلك اليوم وشدّته.

ومن الأسماء الأخرى التي ذُكرت في القرآن الكريم للقيامة «يوم الحقّ»[6]، بمعنى أنّ هذا اليوم متحقّق لا محالة، وبعض الأسماء الأخرى تعبّر عن وقوعه قطعاً، وذلك من قبيل ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾[7]، و﴿يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[8].

ثمّ إنّ هذا اليوم ممّا وعد به الله (عزَّ وجلَّ)، وهو الذي لا يُخلف الميعاد[9]. وفي الآية التالية بيّن الله -سبحانه وتعالى- أنّ يوم القيامة لا ريب فيه، وذكر أنّه أصدق الناطقين، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[10].

وفي هذا السياق، سمّيت إحدى السور القرآنيّة -سورة الحاقّة- للتأكيد على وقوع يوم القيامة، وأنّ وقوع مثل هذه الحادثة العظيمة خارج عن إدراك البشر، مذكّرةً بمصير الأقوام الذين كذّبوا بهذا اليوم، ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾[11].

---

(1) سورة عبس، الآية 34.
(2) انظر: سورة الأنعام، الآية 15.
(3) انظر: سور هود، الآية 3.
(4) انظر: سورة هود، الآية 26.
(5) انظر: سورة هود، الآية 84.
(6) انظر: سورة النبأ، الآية 39.
(7) سورة آل عمران، الآية 9.
(8) سورة الروم، الآية 43.
(9) انظر: سورة آل عمران، الآية 9.
(10) سورة النساء، الآية 87.
(11) سورة الحاقّة، الآيات 1 - 6.

* علامات يوم القيامة

ذُكرَت علامات يوم القيامة في المصادر الدينيّة تحت عنوان «أشراط الساعة»، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى بعض تلك العلامات، مثل خروج دابّة من الأرض، وانطلاق دخان من السماء وخروج يأجوج ومأجوج:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَـٰخِصَةٌ أَبْصَـٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا بَلْ كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾[3].

وذُكِرَت تفاصيل أكثر لهذه العلامات في الروايات، يمكن تقسيمها عموماً إلى طائفتين رئيسيَّتين: العلائم التي تقع في السماوات والأرض ويُعلَن فيها عن خروج أشخاص معيّنين، وعلائم هي صفات تظهر في أعمال الناس وسلوكاتهم.

ومن علائم الطائفة الأولى يمكن الإشارة إلى: طلوع الشمس من المغرب، وخسف الأرض في المشرق وآخر في المغرب وثالث في جزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر، والدجّال ودابّة الأرض، وخروج يأجوج ومأجوج[4].

(1) سورة النمل، الآية 82.

(2) سورة الدخان، الآيتان 10 - 11.

(3) سورة الأنبياء، الآيتان 96 - 97.

(4) انظر: الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص431؛ ولمزيد من المصادر في هذا المجال، انظر: المجلسيّ، بحار الأنوار، ج6، باب أشراط الساعة.

إنّ الدجّال رجل خدّاع، أو رجال خدّاعون ينشطون في آخر الزّمان من أجل إضلال الناس عن أصل التوحيد والحقّ والعدالة، وسيقضي عليهم المهديُّ عجل الله فرجه الشريف بقدرته العظيمة[1].

أمّا دابّة الأرض فهي إنسان متحرّك وفعّال، ومن ضمن أفعاله الأصليّة تمييز المؤمنين من المنافقين ووسمهم. ويُستفاد من بعض الروايات أنّ معه عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان عليه السلام، ونحن نعرف أنّ عصا موسى رمز للقدرة والإعجاز، وخاتم سليمان رمز للحكومة والسلطة الإلهيّة!؛ فإذاً هذا الإنسان رجل قويّ ذو سلطة وهيمنة. وقد طُبّق هذا المفهوم في روايات كثيرة على «أمير المؤمنين»؛ حيث رُوي أنّه إذا كان آخر الزمان أخرجه الله في أحسن صورة ومعه ميسم يسم به أعداءه[2].

والمراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذي سيغطّي السماء في نهاية العالم، وعلى أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، وبداية عذاب إلهيّ أليم للظالمين والمفسدين[3].

وحول يأجوج ومأجوج تؤيّد الآيات القرآنيّة بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيّتين كانتا تؤذيان سكان المناطق المحيطة بهم، فهم مجموعة أو مجاميع كبيرة كانت تقطن أقصى نقطة في شمال آسيا، وهم أناس محاربون يُغِيْرُون على الأماكن القريبة منهم[4]. وتوقّفت اعتداءاتهم على الناس بعدما أقام لهم ذو القرنين سدّاً؛ لكنّ وجودَهم في الأرض مرّة أخرى دليل على قرب يوم القيامة.

(1) الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج16، ص325.
(2) انظر: المصدر نفسه، ج12، ص138.
(3) انظر: المصدر نفسه، ج16، ص130-131.
(4) انظر: المصدر نفسه، ج9، ص371-372.

ومن علامات الطائفة الثانية التي تبرز في أعمال الناس على أعتاب يوم القيامة: إضاعة الصلوات، واتّباع الشهوات، والميل إلى الأهواء، وتعظيم أصحاب المال، وبيع الدين بالدنيا، وتشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وكثرة الطلاق، ويلي أمر الناس أمراء جَوَرَة، ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة... إلخ[1].

ويُستفاد من ذلك أنّ بعض هذه العلامات مشتركة مع علائم ظهور الإمام صاحب العصر والزّمان عجل الله فرجه الشريف، ويمكن القول: إنّ ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف والأحداث المتعلّقة بالرجعة وعصر حكومة أهل البيت عليهم السلام تُعدّ من مقدّمات يوم القيامة. وربّما يمكن القول: إنّ بعض هذه العلامات تقع قبل ظهور الإمام عجل الله فرجه الشريف، ثمّ تزول بعد ظهوره، وتبقى دولة الحقّ حتّى يوم القيامة. وحيث إنّ الظهور نفسه يحدث قرب يوم القيامة، اعتُبِرت هذه الطائفة من العلائم -هي نفسها- من علائم القيامة أيضاً.

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص303؛ وللمزيد انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج6، باب أشراط الساعة.

المفاهيم الرئيسة

- يشهد الكون قبل يوم القيامة سلسلة من الحوادث والتغييرات العظيمة في شتّى أرجاء المعمورة، وذلك ضمن أبعاد مختلفة ومتناسبة مع الحوادث التي تقع يوم القيامة وتسمّى بتسمية خاصّة.
- لقد ذُكر للقيامة ما يقرب من ثمانين اسماً في القرآن الكريم، كلّ واحد منها يكشف عن جانب من هذه الواقعة العظيمة.
- سمّيت إحدى السور القرآنيّة -سورة الحاقّة- للتأكيد على وقوع يوم القيامة، وأنّ وقوع مثل هذه الحادثة العظيمة خارج عن إدراك البشر، مذكّرةً بمصير الأقوام الذين كذّبوا بهذا اليوم.
- ذُكرت تفاصيل أكثر لهذه العلامات في الروايات، يمكن تقسيمها عموماً إلى طائفتين رئيسيَّتين: العلائم التي تقع في السماوات والأرض، ويُعلَن فيها عن خروج أشخاص معيّنين، وعلائم هي صفات تظهر في أعمال الناس وسلوكاتهم.
- ذُكرت علامات يوم القيامة في المصادر الدينيّة تحت عنوان «أشراط الساعة»، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى بعض تلك العلامات، مثل خروج دابّة من الأرض وانطلاق دخان من السماء وخروج يأجوج ومأجوج.
- إنّ بعض هذه العلامات تقع قبل ظهور الإمام عجل الله فرجه الشريف، ثمّ تزول بعد ظهوره، وتبقى دولة الحقّ حتّى يوم القيامة. وحيث إنّ الظهور نفسه يحدث قرب يوم القيامة، اعتُبِرت هذه الطائفة من العلائم -هي نفسها- من علائم القيامة أيضاً.

الأسئلة

1. رتّب أسماء القيامة من حيث المضمون، وبيّن ما تنطوي عليه من أبعاد حول حقيقة القيامة.

2. أثبت حتميّة يوم القيامة اعتماداً على الآيات القرآنيّة الشريفة.

3. ما معنى أشراط الساعة؟ ائتِ بشواهد من القرآن والسنّة لأقسامها والأمثلة عليها.

الدرس السابع والثلاثون

مواقف القيامة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف الحوادث التي تقع قبل يوم القيامة.
2. يشرح المنازل التي تحصل يوم القيامة.
3. يتعرّف إلى مواقف الحشر والجمع وفتح سجلّ الأعمال.

* تمهيد

تناولنا بعض البحوث التمهيديّة بشأن القيامة في الدروس السابقة، وبعد إثبات حتميّة القيامة أُشيرَ إلى أشراط الساعة والعلائم التي تقع قبلها بقليل، واتّضح أنّه يمكن التعرّف على كثير من أوصاف القيامة من خلال أسمائها الواردة في القرآن الكريم. وفي هذا الدرس، سنبحث المراحل والمواقف الأولى ليوم القيامة.

والمقصود بالمواقف أو المراحل مجموعة من الأحداث والوقائع التي تواجه الإنسان بترتيب في القيامة، وهي: النفخ في الصور، النشر، الحشر، فتح سجلّ الأعمال، الحساب، شهادة الشهود، الميزان، الصراط، الحوض، الشفاعة، الثواب والعقاب، الحبط والتكفير، الدخول إلى الجنّة أو النار. وسنشير أدناه باختصار إلى كلّ موقف من هذه المواقف.

* الحوادث قبل القيامة

ثمّة حوادث مرعبة وغريبة جدّاً تقع في العالم قبل حلول يوم القيامة، بحيث يفزع من هولها حتّى الملائكة الذين لم يذنبوا أبداً، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في هذا المجال: «**يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الصَّغِيرُ، وَيَسْكَرُ مِنْهُ الْكَبِيرُ، وَيَسْقُطُ**

فيه الْجَنينُ، وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضعَة عَمَّا أَرْضَعَتْ، يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ، وَيَوْمٌ كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً. إِنَّ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَيُرْهِبُ الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ لَا ذَنْبَ لَهُمْ»[1].

ولا ريب في أنّ كلام الإمام عليّ عليه السلام مستمدّ من الكلام الإلهيّ؛ حيث ورد في القرآن الكريم عبارات مشابهة لما ذُكر، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2].

تحدث هذه الظواهر بشكل يسير في الزلازل الدنيويّة والأحداث المرعبة؛ حيث تنسى الأمّهات أطفالهنّ، وتُسقط الحوامل حملهنّ، وترى آخرين كالسُّكارى قد فقدوا صوابهم، إلّا أنّ هذا لا يتّخذ طابعاً عامّاً، أمّا زلزال البعث فإنّه يصيب الناس جميعاً من دون استثناء[3].

* النفخة الأولى والثانية في الصور

عادةً ما يكون النفخ في الصور لأجل الإعلان عن شيءٍ مهمّ، والقيامة حادثة عظيمة لا يدانيها في الأهمّيّة والعظمة أيّ حادثة أخرى؛ لذا، يُعلَن عن وقوعها بشكل مناسب لعظمتها وأهمّيّتها، هذا مضافاً إلى أنّ هيبة الصُّوْر تستلزم حدوث تغيّرات كبرى في الكون. وطبقاً لما ورد في الأدلّة الدينيّة، يُنفَخ في الصُّوْر مرّتين، لكلّ نفخة منهما آثار خاصّة؛ ففي النفخة الأولى تموت جميع الكائنات في السماوات والأرض إلّا من شاء الله، وفي النفخة الثانية يحيا جميع الموتى، وقد أشارت الآية أدناه إلى هاتين النفختين: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4].

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، مصدر سابق، ط1، ص27.
(2) سورة الحجّ، الآية 2.
(3) انظر: الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج10، ص276.
(4) سورة الزمر، الآية 68.

على أنّ النفخ في الصور لا يؤثّر في الموجودات الحيّة وحسب؛ بل يؤدّي إلى حدوث تغييرات عدّة في السماء والأرض، أُشيرَ إلى بعضها في الآيات القرآنيّة؛ حيث قال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾[1].

وأشار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى الحوادث التي تنجم عن النفخ في الصور، قائلاً: «**وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَزْهَقُ كُلُّ مُهْجَة، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَة، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَقاً وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً**»[2].

أمّا من ينفخ في الصور فهو ملك اسمه إسرافيل، وما إن ينفخ فيه حتّى يُحدث صوتاً مهيباً يؤدّي إلى موت الجميع.

وقيل في وصف الصور إنّ له رأساً واحداً وطرفَيْن، وبين طرف كلّ رأس منهما ما بين السماء والأرض، فينفخ إسرافيل فيه نفخة، فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي أهل الأرض، فلا يبقى في الأرض ذو روح إلّا صُعِقَ ومات، ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي أهل السماوات، فلا يبقى في السماوات ذو روح إلّا صُعق ومات إلّا إسرافيل، ثمّ يقول الله لإسرافيل: يا إسرافيل! مُتْ، فيموت[3]. وأمّا في مرحلة الإحياء فأوّل موجود تدبّ فيه الحياة بأمر الله هو إسرافيل، فينفخ في الصور نفخة تحيي جميع الموتى ويبدأ البعث والنشور.

❋ النشر أو البعث

استفاد القرآن الكريم بشأن هذا الموقف من مفردتي «النشر» و«البعث» بصورة متكافئة، ولهاتين الكلمتين معنى متقارب لغويّاً أيضاً. البعث بمعنى إعادة الموتى

(1) سورة الحاقة، الآيات 13 - 16.

(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، الخطبة 195، ص309؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص115.

(3) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص252؛ الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثالث، ص43.

إلى الحياة مرّة أخرى؛ إذ يستعيد جميع الموتى حياتهم بعد النفخة الثانية في الصور ويحدث البعث[1]؛ وبالتالي، يستيقظ الجميع ويسارعون إلى ربّهم: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[2].

وفي الحقيقة، ينتهي عالم البرزخ بالبعث وحينها تبدأ القيامة؛ حيث ذكر الباري -سبحانه وتعالى- في كتابه الكريم أنّ البعث نهاية للبرزخ حينما بيّن الحدود الزمنيّة له قائلاً: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[3].

وأفادت آيات قرآنيّة أخرى بأنّ الله -سبحانه وتعالى- يبعث من في القبور: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾[4].

ولفت القرآن الكريم إلى قدرة الله (جلّ وعلا) على إحياء الأرض بعد الموت، مؤكّداً على أنّ تلك القدرة التي تحيي الأرض بعد موتها كفيلة بإحياء الموتى يوم القيامة: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[5].

من الأمور المهمّة في موضوع البعث «الجسمانيّة»، أي الجسم العنصريّ المادّيّ للإنسان الذي تآكل وتلاشى في التراب؛ فهذا الجسم -كما يذهب إليه معظم العلماء- يحيا وتلتحق به الرّوح بأمر من الله -سبحانه وتعالى-؛ ليكون مآله بعد تجاوز مواقف القيامة المختلفة، النعيم في الجنّة أو العذاب في جهنّم، هذا ما شدّدت عليه الآية الشريفة الآتية: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[6].

(1) انظر: القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص252، 403.
(2) سورة النبأ، الآية 18.
(3) سورة المؤمنون، الآية 100.
(4) سورة الحجّ، الآية 7.
(5) سورة فاطر، الآية 9.
(6) سورة القيامة، الآيتان 3 - 4.

❋ الحشر والجمع

الموقف الآخر من مواقف القيامة هو الحشر والجمع. والحشر يعني الجمع[1]. أو الإخراج الذي يكون مع الجمع[2]؛ ولهذا يتناسب مع كلمة الجمع، فبعد إحياء الموتى وبعثهم من القبور، يجمعهم الله -سبحانه وتعالى- في موضع معيَّن ليهيّئهم للموقف اللّاحق، وهو الحساب. وتُعَدُّ مرحلة الحشر من أهمّ مراحل الحياة ما بعد الموت وأخطرها؛ وذلك بسبب عظمة هذا الأمر وأهمّيّته الفائقة. فبأمر من الله -سبحانه وتعالى- تحيا جميع الأرواح وتخرج من القبور متّجهة إلى منصّة الحساب.

وقد أشارت آيات متعدّدة من القرآن الكريم إلى حشر الناس يوم القيامة وجمعهم في مكان محدّد لغرض الحساب؛ بل وأُطلق على يوم القيامة بسبب هذا الاجتماع العظيم اسم «يوم الجمع»، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[3].

وأُشيرَ في الروايات الإسلاميّة إلى الجوانب المختلفة لصعوبات الحشر إلى درجة اعتبار هذا الموقف من أوحش المراحل التي يمرّ بها الإنسان في مسيرته عموماً، فرُوي عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام أنّه قال: «**إِنَّ أَوْحَشَ مَا يَكُونُ هَذَا الْخَلْقُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْمَ يُولَدُ وَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ فَيَرَى الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَمُوتُ فَيُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَأَهْلَهَا، وَيَوْمَ يُبْعَثُ فَيَرَى أَحْكَامًا لَمْ يَرَهَا فِي دَارِ الدُّنْيَا**»[4].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج2، ص66.
(2) الشيخ الطبرسيّ، مجمع البيان، مصدر سابق، ج2، ص530.
(3) سورة التغابن، الآية 9.
(4) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مصدر سابق، ج1، ص257.

* فتح سجلّ الأعمال

من المواقف الأُخرى للقيامة، الموقف الذي تُعرَضُ فيه صحيفة أعمال الإنسان ويُفتح سجلّه أمام الخلائق، وقد عبّرت الآيات القرآنيّة عن هذه الصحيفة وهذا السجلّ بـ«الكتاب»، وهو يحتوي على كلّ ما فعله الإنسان طيلة حياته دون أن يترك صغيرة أو كبيرة من الأفعال، وهو من الدقّة والشمول بحيث يشفق منه المجرمون ويخشاه العصاة؛ لإحصائه جميع أفعالهم، قال -سبحانه وتعالى- في هذا الصّدد: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

النقطة المهمّة بشأن صحيفة الأعمال هي كيف تُكتب تلك الأعمال؟ ومن الذي يجمعها ويحصيها؟ يُستفاد من المصادر الدينيّة أنّ الله -سبحانه وتعالى- يوكل بكلّ إنسان في الدنيا ملكين يراقبانه؛ أحدهما في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى، لافتاً إلى أنّ هذه المراقبة دقيقة جدّاً، فلا يتفوّه بكلمة إلّا ويتمّ تسجيلها وضبطها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[2].

على أنّ وظيفة كلّ ملك مغايرة لوظيفة الآخر، فعلى يمين الإنسان ملَك يسجّل حسناته، وعلى يساره ملَك آخر يسجّل سيئاته[3].

نعم، في يوم القيامة يوضع مثل هذا الكتاب الذي يحوي أعمال الإنسان وصحيفة أعماله الكاملة بين يديه، وهو كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، وما أن ينظر إليه الشخص حتّى يذكر جميع أفعاله وكأنّه فعلها في تلك

(1) سورة الكهف، الآية 49.

(2) سورة ق، الآيتان 17 - 18.

(3) انظر: ابن طاووس، سعد السعود، مصدر سابق، ص225؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج5، ص324.

الساعة، قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام في هذا المجال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى الْإِنْسَانِ كِتَابُهُ ثُمَّ قِيلَ لَهُ: اقْرَأْ. قُلْتُ: فَيَعْرِفُ مَا فِيهِ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُذَكِّرُهُ، فَمَا مِنْ لَحْظَةٍ وَلَا كَلِمَةٍ وَلَا نَقْلِ قَدَمٍ وَلَا شَيْءٍ فَعَلَهُ إِلَّا ذَكَرَهُ كَأَنَّهُ فَعَلَهُ تِلْكَ السَّاعَةَ؛ فَلِذَلِكَ قَالُوا:** ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾»[1].

ولا يتلقّى المؤمنون والكافرون صحيفة أعمالهم وكتبهم يوم القيامة على نسق واحد؛ بل يتلقّى الكافر كتابه بيده اليسرى أو من وراء ظهره، ويسلَّم المؤمن كتابه بيمينه. وعليه، فتسليم الشخص صحيفة أعماله بيمينه من علامات إيمانه، بينما يكشف حصوله على كتابه بشماله أو من وراء ظهره عن كفره؛ ولذا تختلف ردود أفعال الطائفتين بعد تلقّي تلك الكتب، فيرجع المؤمن إلى أهله مسروراً، ويتحسّر الكافر على ما فاته ويدعو بالويل والثبور، وقد صوّر القرآن الكريم هذا المشهد ببيان جميل قائلاً: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[2].

(1) العياشيّ، تفسير العياشيّ، مصدر سابق، ج2، ص328.
(2) سورة الانشقاق، الآيات 7 - 12.

- ثمّة حوادث مرعبة وغريبة جداً تقع في العالم قبل حلول يوم القيامة، بحيث يفزع من هولها حتّى الملائكة الذين لم يذنبوا أبداً.
- طبقاً لما ورد في الأدلّة الدينيّة، يُنفخ في الصُّوْر مرّتين، لكلّ نفخة منهما آثار خاصّة؛ ففي النفخة الأولى تموت جميع الكائنات في السماوات والأرض إلّا من شاء الله، وفي النفخة الثانية يحيا جميع الموتى.
- البعث بمعنى إعادة الموتى إلى الحياة مرّة أخرى؛ إذ يستعيد جميع الموتى حياتهم بعد النفخة الثانية في الصور ويحدث البعث.
- ينتهي عالم البرزخ بالبعث وحينها تبدأ القيامة.
- بعد إحياء الموتى وبعثهم من القبور، يجمعهم الله -سبحانه وتعالى- في موضع معيَّن ليهيّئهم للموقف اللّاحق، وهو الحساب.
- من المواقف الأخرى للقيامة، الموقف الذي تُعرض فيه صحيفة أعمال الإنسان ويُفتح سجلّه أمام الخلائق.
- يُستفاد من المصادر الدينيّة أنّ الله -سبحانه وتعالى- يوكل بكلّ إنسان في الدنيا ملكين يراقبانه، أحدهما في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى، لافتاً إلى أنّ هذه المراقبة دقيقة جدّاً إلى حدّ أنّه ما يتفوّه بكلمة إلّا ويتمّ تسجيلها وضبطها.
- ولا يتلقّى المؤمنون والكافرون صحيفة أعمالهم وكتبهم يوم القيامة على نسق واحد؛ بل يتلقّى الكافر كتابه بيده اليسرى أو من وراء ظهره، ويسلَّم المؤمن كتابه بيمينه.

الأسئلة

1. ما معنى مواقف القيامة؟ اذكرها بحسب الترتيب.
2. اشرح ما المراد من النفخة الأولى والثانية في الصور، وبيّن ما تأثيرها على العالم والإنسان؟
3. بيّن مفهوم النشر والحشر مستعيناً بالآيات القرآنيّة الشريفة.
4. اشرح كيفيّة تسجيل أعمال الإنسان وطريقة عرضها بلسان القرآن الكريم.

الدرس الثامن والثلاثون

الحساب والشهود

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف صحيفة الأعمال وتأثيرها في مصير الإنسان.
2. يبيّن موقف الحساب وأنواعه.
3. يذكر الشهود على أعمال الإنسان يوم القيامة.

❋ تمهيد

تحدّثنا في الدرس السابق عن بعض المواقف في حياة الإنسان في عالم القيامة، وبحثنا عدداً من الحوادث التي تقع قُبَيْلَ القيامة، مضافاً إلى بعث الأجساد وحشرها وفتح سجلّ الأعمال. أمّا في هذا الدرس فسنتعرّف إلى كيفيّة النظر في أعمال الإنسان يوم القيامة.

❋ صحيفة الأعمال

بعدما يُبعث الموتى ويُحشرون من القبور وتُعرض عليهم الأعمال، يقفون في موقف الحساب؛ وعندئذٍ تُفتح صحيفة أعمال كلّ إنسان ليرى ما هي أعماله الصالحة والسيّئة، وبسبب أهمّيّة هذه المرحلة سُمّي يوم القيامة بـ«يوم الحساب» أيضاً، وأُشيرَ له في عدد من الآيات القرآنيّة. وكنتيجة لحساب الناس في ذلك اليوم، يتبيّن الشخص الصالح من الطالح والمحسن من المسيء، ويتحدّد مكانه في الجنّة أو النار، ويتحوّل «يوم الجمع» إلى «يوم الفصل» بفعل محاسبة الناس على أعمالهم وعقائدهم.

والنقطة المهمّة هنا هي ضرورة أن نعرف الهدف من هذا الحساب؛ ففي الحياة الدنيا تحصل المحاسبات الدنيويّة لأجل كشف الحقيقة واتّضاح الأمور المجهولة في المحكمة وأمام القاضي، وأمّا في المحكمة الإلهيّة التي يكون فيها الحاكم والقاضي هو الله (جلّ وعلا) فلا يخفى عليه شيء، فما الغرض من الحساب إذاً؟

إنّ الهدف من الحساب الأخرويّ هو إراءة الإنسان لأفعاله والاحتجاج عليه بها؛ وبذلك وفي ضوء الدقّة في هذا الحساب وعرض جميع أعمال الإنسان الحسنة والسيّئة ووجود شهود عليه، لا يبقى أيّ مجال لاعتراضه وعدم قبوله.

ولا ريب في أنّ حساب أعمال الناس يوم القيامة عمل واسع جداً، فيشمل أبعاداً مختلفة كالأعمال القلبيّة والبدنيّة، الكبيرة والصغيرة، الخفيّة والظاهرة، وإن كانت قد مُحيت من ذاكرة الإنسان ونسيها نتيجة تقدّم الزّمان. من هنا، قيل: إنّ الإنسان سيقف أمام ما عمله في الدنيا في مرحلة من مراحل الحساب، قال -سبحانه وتعالى-: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

* موقف الحساب

يُستفاد من بعض الشواهد وجود مكان في القيامة يوقَف الإنسان فيه ليُسأل عن كيفيّة تعاطيه مع النعم الإلهيّة، خصوصاً نعمة ولاية أهل البيت عليهم السلام، وقد أشار القرآن الكريم في بعض آياته إلى هذا المكان بصورة إجماليّة؛ فعلى سبيل المثال، أُشير في إحدى الآيات القرآنيّة إلى الأمر بإيقاف الناس في أحد المواقف للسؤال، وذُكر في آية أخرى أنّ الإنسان سوف يُسأل يوم القيامة عن النعم الإلهيّة: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[2]، ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾[3].

وقد ورد في عدد كبير من الروايات تفاصيل هذا الموضوع، وكُشفَ النقاب عن الأسئلة التي تُطرح على الإنسان في هذا الموقف، وتبيّن المقصود من النّعيم في هذه الآية الشريفة.

(1) سورة المجادلة، الآية 6.
(2) سورة الصافّات، الآية 24.
(3) سورة التكاثر، الآية 8.

من هنا، قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِه فِي مَا أَفْنَاهُ، وَشَبَابِه فِي مَا أَبْلَاه، وَعَنْ مَالِه مِنْ أَيْنَ كَسَبَهُ وَفِي مَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[1].

ولمّا سُئل الإمام أبو عبد الله الصّادق عليه السلام عن النعيم الوارد في الآية القرآنيّة المتقدّمة، قال: «**نَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ النَّعِيمُ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ بِنَا عَلَى الْعِبَادِ، وبِنَا ائْتَلَفُوا بَعْدَ مَا كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، وَبِنَا أَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَجَعَلَهُمْ إِخْوَاناً بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَعْدَاءً، وَبِنَا هَدَاهُمُ إِلَى الإِسْلَامِ، وَهُوَ النِّعْمَةُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، واللهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ حَقِّ النَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ النَّبِيُّ وَعِتْرَتُه صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ**»[2].

من المسلّم به أنّ أهمّ أهداف الخلق هو هداية الإنسان، ولا تكتمل النعم الإلهيّة إلّا عند وصول الإنسان إلى هذا الهدف، والهداية المذكورة لا تتحقّق إلّا عن طريق الحجج الإلهيّين الذين أرسلهم الله -سبحانه وتعالى- لهذا الغرض. وعلى هذا الأساس، فأعظم النِّعم الإلهيّة هي النعمة التي تضمن هداية الناس، وليست هي سوى الأنبياء والأوصياء.

❋ أنواع الحساب

لا بدّ من الالتفات إلى أنّه لا يُصار إلى التعامل مع الجميع على وتيرة واحدة في موقف الحساب؛ فبعض الناس يدخل الجنّة، أو يُلقى في النار دون حساب كامل، وبعضهم يُحاسَب حساباً يسيراً؛ حيث قال -سبحانه وتعالى-: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[3]. في المقابل، يُحاسَب بعضهم بمنتهى الغلظة والشدّة[4]؛ لذا قال -سبحانه وتعالى- في الطائفة الأخيرة: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾[5].

(1) الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص39.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج6، ص280؛ البرقيّ، المحاسن، مصدر سابق، ج2، ص400.

(3) سورة الانشقاق، الآية 8.

(4) انظر: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص262؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص263.

(5) سورة الرعد، الآية 18.

وورد في بعض الأحاديث أنّ التدقيق في الحساب يوم القيامة يكون على قدر ما آتى الله العباد من العقول في الدنيا[1].

* سرعة الحساب

النقطة الأخرى الجديرة بالبحث في موضوع حساب الخلائق يوم القيامة، هي سرعة الحساب؛ ولهذا السبب اعتُبر الباري -سبحانه وتعالى- في بعض الآيات القرآنيّة أسرع الحاسبين[2].

في إحدى الروايات، سُئل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن كيفيّة محاسبة الله للخلائق مع كثرتهم، فمثّل برزقهم في الأرض على كثرتهم:

«وَسُئِلَ عليه السلام كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ؟ فَقَالَ عليه السلام: **كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ**. فَقِيلَ: كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ؟ فَقَالَ عليه السلام: **كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ**»[3].

* الشهود

في جزء من مشهد يوم القيامة، يوضع الإنسان أمام المحاكمة، ففي البداية يُسلَّم صحيفة أعماله وكتابه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، ثمّ يؤتى بالشهود الذين يشهدون على ما رأوه من أعمال الإنسان. وتفيد الروايات أنّ بعض الناس يُنكر ما عُرض عليه في صحيفة أعماله؛ وحينئذٍ يُستدعى الشهود ليشهدوا على أفعال ذلك الشخص المُنكر، ولا يمكن رفض هذه الشهادة وتكذيبها مطلقاً؛ إذ يشهد على الإنسان جوارحه وأعضاء بدنه المختلفة، فضلاً عن الله -سبحانه

(1) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص11؛ البرقيّ، المحاسن، ج1، ص195.

(2) ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، سورة الأنعام، الآية 62.

(3) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص528، الحكمة 306؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص271.

وتعالى- والرسل والملائكة، فلا يبقى مجال لأيّ عذر. ويمكن تقسيم الشهود يوم القيامة، كما ورد في الكتاب والسنّة إلى خمس طوائف:

1. **الله -سبحانه وتعالى- والنبيّ الأكرم والأئمّة:** لا ريب في أنّ شهادة الله -سبحانه وتعالى- فوق جميع الشهادات الأخرى، وتأتي أهمّيّة هذه الشهادة من ناحية صفاته (جلّ وعلا) نحو: العليم والخبير والرقيب والشهيد وغيرها، والتي تعدّ أساساً لجميع الصفات اللّازمة للشهادة الأخرويّة، وليس الله -سبحانه وتعالى- شهيداً على أعمال العباد وحسب؛ بل هو شاهد على الشهود الآخرين أيضاً. ومن هذا المنطلق، أشار الباري -سبحانه وتعالى- في بعض الآيات إلى علمه بجميع أعمال الناس، وذكر في آيات آخرى أنّه شاهد على أعمالهم: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

وقد صرّح القرآن الكريم، في إحدى الآيات بأنّ الله -سبحانه وتعالى- والنبيّ ﷺ والمؤمنين -الذين فُسّروا في الروايات بالأئمّة المعصومين عليهم السلام[3]- يرون أعمال الناس[4]، وعليه يمكن القول: إنّ النبيّ ﷺ وأوصياءه الكرام عليهم السلام يعلمون بما أعطاهم الله -سبحانه وتعالى- من علمه بما يفعله الناس في الدنيا، وبوسعهم أن يشهدوا على أعمالهم الدنيويّة يوم القيامة.

(1) سورة الحديد، الآية 10؛ سورة آل عمران، الآية 180؛ سورة البقرة، الآية 234 وغيرها.
(2) سورة آل عمران، الآية 98.
(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص219، ج1، ص424؛ الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص427.
(4) ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، سورة التوبة، الآية 105.

كما أنَّ لكلّ أمّة من الأمم السالفة شهيداً عليها يوم القيامة، لكنّ الله (جلّ وعلا) اعتبر النبيّ الأكرم ﷺ شهيداً على جميع أولئك الشهداء؛ ما يكشف عن عظمة نبيّ الإسلام ﷺ ومنزلته المتميِّزة بين الشهداء يوم القيامة، وقد بيّنت الآيات القرآنيّة شهادته بهذه الصورة: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[1].

2. **الملائكة:** من الشهود على الإنسان يوم القيامة، الملائكة الموكلون بتسجيل أعماله في الحياة الدنيا؛ حيث ينكر بعض الناس أعماله التي تُعرض عليه يوم القيامة، فتتدخّل الملائكة المكلّفة بتسجيل تلك الأعمال وتشهد عليهم: **«... يَعْرِضُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فَيُنْكِرُونَهَا، فَيَقُولُونَ: مَا عَمِلْنَا مِنْهَا شَيْئاً، فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَتَبُوا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ»**[2].

3. **الأعضاء والجوارح:** تنطق جوارح المجرمين وأعضاء أبدانهم بأمر من الله -سبحانه وتعالى- لتشهد على ما اقترفه كلّ عضو في الدنيا، وقد ورد في هذا الخصوص آيات وروايات كثيرة، فمن تلك الآيات:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4].

(1) سورة النساء، الآية 41.
(2) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص264؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص312.
(3) سورة يس، الآية 65.
(4) سورة فصّلت، الآيتان 20 - 21.

بيد أنّ بعض المجرمين لا يقبلون بشهادة الملائكة، فيقسمون أنّهم لم يفعلوا شيئاً ممّا شهدوا به؛ وفي هذه الحالة يُنطق الله -سبحانه وتعالى- جوارحهم وأعضاء بدنهم ليشهدوا على أصحابهم ويقطعوا عليهم طريق الإنكار والفتنة. قال الإمام أبو عبد الله الصَّادق عليه السلام: «**فَيَشْهَدُ عَلَيْهِمُ الْمَلائكَةُ الَّذينَ كَتَبُوا عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، فَيَقُولُونَ لله: يَا رَبِّ، هَؤُلَاءِ مَلائكَتُكَ يَشْهَدُونَ لَكَ. ثُمَّ يَحْلفُون بالله مَا فَعَلُوا منْ ذَلكَ شَيْئاً، وَهُوَ قَوْلُ الله:** ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾**... فَعِنْدَ ذَلكَ يَخْتمُ اللهُ عَلَى أَلْسنَتهمْ وَيَنْطقُ جَوَارِحُهُمْ**»[1].

4. **الأرض:** تُعَدُّ الأرض من جملة الشهود يوم القيامة؛ حيث تشهد على الأفعال التي وقعت عليها، قال -سبحانه وتعالى- في هذا الصدد: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[2].

وقد أوضحت الروايات أنّ أخبار الأرض هي شهادتها على الأعمال التي تُرتكب على ظهرها، فرُوي عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟**» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْد وَأَمَة بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولُ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؛ فَهَذَا أَخْبَارُهَا**»[3].

5. **الليل والنّهار:** أفادت الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الليل والنهار من ضمن الشهود على الإنسان يوم القيامة، فيشهدان على الأعمال التي وقعت فيهما؛ لذا ورد في الحديث عن أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام أنّه قال: «**إِنَ النَّهَارَ إِذَا جَاءَ قَالَ: يَا ابْنَ آدَمَ! اعْمَلْ في يَوْمكَ هَذَا خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ به عنْدَ رَبِّكَ يَوْمَ الْقيَامَة، فَإِنِّي لَمْ آتكَ فيمَا مَضَى وَلَا آتيكَ فيمَا بَقيَ، وَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ قَالَ مثْلَ ذَلكَ**»[4].

(1) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص216؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص312.
(2) سورة الزلزال، الآية 4.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص97.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص455.

- بعدما يُبعث الموتى ويُحشرون من القبور وتُعرض عليهم الأعمال، يقفون في موقف الحساب؛ وعندئذٍ تُفتح صحيفة أعمال كلّ إنسان ليرى ما هي أعماله الصالحة والسيّئة، وبسبب أهمّيّة هذه المرحلة سُمّي يوم القيامة بـ«يوم الحساب» أيضاً.
- إنّ الهدف من الحساب الأخرويّ هو إراءة الإنسان لأفعاله والاحتجاج عليه بها؛ وبذلك وفي ضوء الدقّة في هذا الحساب وعرض جميع أعمال الإنسان الحسنة والسيّئة ووجود شهود عليه، لا يبقى أيّ مجال لاعتراضه وعدم قبوله.
- يُستفاد من بعض الشواهد وجود مكان في القيامة يوقَف الإنسان فيه ليُسأل عن كيفيّة تعاطيه مع النِّعم الإلهيّة.
- النقطة الأخرى الجديرة بالبحث في موضوع حساب الخلائق يوم القيامة هي سرعة الحساب؛ ولهذا السبب اعتُبر الباري -سبحانه وتعالى- في بعض الآيات القرآنيّة أسرع الحاسبين.
- تفيد الروايات أنّ بعض الناس يُنكر ما عُرض عليه في صحيفة أعماله؛ وحينئذٍ يُستدعى الشهود ليشهدوا على أفعال ذلك الشخص المُنكِر، ولا يمكن رفض هذه الشهادة وتكذيبها مطلقاً؛ إذ يشهد على الإنسان جوارحه وأعضاء بدنه المختلفة، فضلاً عن الله -سبحانه وتعالى- والرسل والملائكة، فلا يبقى مجال لأيّ عذر.
- أفادت الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الليل والنهار من ضمن الشهود على الإنسان يوم القيامة، فيشهدان على الأعمال التي وقعت فيهما.

الأسئلة

1. في ضوء العلم الإلهيّ الواسع، ما معنى حساب الناس ومحاكمتهم يوم القيامة؟ اذكر شاهداً من الآيات القرآنيّة.

2. ما طبيعة الشهود على الإنسان يوم القيامة؟ استدلّ على كلّ واحد منهم بآية أو رواية.

الدرس التاسع والثلاثون

الميزان والصراط

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يعرف ميزان الأعمال الذي يُقاس به أعمال الإنسان يوم القيامة.
2. يشرح ماهيّة الصراط الذي يَعْبُره الإنسان للوصول إلى الجنّة.
3. يقرأ عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام يوم القيامة.

* تمهيد

أشير في الدروس السابقة إلى أنّ الميزان والصراط والحوض أهمّ مواقف القيامة، وفي هذا الدرس سنتعرف على المنزلين الأخيرين من منازل الحساب ومواقفه: الميزان والصراط، وعلى الحوض، وهو أوّل مراحل الثواب الذي يُعطى لأهل الجنّة، ومرحلة ظهور عظمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام.

إذن، بقي موقفان من مواقف الحساب يحتاجان إلى الدراسة والبحث، هما الميزان والصراط، وعلى الرغم من أنّ جميع الناس يمرّون بهذين الموقفين إلّا أنّ أوضاعهم متباينة من حيث التخفيف والتشديد عليهم.

* الميزان

الميزان وسيلة للوزن والقياس، وتختلف الموازين باختلاف ما يُراد وزنه، فلها أنواع مختلفة، والحديث هنا عن الميزان الذي يوضع يوم القيامة لتقاس به أعمال الإنسان في الدنيا. ويعدّ الإيمان بالميزان -كما هو الحال في صحيفة الأعمال والشهود- من ضروريّات الدّين ومن العقائد الإسلاميّة الأساسيّة، وعليه، فثمّة موقف آخر يوم القيامة توزن فيه أعمال الإنسان بميزان مناسب؛ ليتبيّن العمل الخفيف من العمل الثقيل، وتتّضح مكانة الشخص طبقاً لذلك العمل. وقد تحدّثت آيات قرآنيّة كثيرة عن الموازين يوم القيامة، منها:

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[1].

﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾[2].

من هنا، ورد في إحدى الروايات حول تفسير هذه الآية أنّ الحسنات ثقل الميزان والسيّئات خفّة الميزان: «**وَأَمَّا قَوْلُهُ:** ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ و ﴿خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ **فَإِنَّمَا يَعْنِي الْحِسَابَ، تُوزَنُ الْحَسَنَاتُ وَالسَّيِّئَاتُ، والْحَسَنَاتُ ثِقْلُ الْمِيزَانِ وَالسَّيِّئَاتُ خِفَّةُ الْمِيزَانِ**»[3].

وعلى الرغم من أنّه لا خلاف بشأن أصل الميزان يوم القيامة، إلا أنّنا نرى تبايناً في وجهات النظر حول حقيقته ومصاديقه المختلفة؛ ففي رواية عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أكّد على أنّ الموازين هم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وفي حديث آخر اعتُبر الميزان كناية عن العدل:

سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله (عزَّ وجلَّ): ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾ قَالَ:«**هُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْأَوْصِيَاءُ**»[4].

وعلى هذا الأساس، إنّما تبلغ أعمال الإنسان مرتبة الكمال بعدما تُعرض على أعمال الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وتُقاس إليها، فتتحدّد قيمة كلّ عمل في ضوء قربه من أعمال الأنبياء والأوصياء أو بعده عنها.

وفي هذا الموقف أيضاً -كما في المواقف السابقة- ينفع حبّ أهل البيت عليهم السلام في نجاة الإنسان من العذاب وخلاصه من النار؛ لذا رُوي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عن أبيه عليه السلام، قال: «**حُبَ أَهْلِ بَيْتِي نَافِعٌ فِي سَبْعَةِ مَوَاطِن**

(1) سورة الأعراف، الآيتان 8 - 9.

(2) سورة القارعة، الآيات 6 - 9.

(3) الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص267.

(4) الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص31؛ وأيضاً انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج1، ص419.

أَهْوَالُهُنَّ عَظِيمَةٌ: عِنْدَ الْوَفَاةِ وَفِي الْقَبْرِ وَعِنْدَ النُّشُورِ وَعِنْدَ الْكِتَابِ وَعِنْدَ الْحِسَابِ وَعِنْدَ الْمِيزَانِ وَعِنْدَ الصِّرَاطِ»[1].

❋ الصراط

الصراط جسر يُوضع على جهنّم، ولا يتيسّر الوصول إلى الجنّة إلّا بعد عبوره، والصراط من ضروريّات الدين الإسلاميّ أيضاً، فلا بدّ من الإيمان به. وصراط الآخرة مثال على الصراط المستقيم في الدنيا، وهو الدين الحقّ وطريق الولاية والسير على نهج أمير المؤمنين والأئمّة المعصومين من ذرّيته عليهم السلام؛ فمن يعدل عن الصراط الدنيويّ قولاً أو فعلاً وينزع إلى الباطل تزلّ قدمه من الصراط الأخرويّ. وتجدر الإشارة إلى أنّ «الصراط المستقيم» المذكور في سورة الفاتحة ناظر إلى الصراطين معاً[2]. وقد ورد في الأحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أنّ الصراط أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف[3].

وبشأن كيفية عبور الناس من الصراط، أُشيرَ في الروايات إلى أنّهم يمرّون عليه على شكل طبقات، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عَدْوِ الفرس، ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً[4].

ولا بدّ من الالتفات إلى وجود ثلاث قناطر وعقبات يصعب عبورها على الصراط حسبما ورد في الروايات: «**... ثُمَّ يُوضَعُ عَلَيْهَا [جَهَنَّمَ] الصِرَاطُ، أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرَ: فأمّا واحدة فعَلَيْهَا الْأَمَانَةُ وَالرَّحِم، وَأمّا ثانيها فعَلَيْهَا الصَّلَاةُ، وَأمّا الثَّالِثَةُ فعَلَيْهَا عدل رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. فَيُكَلَّفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهَا، فَتَحْبِسُهُمُ الرَّحِمُ وَالْأَمَانَةُ؛ فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمُ**

(1) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، فضائل الشيعة، كانون انتشارات عابدي، إيران - تهران، لا.ت، لا.ط، ص6.
(2) انظر: الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، مصدر سابق، ص32.
(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص312؛ القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص421.
(4) انظر: الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص177؛ وأيضاً انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، باب 22 الصراط.

**الصَّلَاةُ؛ فَإِنْ نَجَوْا منْهَا كَانَ الْمُنْتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وعَزَّ، وَهُوَ قَوْله -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾، وَالناس عَلَى الصِّرَاطِ، فَمُتَعَلِّقٌ بيد، وتَزولُ قَدَمٌ ويستمسكُ بقدَم، وَالْمَلَائكَةُ حَوْلَهَا يُنَادُونَ: يَا حَليمُ، اغفر وَاصْفَحْ وَعُدْ بفَضْلكَ وَسَلِّمْ سَلِّم. وَالنَّاس يَتَهَافَتُونَ في النار كَالْفَرَاش، فَإِذَا نَجَا نَاجٍ برَحْمَة اللَّه (عزَّ وجلَّ) مرَّ بهَا فَقَالَ: الْحَمْدُ للَّه وبنعمته تتمُّ الصالحات وتزكو الحسنات، والحمد لله الَّذي نَجَّاني منْك بَعْدَ إياسٍ بمَنِّه وفَضْله، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»[1].

ويُستفاد من بعض الروايات أنّ العقبات والقناطر الموجودة على الصراط أكثر من ثلاثة؛ بل هي بعدد الواجبات من الأوامر والنواهي الإلهيّة، وتسمّى بأسمائها، إحداها باسم «الولاية»، فيوقف جميع الخلائق أمام تلك القنطرة ويُسألون عن ولاية الإمام عليّ والأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ فلا يستطيع عبورها إلّا من كان مؤمناً بالولاية في الحياة الدنيا، وقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[2]، يشير إلى هذا الموقف وهذا السؤال[3].

* الحوض

المراد من الحوض هو «حوض الكوثر» الذي أعطاه الله -سبحانه وتعالى- للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وساقي الكوثر هو الإمام عليّ عليه السلام، وحوض الكوثر نهر عظيم من أنهار الجنّة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، ومن يشرب منه لا يظمأ أبداً، والشرب منه في القيامة علامة على النجاة، وساقي الكوثر يسقي منه أولياءه ومحبّيه ويذود عنه أعداءه ومبغضيه[4].

(1) القمّيّ، تفسير، القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص421؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص65.
(2) سورة الصافّات، الآية 24.
(3) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص298؛ القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص222.
(4) انظر: الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص227.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلْيَتَوَلَّ وَلِيِّي وَلْيَتَّبِعْ وَصِيِّي وَخَلِيفَتِي مِنْ بَعْدِي، عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِب عليه السلام؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ حَوْضِي، يَذُودُ عَنْهُ أَعْدَاءَهُ وَيَسْقِي أَوْلِيَاءَهُ، فَمَنْ لَمْ يُسْقَ مِنْهُ لَمْ يَزَلْ عَطْشَانَ وَلَمْ يُرْوَ أَبَداً، وَمَنْ سُقِي مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَشْقَ وَلَمْ يَظْمَأْ أَبَداً**»[1].

* ظهور عظمة رسول الله ﷺ وأئمّة الهدى عليهم السلام يوم القيامة

تتجلّى يوم القيامة عظمة رسول الله ﷺ وأئمّة الهدى عليهم السلام؛ حيث يحتلّون أرفع مراتب القرب الإلهيّ.

إنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام هم الشهداء على أعمال الخلق والموازين الإلهيّة لقياس الخطأ من الصواب، ولا يجوز أحد الصراط إلّا باتّباعهم في دار الدنيا، فهم الصراط الإلهيّ المستقيم؛ ولذا أعطاهم الله -سبحانه وتعالى- مقام الشفاعة ليشفعوا لأوليائهم ومحبّيهم، وهم أصحاب الحوض والساقون للخلق يوم القيامة؛ حيث يسقون أهل النجاة من الكوثر. ويتولّى أمير المؤمنين عليه السلام رفع راية الحمد ولواء القيامة بيديه المباركتين، فيُدخل الجنّة من يشاء ويُدخل النار من يشاء؛ ذلك أنّ الله وهبه لقب «**قسيم الجنّة والنار**»[2].

(1) الصدوق، الأمالي، مصدر سابق، ص279.

(2) انظر: الصفّار، بصائر الدرجات، مصدر سابق، ص415.

المفاهيم الرئيسة

- يعدّ الإيمان بالميزان -كما هو الحال في صحيفة الأعمال والشهود- من ضروريّات الدّين ومن العقائد الإسلاميّة الأساسيّة.
- إنّما تبلغ أعمال الإنسان مرتبة الكمال بعدما تُعرض على أعمال الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وتُقاس إليها، فتتحدّد قيمة كلّ عمل في ضوء قربه من أعمال الأنبياء والأوصياء أو بعده عنها.
- الصراط جسر يوضع على جهنّم، ولا يتيسّر الوصول إلى الجنّة إلّا بعد عبوره. وصراط الآخرة مثال على الصراط المستقيم في الدنيا، وهو الدِّين الحقّ وطريق الولاية والسير على نهج أمير المؤمنين والأئمّة المعصومين من ذرّيته عليهم السلام.
- بشأن كيفيّة عبور الناس من الصراط، أُشيرَ في الروايات إلى أنّهم يمرّون عليه على شكل طبقات، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عدْو الفرس، ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً.
- يُستفاد من بعض الروايات أنّ العقبات والقناطر الموجودة على الصراط أكثر من ثلاثة؛ بل هي بعدد الواجبات من الأوامر والنواهي الإلهيّة.
- حوض الكوثر نهر عظيم من أنهار الجنّة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، ومن يشرب منه لا يظمأ أبداً، والشرب منه في القيامة علامة على النجاة.
- تتجلّى يوم القيامة عظمة رسول الله صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام؛ حيث يحتلّون أرفع مراتب القرب الإلهيّ.

الأسئلة

1. اشرح حتميّة الميزان وحقيقته مستعيناً بالآيات والروايات.
2. ما معنى الصراط؟ وما هو ارتباطه بالصراط المستقيم في الدنيا؟
3. ما المراد من حوض الكوثر؟ بيّن دور النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام في هذا الموقف من خلال البحث في الروايات.

الدرس الأربعون

الشفاعة يوم القيامة

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف مفهوم الشفاعة.
2. يذكر من أُذِنَ لهم بالشفاعة يوم القيامة.
3. يعدّد شروط التشفّع وموضوع الشفاعة.

❋ تمهيد

يُعتبر موضوع الشفاعة من الموضوعات المهمّة والمثيرة في موقف الحساب، والشفاعة من الأمور المسلّمة والمؤكّدة في الفكر الإسلاميّ والمنسجمة مع الموازين العقليّة أيضاً. وبعد إيضاح المفهوم الدقيق للشفاعة وأبعادها وأهمّيّتها، يمكن الردّ على الشبهات المطروحة في هذا المجال.

الشفاعة لغةً، تعني ضمّ شيءٍ إلى مثله، واصطلاحاً السُّؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم[1]. والشفاعة في الآخرة تصدر عمَّن له مقام الشفاعة للصفح عن ذنوب أهل الإيمان؛ حيث يتوسّط الشفيع إلى الله -سبحانه وتعالى- في أن يعفو عن المذنبين وينقذهم من العذاب.

❋ أهمّيّة الإيمان بالشفاعة

تبلغ أهمّيّة الإيمان بالشفاعة إلى درجة أنّ المؤمن بها يعدّ مؤمناً حقيقيّاً، والمنكر لها خارج من دائرة الإيمان. قال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «**مَنْ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِ اللهِ... وَآمَنَ بِالْمِعْرَاجِ وَالْمُسَاءَلَةِ فِي الْقَبْرِ وَالْحَوْضِ وَالشَّفَاعَةِ وَخَلْقِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالصِّرَاطِ وَالْمِيزَانِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ حَقّاً، وَهُوَ مِنْ شِيعَتِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[2].

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج8، ص183.

(2) الصدوق، الشيخ محمد بن علي، صفات الشيعة، كانون انتشارات عابدي - تهران، لا.ت، لا.ط، ص50.

* المفهوم الصحيح للشفاعة

يختلف معنى الشفاعة في الأدبيّات القرآنيّة عنها في أذهان عوامّ الناس؛ فربّما تعني الشفاعة لدى السواد الأعظم أنّ الشفيع يستفيد من مكانته وشخصيّته ونفوذه لتغيير رأي صاحب سلطة معيّنة بشأن معاقبة من هم تحت سيطرته، والشفاعة بهذا المعنى هي -بعبارة موجزة- لا تعني حدوث أيّ تغيير في المحتوى النفسيّ والفكريّ للمجرم أو المتّهم؛ بل تؤدّي إلى إضعاف روح الاجتهاد والعمل الدؤوب، وتحضّ الشخص على ارتكاب المعصية والتخلّي عن المسؤوليّة؛ وبالتالي، تدخل في دائرة الشرك.

ثمّ إنّ هذا اللون من الشفاعة ليس له مكانة في المفهوم الدينيّ على الإطلاق؛ لأنّ الله -سبحانه وتعالى- لا يخطئ حتّى يتوسّط الشفيع في تغيير رأيه، ولا يحمل تلك العواطف الموجودة في نفس الإنسان كي يمكن إثارة عواطفه، ولا يهاب نفوذ شخص كي ينصاع لأوامره، ولا يدور ثوابه وعقابه حول محور غير محور العدالة.

المفهوم الآخر للشفاعة يقوم على أساس تغيير موقف «المشفوع له»، أي أنّ الشخص المشفوع له يوفّر في نفسه الظروف والشروط التي تؤهّله للخروج من وضعه السيّئ الموجب للعقاب، وينتقل -عن طريق الشفيع- إلى وضع مطلوب حسن يستحقّ معه العفو والسماح. والإيمان بهذا النوع من الشفاعة -كما سنرى- يربّي الإنسان، ويصلح الأفراد المذنبين، ويبعث فيهم الصحوة واليقظة. والشفاعة، في الإسلام، لها هذا المفهوم السامي. وسنرى أنّ كلّ الاعتراضات والانتقادات والحملات التي توجّه إلى مسألة الشفاعة، إنّما تنطلق من فهم الشفاعة بالمعنى الأوّليّ المنحرف، ولا تلتفت إلى المعنى الثاني المنطقيّ المعقول البنّاء[1].

(1) انظر: الشيخ الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق، ج1، ص200-201.

وبحسب المعنى الأخير للشفاعة، يأخذ الشفيع بيد الشخص المخطئ والنادم على ما بدر منه ليساعده على تجاوز أزمته ومنع وقوعه في ضرر أكبر. وفي المقابل؛ فإنّ الشخص المذنب الذي يشعر بوجود سند قويّ ومؤثّر، سيحدوه الأمل ويسعى جاهداً إلى العودة إلى الطريق الصحيح. والشفاعة هنا، تعني مرافقة الآخر لغرض النجاة وبلوغ الفلاح.

❋ الشفاعة في القرآن الكريم

تنقسم الآيات الواردة في موضوع الشفاعة إلى طائفتين، الطائفة الأولى تنفي قبول الشفاعة وتأثيرها في الآخرة، منها: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾[1]، ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[2].

والطائفة الثانية تقرّ بالشفاعة بإذن الله -سبحانه وتعالى-، وترى أنّها مفيدة للإنسان، ومنها: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[3].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[4].

وفي ضوء هاتين الطائفتين من الآيات القرآنيّة، يتبيّن أنّ المقصود من نفي الشفاعة في الطائفة الأولى هو الاستقلال في الشفاعة. بعبارة أخرى: آيات الطائفة الأولى تؤكّد أنّه لا يمكن لأحد الشفاعة بصورة مستقلّة، ولا تُقبل الشفاعة من أحد دون إذن الله -سبحانه وتعالى-، ولا طائل منها في هذه الحالة؛ في حين أنّ الطائفة الثانية من الآيات تثبت صحّة الشفاعة بعد إذن الباري -سبحانه وتعالى-، وتكشف أنّ الشفاعة بإذن الله تُقبل من الإنسان في عالم الآخرة وتنفعه.

(1) سورة البقرة، الآية 254.
(2) السورة نفسها، الآية 48.
(3) السورة نفسها، الآية 255.
(4) سورة النجم، الآية 26.

* الشفعاء

ذكرنا أنّ الشفاعة لا تُقبل إلّا ممّن أذن لهم الله، والسؤال المهمّ المتبادر هنا هو: من هم الأشخاص الحاصلون على هذا الإذن الذين تُقبل شفاعتهم يوم القيامة؟

ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ من يؤذَن لهُم بالشفاعة هم الأنبياء والأوصياء والعلماء والشهداء، ويحظى نبيّ الإسلام ﷺ والأئمّة المعصومون عليهم السلام بمكانة خاصّة في هذا المجال وفي موضوع الشفاعة؛ لذا، قال النبيّ الكريم ﷺ: «**إِنِّي لَأَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُشَفَّعُ، وَيشْفَعُ عَلِيٌّ فيُشفَّعُ، وَيَشْفَعُ أَهْلُ بَيْتِي فَيُشَفَّعُونَ**»[1].

وقال في موضع آخر: «**ثَلَاثَةٌ يَشْفَعُونَ إِلَى الله (عَزَّ وَجَلَّ) فَيُشَفَّعُونَ: الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**»[2].

* شروط التشفّع

النقطة الأخرى ترتبط بشروط من يُشفع لهم يوم القيامة، وهو ما نوّهت به الروايات على نطاق واسع. ومن أهمّ هذه الشروط، عدم الكفر والشرك والبغض لأهل البيت عليهم السلام؛ وعليه، فالشفاعة لا تشمل سوى المؤمنين المرتكبين لبعض الذّنوب والمعاصي. قال النبيّ الأكرم ﷺ في هذا الصدد: «**والشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِ وَالشِّرْكِ وَلَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ؛ بَلْ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التوحيد**»[3].

كما رُوي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إِنَّ أَعْدَاءَ عَلِيٍّ هُمُ الْخَالِدُونَ فِي النار، لَا تُدْرِكُهُمُ الشَّفَاعَةُ**»[4].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص43.
(2) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج1، ص156.
(3) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص58.
(4) المصدر نفسه، ج8، ص361.

* موضوع الشفاعة

موضوع الشفاعة هو الركن الآخر من أركان الشفاعة؛ حيث يتبادر إلى الأذهان سؤال مفاده: هل الشفاعة شاملة لجميع الذنوب والمعاصي؟ أم أنّها مختصّة ببعضها فقط؟

يُستفاد من الروايات أنّ الشفاعة تقتصر على الحقوق الإلهيّة، ولا تشمل حقوق الناس؛ إذ لا بدّ لصاحب الحقّ من أن يهب حقّه أو يصفح عمّن سلبه إيّاه. نعم، ورد بشأن بعض عباد الله التائبين توبة حقيقيّة ولا يستطيعون أداء حقّ الناس إليهم، أنّ الله -سبحانه وتعالى- يعطي أصحاب الحقّ يوم القيامة عطايا كثيرة ليرضيهم بالتنازل عن هؤلاء العباد التائبين وإبراء ذمّتهم؛ لكنّ الشفاعة عموماً لا ترتبط بحقوق الناس.

كذلك ذُكر أنّ الشفاعة لا تنال مرتكب بعض الذنوب والمعاصي المتعلّقة بحقّ الله -سبحانه وتعالى-؛ فعلى سبيل المثال، قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام عند احتضاره، لولده الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «**لَا يَنَالُ شَفَاعَتَنَا مَنِ اسْتَخَفَّ بِالصَّلَاةِ**»[1].

ومن هذا المنطلق، وفي ضوء أهمّيّة الشفاعة في سعادة الإنسان الأبديّة وآثارها التربوية المهمّة، لا ينبغي للإنسان تعليق آماله على الشفاعة وتصوّر الحصول عليها بسهولة ودون العمل الدؤوب والسعي الحثيث.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج3، ص270.

المفاهيم الرئيسة

- تبلغ أهمّيّة الإيمان بالشفاعة إلى درجة أنّ المؤمن بها يعدّ مؤمناً حقيقيّاً، والمنكر لها خارج من دائرة الإيمان.
- ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ مَن يُؤذَن لهُم بالشفاعة هم الأنبياء والأوصياء والعلماء والشهداء، ويحظى نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومون عليهم السلام بمكانة خاصّة في هذا المجال.
- المقصود مِنْ نَفْي الشفاعة في بعض الآيات، هو الاستقلال في الشفاعة؛ في حين أنّ آيات أخرى تثبت صحّة الشفاعة بعد إذن الباري -سبحانه وتعالى-، وتكشف أنّ الشفاعة بإذن الله تُقبل من الإنسان في عالم الآخرة وتنفعه.
- النقطة الأخرى ترتبط بشروط من يُشفع لهم يوم القيامة، وهو ما نوّهت به الروايات على نطاق واسع، ومن أهمّ هذه الشروط عدم الكفر والشرك والبغض لأهل البيت عليهم السلام؛ وعليه، فالشفاعة لا تشمل سوى المؤمنين المرتكبين لبعض الذّنوب والمعاصي.
- يُستفاد من الروايات أنّ الشفاعة تقتصر على الحقوق الإلهيّة ولا تشمل حقوق الناس؛ إذ لا بدّ لصاحب الحقّ من أن يهب حقّه أو يصفح عمّن سلبه إيّاه.
- كذلك ذُكر أنّ الشفاعة لا تنال مرتكب بعض الذنوب والمعاصي المتعلّقة بحق الله -سبحانه وتعالى-.

الأسئلة

1. اذكر المعنى الصحيح وغير الصحيح للشفاعة وقارن بينهما.

2. اشرح آثار الإيمان بالشفاعة على حياة الإنسان.

3. من هم الشفعاء؟ ادعم جوابك بأحاديث تؤيّد كلامك.

4. ما هي شروط الشفاعة؟ ولماذا لا تشمل الشفاعة طائفة من الناس؟

الدرس الحادي والأربعون



الجنّة ونعيمها

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف أسماء الجنّة ودرجاتها وأبوابها.
2. يقرأ تنوّع النعم في الجنان.
3. يبيّن أنّ أهمَّ نعم الجنّة هي رضوان الله -تعالى-.



* تمهيد

بعد تجاوز المواقف المختلفة للقيامة والمتمثّلة بإعطاء صحيفة الأعمال والحساب والميزان والعبور من الصراط، يفترق الناس إلى فئتين: فئة أهل الإيمان والعمل الصالح، وفئة أهل الكفر والشرك والنفاق والمعصية؛ فتحصل كلّ فئة على ما تستحقّه وما وعدها الله به. وعليه، تكسب الفئة الأولى الثواب الإلهيّ المنشود، وتنتظر الفئة الثانية العقاب والعذاب الإلهيّ الشديد؛ لتنال جزاء أعمالها، في حال فقد الشفاعة والعفو الإلهيّ.

الثواب يعني الجزاء الحسن والأجر، والمقصود به إعطاء الأجر للمؤمنين المحسنين. والعقاب يعني مجازاة المسيئين بالعقوبة التي يستحقّونها. ولمَّا كان الله -سبحانه وتعالى- كريماً مع عباده، منّ عليهم بفضله وجوده بمضاعفة الحسنة إلى عشرة أمثالها، بينما لا يُجازَى العمل السيّئ إلّا بمثله ودون زيادة؛ ولذا، قال الباري (عزَّ وجلَّ) في محكم كتابه الكريم: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[1].

إنّ الجنّة هي المأوى الأبديّ للمحسنين، وهي تحتوي على جميع الكمالات والفضائل من دون استثناء، وحسبها في الأهمّيّة أنّ القرآن الكريم، كلّما ذكر هذا

(1) سورة الأنعام، الآية 160.

المقام أردفه بتعبير: «فوز عظيم»[1]، ولا ينال هذه العطيّة الإلهيّة إلّا من استفاد من دنياه على النحو الأكمل بالتخطيط الدقيق والمنهجيّة الواضحة، ولم يضيّع الفرص التي أمامه ولم يفرّط بما آتاه الله.

* أسماء الجنّة

ذُكرت أسماء متعدّدة للجنّة في القرآن الكريم، لكنّ الاسم الأشهر لها هو «الجنّة»، وقد وردت الإشارة إليه مع مشتقّاته أكثر من مئة مرّة في القرآن. والجنّة مشتقّة من المادّة «جنّ» بمعنى الستر، وهي تعني أيضاً البستان الحاوي للشجر؛ ذلك أنّ الشجر بورقه يستر[2].

* درجات الجنّة

إنّ كلَّ واحد من الأسماء المتقدّمة للجنّة يشير إلى درجة معيّنة فيها. من هنا، ورد في رواية عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الْجَنَّةُ مائَةُ دَرَجَة، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. الْفِرْدَوْسُ أَعْلَاها دَرَجَةً، مِنْها تُفجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ**»[3].

ومن الواضح أنّ لكلّ شخص من أهل الإيمان درجة ومرتبة خاصّة، يتمّ تحديدها بدقّة في موقف الميزان، وهذا الاختلاف في الدرجات يتطلّب تعدّد درجات الجنّة أيضاً؛ ليتنعّم كلّ مؤمن بالنِّعم التي يستحقّها في الدرجة المناسبة له.

(1) انظر على سبيل المثال: سورة المائدة؛ الآيَتَيْن 13 و19؛ سورة التوبة، الآيات 89 و100 و111.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج1، ص421؛ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص92.

(3) الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى، التفسير الصافي، صححه وقدم له وعلق عليه العلامة الشيخ حسين الأعلمي، طهران، مكتبة الصدر، 1416هـ - 1374ش، ط2، ج3، ص268.

❋ أبواب الجنّة

من الخصائص الأخرى للجنّة، عدد أبوابها الكثيرة، فقد ورد في روايات عدّة أنّ لها ثمانية أبواب، وهذا ما أكّد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في أحد أحاديثه؛ حيث ذكر أنّ كلّ باب من تلك الأبواب مخصّص لدخول فئة معيّنة من المؤمنين: باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها الشيعة والمحبّون لأهل البيت عليهم السلام[1].

الموضوع الآخر المتعلّق بالجنّة والذي أشارت له المصادر الإسلاميّة، هو الملائكة الموجودون فيها والمعبّر عنهم بـ«الخزَنة»؛ حيث ذكر القرآن الكريم هذا النوع من الملائكة، مضيفاً أنّهم يستقبلون من يدخل الجنّة من المؤمنين بالسلام والترحاب، فقال -سبحانه وتعالى-:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[2].

وجرى التعبير في الروايات عن حرّاس الجنّة من الملائكة بـ«سدَنة الجنّة»[3]، وكبيرهم يدعى «رضوان خازن الجنّة»[4].

❋ تنوّع النِّعم في الجنان

يتنوّع النعيم الإلهيّ الذي يُعطى للمؤمنين في الجنان إلى درجة عدم إمكان التصوّر بحسب الآيات والروايات؛ ذلك أنّ النِّعم واللَّذّات الدنيويّة زائلة وفانية، فلا يمكن مقارنتها بالنعيم الأخرويّ الدائم الذي لا يزول أبداً من حيث كونه لذّة متمحّضة. وكفى دليلاً على ذلك أنّ النِّعم الأخرويّة لا تخطر على قلب إنسان،

(1) انظر: الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص408؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص121.
(2) سورة الزمر، الآية 73.
(3) انظر: الصحيفة السجاديّة، الدعاء الثالث.
(4) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص325؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص327.

فضلاً عن أن يكون قدرآها أو سمع بها أحد من البشر؛ لذا ورد في الحديث القدسيّ:«**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ بِقَلْبِ بَشَرٍ**»[1].

وجاء في حديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في وصف نعيم الجنّة:«**إِنَّ أَهْلَ الْجَنّة يُحْيَوْنَ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَداً، وَيَسْتَيْقِظُونَ فَلَا يَنَامُونَ أَبَداً، وَيَسْتَغْنُونَ فَلَا يَفْتقِرُونَ أَبَداً، وَيَفْرَحُونَ فَلَا يَحْزنُونَ أَبَداً، وَيَضْحَكُونَ فَلَا يَبْكُونَ أَبَداً، وَيُكْرَمُونَ فَلَا يُهَانُونَ أَبَداً، وَيَفْكَهُونَ وَلَا يُقَطِّبُونَ أَبَداً، وَيُحْبَرُونَ وَيُسَرُّونَ أَبَداً، وَيَأْكُلُونَ فَلَا يَجُوعُونَ أَبَداً، وَيَرْوُونَ فَلَا يَظْمَئُونَ أَبَداً، وَيَكْسُونَ فَلَا يَعْرُونَ أَبَداً، وَيَرْكَبُونَ وَيَتَزَاوَرُونَ أَبَداً**»[2].

وسنعمد في ما يلي إلى بيان عددٍ من نِعَم الجنّة ضمن نقاط متعدّدة اعتماداً على الكتاب والسنّة:

1. رحابة منازل أهل الجنّة

إنّ منازل أهل الجنّة واسعة جدّاً، فالمؤمن الموجود في أسفل درجات الجنّة له مثل الدنيا عشر مرّات[3]. وللمؤمنين فيها غُرَفٌ كبيرة وقصور فخمة، اعتُبرت في الآيات القرآنيّة من النِّعم الإلهيّة للإنسان جزاءً لأفعاله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[4].

وورد في صفات الجنّة أنّها دار بقاء وسلام، وليس فيها ليل ولا ظلمة، ونورها ليس من الشمس ولا القمر؛ بل هو نور المؤمنين في أرجائها[5].

(1) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص191.

(2) المفيد، الاختصاص، مصدر سابق، ص358؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص220.

(3) انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص201، باب 23 الجنّة ونعيمها.

(4) سورة الزمر، الآية 20.

(5) انظر: المجلسيّ، حقّ اليقين، مصدر سابق، ص491-492؛ وأيضاً انظر: العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص90؛ ج63، ص340.

2. الرفقاء في الجنّة

من أهمّ ما يميّز النِّعم الإلهيّة في الجنّة، مجالسة الأشخاص الكبار ومرافقة الأولياء الإلهيّين الذين تطغى عليهم روح المحبّة والألفة والحنوّ، ولا يخامرهم الحقد والحسد والعداء، كما أنّ التجمّعات فيها بعيدة عن اللغو والعبث، ويسودها الأنس والمودّة والصداقة الحميمة، حتّى إنّ الباري -سبحانه وتعالى- امتدح تلك الصداقة قائلاً: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1].

وينزع الباري -سبحانه وتعالى- من صدور أهل الجنّة جميع أشكال الحقد والحسد، فيتلذّذون بالبقاءِ معاً ويضمرون لبعضهم مشاعر الأخوّة:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[2].

ومنهم من لا ينطق إلّا بالتحيَّة والسلام، فلا يُسمع منهم أيّ كلام قبيح:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾[3].

3. أهل الجنّة في سرور ونشاط

من النعم الأخرى التي يتنعّم بها أهل الجنّة، الفرح والسرور الذي يتراءى في وجوههم، وهذا ما يُستفاد من بعض الآيات القرآنيّة، نحو قوله -سبحانه وتعالى-:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾[4].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾[5].

4. طعام أهل الجنّة وشرابهم

يتمثَّلُ بعض النعيم الأخروي ولذّات أهل الجنّة بالأطعمة والأشربة؛ حيث

---

(1) سورة النساء، الآية 69.
(2) سورة الحجر، الآية 47.
(3) سورة الواقعة، الآيتان 25 - 26.
(4) سورة الغاشية، الآية 8.
(5) سورة المطفّفين، الآية 24.

تتنوّع الأطعمة هناك إلى درجة أنّهم يحصلون على كلّ ما يشتهونه من لحوم وفواكه، وقد وصف القرآن الكريم أنواع الأطعمة والأشربة التي تعدّ لأهل الجنّة بقوله: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[1].

ومن جملة نعيم أهل الجنّة، شجرة طوبى، تلك الشجرة العظيمة التي تشكل جزءاً من طعام أهل الجنّة. وطوبى شجرة في الجنّة، أصلها في دار رسول الله ﷺ، وليس من مؤمن إلّا وفي داره غصن من أغصانها[2].

5. أزواج أهل الجنّة

إلى جانب القصور الفارهة واللباس الفاخر والثمار المتنوّعة، يتنعّم أهل الجنّة بأزواج جميلات وحوريّات مطهّرات ومنزّهات من جميع أشكال العيوب الظاهريّة والباطنيّة؛ ما يوفر أجواءً لا توصف من الراحة والاستقرار. وقد ورد الحديث عن تلكم الأزواج وخصائصهنّ في القرآن الكريم والأحاديث مراراً وتكراراً، فعبّرت عنها بعض الآيات القرآنيّة بـ«الأزواج» أو «الحور العين»، وهي شاملة لكلا الجنسين من الرجال والنساء؛ فكما وُعد الرجال بزوجات صالحات من نساء الجنّة، كذلك تحصل النساء الصالحات في الدنيا على أزواج مطهّرين في الجنّة. قال -سبحانه وتعالى-:

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[3].

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾[4].

6. النِّعم غير المتصوّرة

فضلاً عن النعم واللذّات الأخرويّة التي يوجد لها شبيه في الدنيا -ولو من بعيد-؛ لذا فهي قابلة للوصف والبيان، ثمّة أنواع من النعم الإلهيّة التي ليس لها

(1) سورة الواقعة، الآيتان 20 - 21.

(2) انظر: الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج2، ص239؛ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص483؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص131.

(3) سورة البقرة، الآية 25.

(4) سورة الواقعة، الآيتان 22 - 23.

مثيل في الدنيا؛ فعبّر عنها الباري (جلّ وعلا) بـ«قرّة الأعين»، وقد وصف -سبحانه وتعالى- هذه النِّعم الخفيّة في الجنّة والخارجة من دائرة تصوّر البشر والتي تقرّ بها أعين أهل الجنّة فقط، بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في وصف الآخرة وتفسير ﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: «**كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا سَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْآخِرَةِ عِيَانُهُ أَعْظَمُ مِنْ سَمَاعِهِ**»[2].

* الرضوان الإلهيّ

إلى جانب النِّعم المادِّيّة والمعنويّة المذكورة لأهل الجنّة، تحدّث القرآن الكريم عن نعمة أخرى وثواب آخر تحت عنوان «رضوان من الله»[3]، اعتُبِرَ أفضل من جميع النِّعم الأخرى، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4].

فلا شكّ في أنّ الرضوان الإلهيّ المذكور إنّما هو إشارة إلى مقام معنويّ سام عند الله -سبحانه وتعالى- يبلغه عباد الله الصالحون، ولا يمكن العثور على أيّ توصيف معقول له. فعندما يتعذّر إدراك النعم الأخرويّة الظاهريّة التي تُعطَى للمؤمن في الجنّة كما ينبغي، من الطبيعيّ أن يكون أيّ بيان لهذه الحقيقة المعنويّة خارجاً من دائرة فهم الإنسان، ويجب تذوّق هذه الحقائق في جوار أولياء الله من أعماق القلب، إن شاء الله -سبحانه وتعالى-.

---

(1) سورة السجدة، الآية 17.

(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص170، الخطبة 114؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص109.

(3) انظر: سورة آل عمران، الآية 15.

(4) سورة التوبة، الآية 72.

المفاهيم الرئيسة

- بعد تجاوز المواقف المختلفة للقيامة والمتمثّلة بإعطاء صحيفة الأعمال والحساب والميزان والعبور من الصراط، يفترق الناس إلى فئتين: فئة أهل الإيمان والعمل الصالح، وفئة أهل الكفر والشرك والنفاق والمعصية؛ فتحصل كلّ فئة على ما تستحقّه وما وعدها الله به.
- إنّ الجنّة هي المأوى الأبديُّ للمحسنين، وهي تحتوي على جميع الكمالات والفضائل من دون استثناء، وحسبها في الأهمّيّة أنّ القرآن الكريم كلّما ذكر هذا المقام أردفه بتعبير: «فوز عظيم».
- ذُكرت أسماء متعدّدة للجنّة في القرآن الكريم، لكنّ الاسم الأشهر لها هو «الجنّة»، وقد وردت الإشارة إليه مع مشتقّاته أكثر من مئة مرّة في القرآن.
- إنّ كلَّ واحد من الأسماء المذكورة للجنّة يشير إلى درجة معيّنة فيها.
- من الخصائص الأخرى للجنّة، عدد أبوابها الكثيرة، فقد ورد في روايات عدّة أنّ لها ثمانية أبواب.
- الموضوع الآخر المتعلّق بالجنّة والذي أشارت إليه المصادر الإسلاميّة، هو الملائكة الموجودون فيها والمعبّر عنهم بـ«الخزَنة».
- يتنوّع النعيم الإلهيّ الذي يُعطى للمؤمنين في الجنان إلى درجة عدم إمكان التصوّر بحسب الآيات والروايات؛ ذلك أنّ النِّعم واللَّذّات الدنيويّة زائلة وفانية، فلا يمكن مقارنتها بالنعيم الأخرويّ الدائم والذي لا يزول أبداً.
- إنّ منازل أهل الجنّة واسعة جدّاً، فالمؤمن الموجود في أسفل درجات الجنّة له مثل الدنيا عشر مرّات. وللمؤمنين فيها غُرَفٌ كبيرة وقصور فخمة.

الأسئلة

1. استشهِد بالآيات القرآنيّة لإثبات أنّ النِّعم الأخرويّة غير منتهية وغير محدودة.

2. أوضح اثنين من النعم المعنويّة لأهل الجنّة مع ذكر الآيات القرآنيّة ذات الصلة.

3. لماذا خُلقت درجات ومراتب مختلفة في الجنّة؟ وبماذا تختلف بعض هذه الدرجات عن بعضها الآخر؟

4. ما العلاقة، برأيك، بين درجات الجنّة وأبوابها وتنوّع النِّعم في الجنان؟

الدرس الثاني والأربعون

جهنّم وعذابها

أهداف الدرس

على المتعلّم، مع نهاية هذا الدرس، أن:

1. يتعرّف أسماء جهنّم التي ذُكرت في القرآن الكريم.
2. يعدّد أسماء الملائكة الموكَّلين بجهنّم الذين ذكرهم القرآن الكريم.
3. يعرف دركات جهنّم وأبوابها وأنواع العذاب فيها.

* تمهيد

إنّ جهنّم هي آخر موقف للكافرين والمسيئين، وهي النهاية التي تحتوي على جميع أنواع العذاب والهوان، وليس لها نهاية أبداً. ولطالما أشار القرآن الكريم إلى هذه النهاية المشؤومة وغير المنتهية مراراً وتكراراً، وعبّر عنها بتعابير من قبيل ﴿ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2]، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[3].

* أسماء جهنّم

جرى التعبير عن النار بأسماء متعدّدة، أبرزها «جهنّم» الذي ذُكر في القرآن الكريم سبعين مرّة. وقد اختُلف في معناه اللّغويّ، فمنهم من فسّره بالنار، ومنهم من قال إنّه بمعنى القعر البعيد[4]، وكلا المعنيين معبّران عن حقيقة جهنّم تماماً؛ ذلك أنّ النار والإحراق والعمق من أهمّ مواصفات جهنّم.

وأُشيرَ إلى جهنّم بتعابير أخرى في القرآن الكريم، منها: النار، الجحيم، السعير، سقر، الحُطَمة، لظى، الهاوية. فالنار معروفة، والجحيم هي النار المستعرة

(1) انظر: سورة الزمر، الآية 15.
(2) انظر: سورة النساء، الآيَتَيْن 97 - 115.
(3) انظر: سورة آل عمران، الآية 197.
(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص112.

والشديدة، والسعير يعني النار الملتهبة والمحرقة، وسقر بمعنى النار التي تغيّر ألوان الأشياء من حولها من شدّة الحرارة، والحُطَمة أي المهشّمة، واللظى اللهب الخالص، والهاوية تعني النار المحرقة.

وكما هو واضح؛ فإنّ الروضة التي تُطلَق على الجنّة تذكّر باللّذة والفرح، بينما تشير النار، التي هي من أسماء جهنّم، إلى العذاب الأليم.

* درَكات جهنّم

تحتوي جهنّم على طبقات مختلفة، ولمّا كانت هذه الطبقات -خلافاً للجنّة- تتّجه إلى الأسفل فقد أُطلق على كلّ طبقة منها اسم «درَك»، ويُسمَّى مجموع طبقاتها باسم «دركات جهنّم». والسبب في وجود طبقات مختلفة في جهنّم هو اختلاف مراتب أهل النار، فيوضع كلّ واحد منهم في المكان الذي يستحقّه من العذاب بحسب أعماله السيّئة. وقد ذُكر في الروايات أنّ عدد دركات جهنّم سبع طبقات، يكون العذاب في كلّ طبقة أشدّ من سابقتها كلّما اتّجهنا إلى الأسفل. وأفاد القرآن الكريم بأنّ المنافقين في الطبقة السفلى من جهنّم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾[1].

* أبواب جهنّم

لجهنّم سبعة أبواب، وقد صرّح بذلك القرآن الكريم، فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾[2].

ويُستفاد من بعض الروايات أنّ أبواب جهنّم لها علاقة بدركاتها وطبقاتها، فلكلّ طبقة منها باب خاصّ بها، فيدخل أهل النار من أبوابهم المخصّصة، بحسب

(1) سورة النساء، الآية 145.

(2) سورة الحجر، الآيتان 43 - 44.

مرتبتهم من الكفر والعصيان. وورد أنّ أعداء أهل البيت عليهم السلام يدخلون من الباب السابع، ويستقرّون في الدرك الأسفل من الجحيم؛ حيث قال أبو عبد الله الصّادق عليه السلام: «**وَبَابٌ يَدْخُلُ فِيهِ مُبْغِضُونَا وَمُحَارِبُونَا وَخَاذِلُونَا، وَإِنَّهُ لأَعْظَمُ الْأَبْوابِ وَأَشَدُّهَا حَرًّا**»[1].

* خزّان جهنّم

ذُكر في الكتاب والسنّة أسماء ثلاثة أصناف من الملائكة الموكَّلين بالنار، وهم: الزبانية، والغلاظ الشداد، والملائكة التسعة عشر:

1. الزبانية

هذا هو الصنف الأوّل من خزّان النار، وقد ذكرهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾[2].

ورُوِي عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام أنّ الزبانية هم الملائكة الموكَّلين بجهنّم، يربطون أهل النار بالأغلال ويلقونهم في جهنّم: «**وَالزَّبَانِيَةَ الَّذِينَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ:** ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾، **ابْتَدَرُوهُ سِرَاعاً، وَلَمْ يُنْظِرُوهُ**»[3].

2. الغلاظ الشداد

صوّر القرآن الكريم الصنف الثاني من ملائكة النار، أي الغلاظ الشداد، قائلاً: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[4].

(1) الشيخ الصدوق، الخصال، مصدر سابق، ج2، ص361؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص285.
(2) سورة العلق، الآية 18.
(3) الصحيفة السجّاديّة، الدعاء الثالث؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج56، ص218.
(4) سورة التحريم، الآية 6.

3. الملائكة التسعة عشر

الصنف الآخر من الملائكة الموكَّلين بالنار الذين ذكرهم القرآن الكريم باسم «تسعة عشر»، وأكّد على أنّ وظيفتهم حراسة واد خاصّ في جهنّم يُعرف بـ«سقر»، فقال -سبحانه وتعالى- في هذا الصدد: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[1].

وخازن النار -أي كبير الملائكة الموكَّلين بها- يدعى «مالك»، وقد ورد اسمه صريحاً في القرآن الكريم على لسان أهل النار الذين ينادونه باسمه ويدعونه لتخليصهم منها: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[2].

وكما ذكرنا سابقاً، من أنّ «رضوان» اسم خازن الجنّة، كذلك «مالك» اسم خازن النار[3].

* تنوّع العذاب في النار

إنّ عذاب جهنّم يقع في الجهة المقابلة للنعيم في الجنّة؛ فكما لا يمكننا إدراك النِّعم الأخرويّة التي تُعطَى لأهل الجنّة، كذلك لا يمكننا تصوّر الآلام والعذاب الذي يتعرّض له أهل النار. ولمّا كانت جهنّم محلّ بروز الغضب والانتقام الإلهيّ، فإنّ أهل النار يُعذّبون بأنواع العذاب الجسديّ والروحيّ، منها على سبيل المثال الإحراق بالنار، واللدغ بالعقارب والحيّات، وتناول القيح والفضلات، والحسرة والحزن، ومشاهدة الوجوه القبيحة والكريهة. ويبلغ عذاب النار من الشدّة والألم ما يهوّن الآلام الأخرى مقابل هذا العذاب. من هنا، قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال: «**كُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النار عَافِيَة**»[4]، «**كُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النار يَسِيرٌ**»[5].

(1) سورة المدّثر، الآيات 27 - 30.
(2) سورة الزخرف، الآية 77.
(3) القمّيّ، تفسير القمّيّ، مصدر سابق، ج2، ص326؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج7، ص327.
(4) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج8، ص24؛ الشريف الرضي، نهج البلاغة، مصدر سابق، ص544، الحكمة 387؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص200.
(5) العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج68، ص93.

ولهذا السبب، شدّد القرآن الكريم على أنّ حجم العذاب الإلهيّ وشدّة بلاء جهنّم يدفعانِ بصاحبهما إلى أنّ يكون مستعدّاً للتضحية بأحبَّائه وأعزَّائه وأقرب الناس إليه بغية تخليص نفسه منهما؛ وأنّى له ذلك بعد فوات الأوان: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[1].

حيث يأتيه الجواب: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[2].

على أنّ العذاب الأخرويّ يختلف عن العذاب الدنيويّ بنقطتين أساسيّتين: الأولى، دوام العذاب الأخرويّ وعدم انقطاعه، والثانية، شدّة عذاب جهنّم وتمحّضه، فإنّ ثمّة نهاية لعذاب الدنيا وآلامها؛ حيث تنتهي بالموت؛ في حين أنّ عذاب جهنّم في الآخرة دائم وبلا نهاية، فلا موت يخلّص الإنسان من الآلام، ولا نهاية لعذابه المتواصل، وقد أشارت الآية الشريفة التالية إلى هاتين النقطتين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾[3].

❋ أنواع العذاب في جهنّم

في ضوء المعاني التي ذُكرت لجهنّم، يمكن الإشارة إلى صفتين بارزتين لها: إحداهما العمق الكبير وثانيتُهما النار الشديدة والمحرقة، وهذا المكان هو موضع أشدّ العقوبات الخارجة من دائرة التصوّر والإدراك؛ فكما أنّ لذّات الجنّة خالصة ومتمحّضة ولا يمكن مقارنتها باللَّذّات الدنيويّة أبداً، كذلك هو عذاب جهنّم فإنّه متمحّض ولا يقبل القياس إلى العذاب الدنيويّ مطلقاً؛ حيث إنّ شدّة العذاب تبلغ حدّاً جعلت الباري -سبحانه وتعالى- يطلق عليه اسم «العذاب الأكبر»، ويؤكّد

(1) سورة المعارج، الآيات 11 - 14.
(2) سورة المعارج، الآية 15.
(3) سورة فاطر، الآية 36.

على أنّه لم يُعذّب أحد بمثل هذا العذاب سابقاً، فقال: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾[1].

وقد أوردت الآيات والروايات جوانب من عذاب جهنّم وآلامها، وانطلاقاً من ذلك يمكن بحث موضوعات من قبيل: مكان أهل النار، طعامهم وشرابهم، ملبسهم، الأغلال والأصفاد التي يقيّدون فيها، العقارب والحيّات في جهنّم، صراخهم وعويلهم، نزاعهم وجدالهم، حسرتهم وندمهم، تحقيرهم والاستهزاء بهم:

1. ضيق مكان أهل النار

أهمّ ما يتميّز به المكان الذي يقع فيه العذاب الإلهيّ والمسمّى بـ«جهنّم» هو الحرارة الشديدة والقعر البعيد والضيّق والظلمة.

من هنا، أكّد القرآن الكريم على عظمة هذه النار ووصفها بـ«النار الكبرى»، قائلاً: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[2].

ومن العوامل الأخرى لشدّة العذاب في نار جهنّم، المكان الضيّق لأهلها وساكنيها؛ ما يدفعهم إلى الدعوة على أنفسهم بالويل والثبور نتيجة شدّة الآلام والضُّغوط الكبيرة: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[3].

2. طعام أهل النار وشرابهم

إنّ الطعام والشراب الذي يُقدّم إلى أهل النار يضاعف من عذاب هذا المكان ويضيّق الخناق على ساكنيه، فقد أفادت الآيات والروايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السلام بأنّ طعامهم وشرابهم: زَقّوم، حَميم،

(1) سورة الغاشية، الآية 24.
(2) سورة الأعلى، الآيتان 11 - 12.
(3) سورة الفرقان، الآية 13.

غِسْلين[1]، ضَريع، غَسّاق[2]، صَديد[3]، مُهْل[4]؛ ولكلّ واحد من هذه المأكولات والمشروبات آثار خاصّة تؤدّي إلى زيادة عذاب أهل النار ومضاعفة آلامهم.

3. لباس أهل النار

لباس أهل النار يسبّب لهم العذاب والنقمة أيضاً؛ حيث ذكر الباري -سبحانه وتعالى- في القرآن الكريم أنّ ثيابهم من مادّة قابلة للاشتعال تلتصق بجلودهم وذات رائحة كريهة:

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾[5].

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[6].

4. أغلال جهنّم

توضع الأغلال والأصفاد في أعناق أهل النار ويُسحبون بها في جهنّم، وهذا ما يسبّب لهم الشعور بالذلّ والهوان فضلاً عن العذاب الجسديّ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع في بعض الآيات، فقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾[7].

وقال أيضاً: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾[8].

(1) انظر: سورة الحاقّة، الآية 36.
(2) سورة النبأ، الآية 25.
(3) انظر: سورة إبراهيم، الآية 16.
(4) انظر: سورة الكهف، الآية 29.
(5) سورة الحجّ، الآية 19.
(6) سورة إبراهيم، الآية 50.
(7) سورة الحاقّة، الآيات 30 - 32.
(8) سورة غافر، الآية 71.

5. تنازع أهل النار

إنّ أهل النار يتنازعون في ما بينهم، كما يتبرّأ بعضهم مع بعضهم الآخر؛ لذا قال القرآن الكريم بشأن النزاع بين أئمّة أهل النار: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

ومن النزاعات الأخرى التي تنشب بعد انتهاء حكم الله واتّضاح معالم أهل النار، النزاع بين سكّان جهنّم والشياطين الذين كانوا قرناء للكافرين المُعرِضين عن ذكر الله في الحياة الدنيا والمسبّبين لانحرافهم عن الصراط القويم وابتعادهم عن السبيل الإلهيّ؛ حيث تنكشف لهم خيانتهم ويتمنّون أن يكون بينهم بُعد المشرق والمغرب: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾[2].

وعندما يحمّل أهل النار الشيطان مسؤوليّة ضلالهم وغوايتهم ودخولهم النار، ينبري الشّيطان للدفاع عن نفسه ويؤكّد لهم أنّه لم يقم بأكثر من دعوتهم إلى سبيل الضلال كما دعاهم الله إلى طريق الحقّ، وأنّه لا سلطان له عليهم ولم يجبرهم على اتّباعه؛ بل هم الذين استجابوا له، فعليهم أن يؤاخذوا أنفسهم قبل أن يؤاخذوه بسبب سوء اختيارهم: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

(1) سورة البقرة، الآيتان 166 - 167.
(2) سورة الزخرف، الآيات 36 - 38.
(3) سورة إبراهيم، الآية 22.

6. حسرة أهل النار وندمهم

قد تحدّثنا حتّى الآن، عن أنواع العذاب الظاهريّ في جهنّم، ولكنّ القرآن الكريم أكّد على أنّ أهل الجحيم قد يتألّمون يوم القيامة من العذاب الروحيّ أكثر ممّا يتحمّلون من العذاب الجسديّ، والحسرة والندامة من جملة أنواع العذاب الروحيّ. ورد في رواية عن الإمام أبي عبد الله الصّادق عليه السلام أنّه قال: «**مَا خَلَقَ اللهُ خَلْقاً إِلَّا جَعَلَ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مَنْزِلاً وَفِي النار مَنْزِلاً، فَإِذَا أُسْكِنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النار النار نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَشْرِفُوا، فَيُشْرِفُونَ عَلَى النار وَيُرْفَعُ لَهُمْ مَنَازِلُهُمْ فِي النار، ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلُكُمُ الَّتِي لَوْ عَصَيْتُمْ رَبَّكُمْ دَخَلْتُمُوهَا؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ فَرَحاً لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمَ فَرَحاً بِمَا صُرِفَ عَنْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ. ثُمَّ يُنَادَوْنَ: يَا مَعَاشِرَ أَهْلِ النار، ارْفَعُوا رُؤُسَكُمْ؛ فَانْظُرُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ فَيَرْفَعُونَ رُؤُسَهُمْ؛ فَيَنْظُرُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذِهِ مَنَازِلُكُمُ الَّتِي لَوْ أَطَعْتُمْ رَبَّكُمْ دَخَلْتُمُوهَا. قَالَ: فَلَوْ أَنَّ أَحَداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النار ذَلِكَ الْيَوْمَ حُزْناً**»[1].

وعلى هذا الأساس، يدخل على أهل النار الحسرة والندم من جهتين: الأولى بسبب فقدان النعم الأخرويّة التي تُعرض عليهم في الجنّة، والثانية بسبب العذاب الأليم الذي ينتظرهم في النار وعدم الموت فيها، ما يضاعف من عذابهم وآلامهم. من هنا، أطلق القرآن الكريم على هذا اليوم «يوم الحسرة»، وأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بتحذير الناس من هذا اليوم، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

ويُستفاد من جميع ما تقدّم أنّ جهنّم مليئة بالعذاب والآلام لأهلها. وفي الجهة المقابلة أي الجنّة، هناك أناس يعيشون في غاية اللّذّة والنعيم ومنتهى الراحة والرخاء.

---

(1) الشيخ الصدوق، ثواب الأعمال، مصدر سابق، ص259؛ العلّامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج8، ص126.
(2) سورة مريم، الآية 39.

ولا ريب في أنّ الإنسان يختار أحد هذين المنزلين بمحض إرادته واختياره وبمقتضى عمله في الحياة الدنيا؛ فالكفر والعصيان يلقيان بصاحبهما في جهنّم، والعمل الصالح يضمن لصاحبه الجنّة. وعليه؛ فإنّ الإنسان هو من يختار لنفسه المكان والدرجة المناسبة من السعادة والشقاء، حسبما تقتضيه أفعاله وأفكاره.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ جهنّم هي آخر موقف للكافرين والمسيئين، وهي النهاية التي تحتوي على جميع أنواع العذاب والهوان، وليس لها نهاية أبداً.
- جرى التعبير عن النار بأسماء متعدّدة، أبرزها «جهنّم» الذي ذُكر في القرآن الكريم سبعين مرّة.
- تحتوي جهنّم على طبقات مختلفة، ولمَّا كانت هذه الطبقات -خلافاً للجنّة- تتّجه إلى الأسفل فقد أُطلق على كلّ طبقة منها اسم «درَك»، ويسمّى مجموع طبقاتها باسم «دركات جهنّم».
- يُستفاد من بعض الروايات أنّ أبواب جهنّم لها علاقة بدركاتها وطبقاتها، فلكلّ طبقة منها باب خاصّ بها، فيدخل أهل النار من أبوابهم المخصّصة بحسب مرتبتهم من الكفر والعصيان.
- ذُكر في الكتاب والسنّة أسماء ثلاثة أصناف من الملائكة الموكَّلين بالنار، وهم: الزبانية، والغلاظ الشداد، والملائكة التسعة عشر.
- إنّ عذاب جهنّم يقع في الجهة المقابلة للنعيم في الجنّة؛ فكما لا يمكننا إدراك النِّعم الأخرويّة التي تُعطَى لأهل الجنّة، كذلك لا يمكننا تصوّر الآلام والعذاب الذي يتعرّض له أهل النار.
- في ضوء المعاني التي ذُكرت لجهنّم، يمكن الإشارة إلى صفتين بارزتين لها: إحداهما العمق الكبير، وثانيتُهما النار الشديدة والمحرقة.
- يدخل على أهل النار الحسرة والندم من جهتين: الأولى بسبب فقدان النِّعم الأخرويّة التي تُعرض عليهم في الجنّة، والثانية بسبب العذاب الأليم الذي ينتظرهم في النار وعدم الموت فيها، ما يضاعف من عذابهم وآلامهم.

الأسئلة

1. استخرج الأسماء القرآنيّة لجهنّم، وبيّن المعنى اللغويّ لكلّ واحد منها.
2. ما هي الفوارق بين عذاب جهنّم وأنواع العذاب الدنيويّ؟
3. اذكر ثلاثة أمثلة حول أنواع العذاب الجسمانيّ في جهنّم مصحوبة بالأدلّة.
4. ما طبيعة العذاب المعنويّ الذي يمكن أن نستفيده من تنازع أهل النار؟ وهل ذُكرت لهم في القرآن والروايات أنواع أخرى من العذاب الروحيّ؟

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة آية الله المرعشي النجفي، إيران - قم، 1404هـ، ودار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1378هـ - 1959م، ط1.
3. ابن أبي جمهور الأحسائي، محمد بن علي، عوالي اللئالي، تقديم: السيد شهاب الدين النجفي المرعشي، تحقيق الحاج آقا مجتبى العراقي، لا.ن، لا.م، 1403هـ - 1983م، ط1.
4. ابن أبي حاتم الرازي، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم)، تحقيق: أسعد محمد الطبيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت، لا.ط.
5. ابن أبي زينب النعماني، الشيخ محمد بن إبراهيم، الغيبة، تحقيق: فارس حسون كريم، أنوار الهدى، إيران - قم، 1422هـ، ط1.
6. ابن البطريق، يحيى بن الحسن، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1407هـ، ط1.

7. ابن المغازلي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، انتشارات سبط النبي صلى الله عليه وآله، إيران، 1426هـ - 1384ش، ط1.
8. ابن حجر العسقلانيّ، أحمد بن علي، فتح الباري، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، لا.ت، ط2.
9. ابن حجر الهيتمي، أحمد بن حجر، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، مصر، 1385هـ - 1965م، ط2.
10. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ت، ط4.
11. ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1404هـ - 1363ش، ط2.
12. ابن طاووس، السيد علي بن موسى، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، إيران - قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هـ، ط1.
13. ابن طاووس، السيد علي بن موسى، سعد السعود، منشورات الرضى، إيران - قم، 1363هـ لا.ط.
14. ابن طاووس، السيد علي بن موسى، فلاح السائل، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط.
15. ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415، لا.ط.
16. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، إيران - قم، 1404هـ، ط1.
17. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الامامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات شريف الرضي، 1413هـ - 1371ش، ط1.
18. ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، تقديم يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، 1412هـ - 1992م، لا.ط.

19. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، إيران - قم، 1405هـ، لا.ط.

20. أبو عباس الناشئ الأكبر، عبدالله بن محمد، مسائل الإمامة، تحقيق وتقديم: يوسف فان إس، الناشر: بيروت، 1971م، دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن.

21. أحمد بن حنبل، المسند (مسند أحمد)، دار صادر، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

22. الأربليّ، الشيخ علي بن أبي الفتح، كشف الغمة في معرفة الأئمّة، دار الأضواء، لبنان - بيروت، 1405هـ - 1985م، ط2.

23. الاسترآبادي، السيد شرف الدين علي الحسيني، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه -الحوزة العلمية- قم المقدسة، 1407هـ - 1366هـ.ش، ط1.

24. الأصفهاني، الميرزا محمد تقي، مكيال المكارم، تحقيق: السيد علي عاشور، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1421هـ ط1.

25. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1405هـ - 1363ش، لا.ط.

26. الآلوسيّ، محمود بن عبدالله، روح المعاني في تفسير القرآن، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط.

27. الأندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي، د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، 1422هـ - 2001م، ط1.

28. أنيس، إبراهيم وآخرون (عبد الحليم منتصر - عطية الصوالحي - محد خلف أحمد) المعجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدوليّة، 2004م، ط4.

29. البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.م، 1401هـ - 1981م، لا.ط.

30. البستوي، عبد العليم عبد العظيم، المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف في ضوء الأحاديث والآثار الصحيحة، المكتبة المكية - مكة المكرمة - السعودية / دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1420هـ - 1999م، ط1.

31. البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الفكر، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

32. الترمذي، محمد بن عيسى بنسورة، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط2.

33. التفتازاني، مسعود بن عمر، شرح المقاصد في علم الكلام، دار المعارف النعمانية، باكتستان، 1401هـ- 1981م، ط1.

34. الثعلبي، الإمام أبو محمد بن عاشور، الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، 1422هـ - 2002م، ط1.

35. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، لبنان - بيروت، 1407هـ - 1987م، ط4.

36. الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، مؤسّسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي- مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، 1411هـ - 1990م، ط1.

37. الحرّ العامليّ، الشيخ محمد بن الحسن، الجواهر السنية، لا.ن، لا.م، 1384هـ - 1964م، لا.ط.

38. الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل

مسائل الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، إيران - قم، 1414هـ، ط2.

39. الخزاز القمي، علي بن محمد، كفاية الأثر، تحقيق: السيد عبد اللطيف الحسيني الكوهكمري الخوئي، انتشارات بيدار، إيران - قم، 1401هـ لا.ط.

40. الخليل الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسّسة دار الهجرة، إيران - قم، 1409هـ ط2.

41. دغيم، سميح، موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلاميّ، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان - بيروت، 1998م، ط1.

42. الديلمي، الحسن بن محمد، أعلام الدين في صفات المؤمنين، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، لا.ت، لا.ط.

43. الديلمي، الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد، إرشاد القلوب، إيران - قم، انتشارات الشريف الرضي، 1415هـ - 1374ش، ط2.

44. الذهبي، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ت، لا.ط.

45. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب، لا.م، 1404هـ ط2.

46. رشيد رضا، محمد، تفسير القرآن الكريم «تفسير المنار»، دار المنار، مصر-القاهرة، 1366هـ - 1947م، ط2.

47. الرفاعي، عبد الجبار، معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت عليهم السلام، وزارة الإرشاد الإسلامي، لا.ت، لا.ط.

48. الريشهري، الشيخ محمد، موسوعة العقائد الإسلاميّة، بمساعدة: رضا برنجكار وعبد الهادي المسعودي، تحقيق: مركز بحوث دار الحديث، دار الحديث، قم، إيران، 1425هـ - 1383هـ.ش، لا.ط.

49. الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1994م، لا.ط.

50. السبحاني، الشيخ جعفر، العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، تعريب: الشيخ جعفر الهادي، لا.ت، لا.ط.
51. سبحاني، الشيخ محمد تقي، شخصيّة المرأة - دراسة في الأنموذج الحضاريّ الإسلاميّ، المترجم: علي بيضون وشاكر كسراني، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - سلسة الدراسات الحضاريّة، 2009م، ط1.
52. السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1410هـ - 1990م، ط1.
53. السيوري، مقداد بن عبدالله، شرح الباب الحادي عشر للعلاّمة الحلي، مقدمة وتحقيق: دكتور مهدي محقق، مؤسسة آستان قدس رضوي، مشهد - إيران، 1368هـ.ش، لا.ط.
54. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر، 1416هـ - 1996م، ط1.
55. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1401هـ - 1981م، ط1.
56. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.
57. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، لجنة من الأدباء، لبنان - بيروت، مطابع معتوق اخوان، لا.ت، لا.ط.
58. شرف الدّين، السيد عبد الحسين، النصّ والاجتهاد، دار القارئ، 1429هـ - 2008م، ط1.
59. الشريف الرضي، السيد محمد الرضي بن الحسن الموسوي، نهج البلاغة (خطب الإمام علي عليه السلام)، تحقيق وتصحيح: صبحي الصالح، لا.ن، لبنان - بيروت، 1387هـ - 1967م، ط1.
60. الشعيريّ، الشيخ محمد بن محمد السبزواري، جامع الأخبار أو معارج اليقين

في أصول الدين، تحقيق: علاء آل جعفر، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، 1372هـ.ش، ط1.

61. الشيخ الأميني، عبد الحسين، الغدير، دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، 1397هـ - 1977م، ط4.

62. الشيخ سليمان بن إبراهيم الحنفي، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق السيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة للطباعة والنشر، إيران - قم، 1416هـ ط1.

63. الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، لا.ن، لا.م، لا.ت، لا.ط.

64. الشيرازي، الشيخ ناصر، دروس في العقائد الإسلاميّة، الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، 1427هـ ط3.

65. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسّسة البعثة، مركز الطباعة والنشر في مؤسّسة البعثة، إيران - قم، 1417هـ ط1.

66. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، التوحيد، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، لا.ت، لا.ط.

67. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1403هـ - 1362ش، لا.ط.

68. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، ثواب الأعمال، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، 1368هـ.ش، ط2.

69. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، صفات الشيعة، كانون انتشارات عابدي، تهران، لا.ت، لا.ط.

70. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، علل الشرائع، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، 1385هـ - 1966م، لا.ط.

71. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم : الشيخ حسين الأعلمي، الناشر: مؤسسة الأعلمي - بيروت - لبنان، 1404 هـ – 1984م، لا.ط.

72. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، فضائل الشيعة، كانون انتشارات عابدي، إيران - تهران، لا.ت، لا.ط.

73. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1379ه - 1338 ش، لا.ط.

74. الصدوق، الشيخ محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1414هـ ط2.

75. الصفار، محمد بن الحسن بن فروخ، بصائر الدرجات، تصحيح: الحاج ميرزا حسن كوچه باغي، منشورات الأعلمي، إيران - طهران، 1404ه - 1362ش، لا.ط.

76. الطباطبائي، العلامة السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1417ه، ط5.

77. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الصغير، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

78. الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخريج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، لا.م، لا.ت، ط2.

79. الطبرسي، الشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق - النجف الأشرف، 1386ه - 1966م، لا.ط.

80. الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، إيران - قم، 1417ه، ط1.

81. الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1415هـ.ق - 1995م، ط1.

82. الطبرسي، الشيخ الميرزا حسين النوري، مستدرك الوسائل، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، لبنان - بيروت، 1408هـ - 1987م، ط1.

83. الطبري، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى، مكتبة القدسي، مصر - القاهرة، 1356هـ لا.ط.

84. الطبري، محمد بن أبي القاسم، بشارة المصطفى، جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، إيران - قم، 1420، ط1.

85. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، مراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الأجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان - بيروت، 1403هـ - 1983م، ط4.

86. الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تقديم الشيخ خليل الميس / ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1415هـ - 1995م، لا.ط.

87. الطريحي، الشيخ فخر الدين، مجمع البحرين، تحقيق: السيّد أحمد الحسينيّ، نشر مرتضوي، لا.م، 1362ش، ط.

88. الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسّسة البعثة، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، إيران - قم، 1414هـ ط1.

89. الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، الغَيْبة، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني والشيخ علي أحمد ناصح، مؤسّسة المعارف الإسلامية، إيران - قم، 1411هـ ط1.

90. الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1364ش، ط3.
91. عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم ودرر الكلم المفهرس من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، دار الهادي، لبنان - بيروت، 1413هـ - 1992م، ط1.
92. العسكري، الإمام العلاّمة أبي أحمد الحسن بن عبدالله بن سعيد، التصحيف والتحريف وشرح ما يقع فيه، مطبعة الظاهر، 1326هـ - 1908م، لا.ط.
93. العلامة الحلي، أبو منصور الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي، الألفين، مكتبة الألفين، الكويت، 1405هـ- 1985م، لا.ط.
94. العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق آية الله حسن زاده الآملي، مؤسسة نشر الإسلامي، إيران - قم، 1417هـ، ط7.
95. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تحقيق: الحاج السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، إيران - طهران، 1422هـ، ط1.
96. الفخر الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (تفسير الرازي)، لا.ن، لا.م، لا.ت، ط3.
97. الفيروزآبادي، الشيخ محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، دار العلم للجميع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.
98. القاضي الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف (شرح علي بن محمد الجرجاني) مع حاشيتين أحدهما لعبد الحكيم السيالكوتي، والثانية للمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري، لا.ن، لا.م، 1325هـ - 1907م، ط1.
99. القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، لبنان - بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1405هـ - 1985م، ط2.

100. القزويني، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجة، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

101. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، الدعوات (سلوة الحزين)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عجل الله فرجه، إيران - قم، 1407هـ ط1.

102. قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله، قصص الأنبياء، تحقيق: الميرزا غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، مؤسّسة الهادي، إيران - قم، 1418هـ - 1376ش، ذكر الطبعة.

103. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح وتعليق وتقديم: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، 1404هـ ط3.

104. القيرواني، رسالة إبن أبي زيد، المكتبة الثقافية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

105. الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق وتصحيح: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، 1363ش، ط5.

106. الكنيسة، الكتاب المقدس (العهد الجديد)، دار الكتاب المقدس، 1980م، لا.ط.

107. الليثي الواسطي، علي بن محمد، عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، دار الحديث، إيران - قم، 1418ه، ط1.

108. المتقي الهندي، علاء الدين عليّ المتقيّ بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني - تصحيح وفهرسة الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، 1409ه - 1989م، لا.ط.

109. المجلسي، العلامة محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1403ه - 1983م، ط2.

110. مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.

111. المصطفوي، الشيخ حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، 1417هـ، ط1.
112. مغنيّة، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، لبنان - بيروت، دار العلم للملايين، 1981م، ط3.
113. المفضل بن عمر الجعفي، التوحيد، تعليق: كاظم المظفر، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، 1404هـ - 1984م، ط2.
114. المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن النعمان، الإرشاد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لتحقيق التراث، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2.
115. المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري والسيد محمود الزرندي، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2.
116. المفيد، الشيخ محمد بن محمد، الأمالي، تحقيق: حسين الأستاد ولي، علي أكبر الغفاري، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، 1414هـ - 1993م، ط2.
117. الميلانيّ، السيد علي الحسيني، مع الأئمّة الهداة في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، مركز الحقائق الإسلاميّة، 1432هـ.ق - 1390هـ.ش، ط1.
118. النسائي، أحمد بن شعيب، السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، 1411هـ - 1991م، ط1.
119. النسائي، أحمد بن شعيب، فضائل الصحابة، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، لا.ت، لا.ط.
120. النيسابوري، الشيخ محمد بن الفتال، روضة الواعظين، تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الخرسان، منشورات الشريف الرضي، إيران - قم، لا.ت، لا.ط.
121. اليزدي، الشيخ محمد تقي المصباح، دروس في العقيدة الإسلاميّة، دار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، 1429هـ - 2008م، ط8.

❋ الكتب الفارسية

1. برنجكار، روش شناسى علم الكلام (أسلوب التحقيق في علم الكلام)؛ مطهري، آشنائى با علوم اسلامى: كلام، عرفان، حكمت عملى (التعرّف على العلوم الإسلاميّة: الكلام، العرفان، الحكمة العمليّة)؛ خسروبناه، كلام جديد.
2. السيد مرتضى العسكريّ، نقش ائمه در احياء دين (دور الأئمّة في إحياء الدين)، فارسي.
3. العلاّمة المجلسي، حق اليقين.
4. الديلميّ، طبيعت وحكمت: پژوهشى در برهان نظم (الديلميّ، الطبيعة والحكمة: دراسة لبرهان النظم).
5. دوك هـ نه، دين جهانى، ص65؛ اينشتاين، دنيايى كه من مى بينم.
6. نوري همداني، دانش عصر فضا.
7. ناس، تاريخ جامع اديان.
8. برنجكار، معرفت عدل الهى.
9. مطهّري، نظام حقوق زن در اسلام.

مركز المعارف للمناهج والمتون التعليمية

مِنْ مؤسَّساتِ
جمعيَّـــةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ
الثقافيَّةِ، متخصِّص بإعدادِ المناهجِ
وَتدوينِ المتونِ التعليميَّةِ، وفقَ
المنهجيَّةِ العلميَّةِ وَالرؤيةِ
الإسلاميَّةِ الأصيلةِ.

9 786144 673010

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb